KHALID

MIN HUNA...NABD'A

BOBST LIBRARY
3 1142 02822 0450

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

خالد محمد خالد
من العلماء

من هنا نبدأ

الطبعة الرابعة
[حقوق الطبع محفوظة للمؤلف]

يطلب من الناشرين

مكتبة الخانجى
شارع عبد العزيز

مكتبة وهبة
١٧٦ شارع محمد على

١٩٥٠

خالد محمد خالد
من العلماء

من هنا نبدأ

الطبعة الرابعة
[حقوق الطبع محفوظة للمؤلف]

يطلب من الناشرين

مكتبة الخانجى
شارع عبد العزيز

مكتبة وهبة
١٧٦ شارع محمد على

دار النيل للطباعة
١٩٥٠

N.Y.U. LIBRARIES

Near East

DT
70
.K5
1950
c.1

الطبعه الرابعه

الكلمة التى نؤثرها على سواها فى تقديم هذه الطبعة الجديدة — كلمة شكر وتحذير .

أما الشكر فللقراء فى مصر والبلاد العربية على استقبالهم الكتاب استقبالا متزايداً نبيلا برهن على ما أدركه وعى الناس من يقظة وما يجيش فى صدورهم من منى حارة ، وآمال كبار ..

وأما التحذير فمن تلك الخدعة التى اجترح سيئتها نفر من الأشقياء إذ زيفوا من الطبعة الثالثة عدداً عديداً من النسخ مشحونة بالرداءة والأخطاء المطبعية ثم عاثوا بها فى البلاد مستغلين قصور القانون . وسذاجته ، ومستغلين صمت الرأى إزاء حقوق الملكية الأدبية ،

وآية هذه الطبعة الزائفة أنها لا تحمل على غلافها اسم « دار النيل للطباعة » وقد حذف من « كليشيه » عنوان الكتاب توقيع الخطاط — زواوى — وعلى أى صفحة من صفحاتها تقع عينك يطالعك حشد هائل من الأغلاط ورغم الذى اتخذناه من إجراءات قضائية ضد الطبعة الزائفة فهى لا تزال تتسلل وتباع .

ولقد كان من حق قارئنا الحبيب أن نحذره منها — مكررين الشكر للوعى الحر البصير الذى حمل على جناحيه كتابه .. « من هنا نبدأ » وحلق به فى آفاق من الذيوع والانتشار ،

واستجابة لرغبته النامية فى مطالعة الكتاب طبعنا من هذه الطبعة الرابعة كمية وفيرة ويسرنا سعره رغم فداحة تكاليفه حتى نتيح للمواطنين الأحرار هنا وهناك أن يقرأوا ويفيدوا .

لوجبة الثالثة :

علام تدل هذه الظاهره الحافلة . . ؟

إن المطبعة كلما أصدرت وجبة من الكتاب — بالغة ما بلغت من الدسامة والوفرة — التهمها الوعى وأتى عليها فى أيام معدودات ثم نادى . أين المزيد ؟ ! . .

وان من المبالغة أن نفسب هذا النهم الجميل الى الضجة التى قامت حول الكتاب وحدها . . بل إن هذا العامل ليبدو علامة للظاهرة أكثر مما يبدو علة لوجودها .

وسر ما ، هنا لك ، يكمن لا محالة وراء هذه الرغبة التى جاشت بها صدور المواطنين فانطلقت تبحث عن الكتاب بحث الحريص ، وهذا السر من الوضوح بحيث لانضل فى البحث عنه ولانشقى ...

فالوعى النامى فى بلادنا يريد الكتاب الذى يزيده إحساسا بحقوقه ، وتعلقا بآماله ، واندفاعا نحو غاياته واهدافه . . !

هو يريد الكتاب الذى يغزو مظالم المجتمع ، ويحرره من أغلال اليد . . وأغلال الفكر . . وأغلال الضمير . . !

أما تلك المؤلفات الهادفة إلى غمس عقله فى الخرافة . . وطموحه فى القناعة . . وإقدامه فى الوهن ، فقد ولاها ظهره ، وان يمنحها بعد اليوم شرف حملها بيمناه ، ولا بيسراه . . !

إنه يريد الكتاب الذى يرن فى أذنه رنين الصدق ، ويجلجل فى روعه جلجلة الوحى ، ويشع فى ضميره كنور الله ..

يريد الكتاب الذى يقدم له حقائق الأشياء بلا توشيـــة أو زخرف ، عارية كالنذير العريان . .

أترانى أزعم لكتابى شرف التسمى بهذه السمات ؟

لا أظن ... ولكننى أيضا لا أدرى . .

غاية الأمر أنى أعرض هذه الظاهرة ، وأحاول تفسيرها لنفيد منها حين نريد أن نكتب . وحين نريد أن يكون لما نكتب ود فى قلوب القراء ، ووقار .

* * *

إن المجتمع فى طوره الماثل مصمم على أن يغادر الحياة التى زيفتها له أقلام طالما سالت بكل آسن عكر . .

وهو إذ آمن بالحكمة القائلة : « الثقافة جيش غير منظور » حريص على أن يختـــار لجيشه هذا ، وحريص على أن يحسن الاختيار !

فلنعاونه فى المحاولة التى هى خليقة دون سواها بأن تهبه القوة والسعادة والنماء .

لقد كان رسول الله عليه السلام يدعو المؤمنين إلى أن يقولوا الكلمة الحرة الصـــادقة النافعة أو يصمتوا . . وجعل ذلك آية الإيمان بالله والغيب ، فقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً ، أو ليصمت . » وخير القول هو الذى يدفع بغيا قائماً ،

ويبدد جهلا جاثماً . . حتى لقد أكد الرسول أن أفضل الجهاد واشقه وأسماه . . كلمة حق عند سلطان جائر !

* * *

إن الشعوب عندما تستقيم فطرتها تميز بين الكلمة الطيبة ، والكلمة الخبيثة . . فتقبل بكل توقها وملء شوقها على الأولى ، وتدبر ملء إعراضها عن الثانية . .

ولقد استقامت فطرة الوعى المتفتح فى شعبنا الحبيب .

فلنقل له خيراً . . أو لنصمت .

ولنذكر دائماً أنه إذا كانت غايتنا إسعاد بلادنا وتحريرها ، فان الكلمة الشجاعة هى أكفأ ما نستطيع — الآن — أن نهتدى إليه لتحقيق هذه الغاية ...

قصة هذا الكتاب ..

.. وشاء ربك أن تكون لهذا الكتاب قصة .. تتمثل فيها محنة الفكر وروعة انتصاره ، وترتسم فى أفقها أهداف التقدمية الرشيدة — بيضاء مشرقة كضوء الفجر . وأغراض الرجعية البغيضة — سوداء مظلمة كقلب الحقود .. وتنهض وقائعها شاهدة على صدق أكثر مافى الكتاب من أفكار وآراء ..

وإذ قد صار الكتاب ملء وعيك البصير ووجدانك الحى ؛ فقد أصبح من حقك أن تعرف عنه مالم تكن تعرف . وفى هذه السطور أقدم إليك قصة الكتاب الذى آثره الله ورعاه .. والذى مكنت له بحفاوتك وتقديرك ، فخرج يسعى فى طبعته الثانية مزهواً بإيثار الله وتقدير القارىء ..

* * *

المصادرة الأولى

قبيل استقالة وزارة دولة ابراهيم عبدالهادى باشا بسبعة أشهر تقريبا ، وفى ضحى يوم جميل ، كان الكتاب فى طريقه الى دار النيل للطباعة ، ويسر له مديرها الأستاذ إسماعيل شوقى مشقة التكاليف بما فطر عليه من صفاء نفس ونبل عاطفة .

وفى اليوم الثانى كانت صفحاته الأولى بين أيدى العمال ، وفى اليوم الثالث كانت أولى ملازمه فى رقابة المطبوعات بالداخلية ..

واستضيفت هناك ثلاثة أيام ، استدعيت بعدها لمقابلة الرقيب الذى أفهمنى أن هذا الكتاب لايمكن مراجعته « بالقطاعى » . . ولا بد من تقديم أصوله كافة حتى يتسنى الحكم عليه مرة واحدة .

وبعد يومين آخرين حولت الملزمة والملازم الأخرى التى لحقت بها إلى رقيب آخر - من علماء الأزهر - فاشترط نفس الشرط الذى اشترطه سلفه . وقدمت أصول الكتاب جميعاً . . واستودعته الرقابة والرقيب . . وبعد شهور ذهبت لاتسلمه واعود به الى المطبعة عود الظافرين . فاذا وكيل المطبوعات والرقابة يزف الى فى أسف صادق مرير ان فضيلة الرقيب قد امر بمصادرة الكتاب وتحريم طبعه . . ووقفت اخيرا على أسباب هذا المنع - وخواها ان فضيلته رأى فى الكتاب هجوما على رجال الدين وعلى الرأسماليين ، وهذه سمة الشيوعية والشيوعيين . . أو كما قال . . !

وزج بالفكر فى قبو الظلمات . فلندعه الان فى سجنه أو فى منفاه . . ريثما نعود اليه او يعود الينا .

بلاد من ؟

وكان اسم الكتاب « بلاد من ؟ »

وكانت فصوله خمسة : انسانيون - الدين لا الكهانة - الخبز هو السلام - اسرار المجتمع - الطريق .

اما فصل « قومية الحكم » فقد رفعته من الكتاب ووضعت مكانه ، اسوار المجتمع .

لماذا ؟ لأن اصحاب الفكرة التى اناقشها فى هذا الفصل كانوا

ومئذ فى السجون والمعتقلات . . فلم يكن من الانصاف مناقشتهم بالعيب .

* * *

إفراج

وفى وزارة رفعة حسين سرى باشا — القست من الرقابة لإعادة النظر فى الكتاب المضطهد الحبيس ، واجيبت رغبتى ، واذن لى بنشره وإخراجه . . وأخذ طريقه الى المطبعة من جديد ، وعملت فيه يد الاختزال والتركيز ، وعاد فصل « قومية الحكم » إلى مكانة بعد ان زالت البواعث التى زحزحته عنه من قبل . . واتسم الكتاب بسمة الايجابية والتوجيه فكان انسب الأسماء له « من هنا . . نبدأ » .

ووقف صرير المطابع . . وغادرها الكتاب الى القراء يبث فيهم دعوة السلام والحب المساواة والعدل والواجب — هادىء الفورة .. حسن السمت ثابت الوطأة . . كل غاياته ان ينفى عن الدين تحريف المبطلين . . وعن الجميع ظلم الظالمين . .

عواصف

وليس فى طبائع الأشياء ان يمر بسلام ، كتاب يتحدى حرص الناس . . ومآربهم الدنيا ومصالحهم العتيده ، وتعصبهم المزمن لما لم ينزل به من الله كتاب ولا برهان . فما ان صدر الكتاب حتى ازجت بعض النفوس جذاذات من الزوابع . . تضامنت وتآلفت وامست ركاما قاتما يريد ان يحجب الضوء ويطمس مطالعه . .

ولكن طبائع الأشياء أيضاً تأبى أن ينتصر الظلام على النور، وتؤكد أعمق توكيد تلك الحكمة القائلة :

« إن ظلام العالم كله ليعجز عن اطفاء شمعة . . ! » وهذا هو الذى حدث .

فلقد مضى موكب الاضواء ممزقا هذا الركام من الضباب ، ساخرا به وبالظلمات . . آخذا طريقه إلى الوعى البصير الحر يحدثه عن آلامه وآماله ، وينفخ منه فى الفحم الهامد . . ويعلى كلمة الله ، وكلمة الشعب .

محاكمة

وعلى حين غفلة انقض البوليس على المكتبات وضبط نسخ الكتاب تمهيدا لمصادرته ، ووقف الكتاب أمام القضاء متهماً بالخروج على الدين وترويج الشيوعية وتحريض الفقراء على الرأسماليين !!

وهنا استأذنك فى أن أقدم إليك رجلا عظيما . وقف ثلاث ساعات يناضل دون المصادرة ويكشف عن المؤامرة التى تدبرها الرجعية للاجهاز على الحرية والفكر ، ويستخرج من اغوار الخفاء البواعث الحقيقية التى اثارت شنآن قوم وبغضاءهم . . ذاكم هو الأستاذ الكبير « عبدالمجيد نافع » .

انه رجل جدير بالشكر الجزيل — فلقد ارجأ كثيرا من واجباته والتزاماته ثلاثة ايام كاملة نذر ليلها ونهارها لقضية هذا الكتاب ، رافضا كل مكافأة مادية ، آبيا ان يجعل الدفاع عن « حرية الفكر » طريقا من طرائق الكسب مهما يكن مشروعا .

وأخيراً — جاءت كلمة القضاء كهدير المحيط . . قوية هادئة . .
وأفرج عن الكتاب للمرة الثانية . . ومضى مستأنفاً رحلته المباركة ، شاكراً للذين أساءوا به الظن ، والذين أحسنوا .

ولكن

ولكنهم يتحدثون عن محاكمة أخرى ستجريها « هيئة كبار العلماء » ! ! .

أتراها تريد تكريم الكتاب الذى بذل من ذات نفسه كل جهد مستطاع لخدمة الدين والشعب ، فحرفت الإشاعة هذا التكريم إلى محاكمة ؟ !

أم أن الجزاء الوفاق اليوم لكل غيور على دينه من الكهانة ، وعلى أمته من الاستغلال ، أن يلتمس له العيب ، وتفتعل له التهم . . ثم يقال له : ذق جزاء ولائك لله . . وولائك للوطن ؟ !

أياكان الأمر :

فلن يرتاع من خوض السواقى فتى قد خاض فى البحر الكبير

وإنه لمن حسن الحظ أن التهمة التى تسدد إلى الكتاب هى تلك التى قذف بها كل مصلح جليل الشأن صادق العزم . . كانوا جميعاً خارجين على الدين لأنهم أرادوا أن يرفعوه فوق مثال المساومة والعبث والتسخير . . وأحيط بهم فما وهنوا ولا جزعوا .

كان زئير الإعصار يزيدهم تشبثا وتفاؤلا ، ويشدفيهم زناد القوة والنضال والاحتمال . وإن الذين جاءوا من بعدهم ليحاولون صادقين أن يسيروا على هذا النمط الرفيع ، وأن يكونوا أمتداداً لهذه القوة

الزاخرة التى لا تخشى فى خدمة الله والشعب لوما ولا بأسا . ولعل القارىء فى شوق إلى معرفة التهم التى حيكت للكتاب ، وسخت بها لجنة الافتاء .

وهأنذا اطوى القصة على ختامها . . حيث تطالعك باهر متألقة ، إحدى وثائق الحرية والعدل والرقى فى هذه البلاد . ممثلة فى حيثيات الحكم الذى سيظل « فناراً » يطارد الظلمات من طريق الحرية والاحرار . .

وفى هذه الحيثيات سترى التهم الهزيلة المرعشة تتساقط كأنها مزق ذباب بدده نفاث مطهر مبيد .

* * *

وبعد ، فلا يزال زئير العاصفة يلغط ويدمدم . .

ولكن لا بأس . .

فهناك حكمة عذبة تقول :

خل العاصفة تزأر . . .

فان ذلك أخلق بأن يعجل بفنائها .

وسنخوض الاعصار . .

ونرسو آخر الأمر على الشاطىء السعيد .

إحدى
وثائق الحرية والرقي

النص الكامل لحيثيات الحكم بالافراج عن الكتاب

محكمة القاهرة الابتدائية
مكتب القاهرة

قرار

نحن حافظ سابق رئيس محكمة القاهرة الابتدائية .

بعد الاطلاع على الأمر الصادر من النيابة العامة بتاريخ ٨ من مايو سنة ١٩٥٠ بضبط كتاب « من هنا نبدأ » ، وعلى الكتاب المذكور ، وعلى كتاب حضرة صاحب الفضيلة رئيس لجنة الفتوى بالجامع الأزهر المؤرخ فى أول مايو ١٩٥٠ ، وعلى التحقيقات التى أجرتها النيابة مع الأستاذ خالد محمد خالد مؤلف هذا الكتاب .

وبعد سماع أقوال مؤلف هذا الكتاب ودفاع حضرة المحامى الحاضر معه .

وحيث ان النيابه العامة طلبت تأييد الأمر الصادر منها بضبط هذا الكتاب استناداً إلى المادة ١٨٩ عقوبات ، وقالت فى تبرير ذلك إن المؤلف ارتكب الجرائم الآتية :

أولا — إنه تعدى علناً على الدين الاسلامى ، الأمر المعاقب عليه بمقتضى المادتين ١٦١ و ١٧١ عقوبات .

ثانياً — إنه حبذ وروج علناً مذهبا يرمى الى تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية بالقوة والارهاب ووسائل أخرى غير مشروعة، الأمر المعاقب عليه بمقتضى المادة ١٧٤ عقوبات.

ثالثا — انه حرض علنا على بغض طائفة من الناس وهى طائفة الرأسماليين والازدراء بها تحريضاً من شأنه تكدير السلم العام، الأمر المعاقب عليه بمقتضى المادتين ١٧١ و ١٧٦ عقوبات.

وحيث إنه فيما يتعلق بجريمة التعدى على الدين الاسلامى، فقد اعتمدت النيابة فى اسنادها الى مؤلف الكتاب على رأى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الذى يتحصل فى ان هذا الكتاب قد وضع بروح تناصب الدين العداء السافر، وتعمل جهدها على عدم كيانه وتسلية اخص وظائفه وهى الهيمنة على شئون الحياة وتدبيرها وإقامة امور الناس فيها على اسس العدل والاستقامة، وسياستهم بكل مافيه اصلاح حالهم فى الدنيا وتوفير اسباب سعادتهم فى الآخرة تارة بالنصح والارشاد والوعظ والهداية، واخرى بالقضاء العدل والحكم الرشيد، وتأمين الناس على انفسهم واموالهم واعراضهم وسائر حقوقهم وانصاف المظلومين، والضرب على ايدى المعتدين الظالمين. وان كتاب الله وسنة رسوله كلاهما ملىء بالتصريح الفقهى الواضح البين فى الحكم والقضاء وما إليهما من مظاهر الهيمنة الفعلية على جميع نواحى الحياة الاجتماعية مالية وجنائية، فردية واجتماعية ودولية. وقد دعمت لجنة الفتوى رأيها هذا بما يلى:

١ -- إن المؤلف صور الحكومة الدينية بخصائص وغرائز من شأنها أن تبعث فى النفوس محاربة هذا النوع من الحكم . ورماها بالغموض المطلق . وان دستورها الذى تخضع له وتقوم به وتفر إليه وتهرب ، هو الدين . . هو القرآن ، وأن القرآن والسنة فيهما من الغموض والاحتمالات ما يجعل فى الآية والحديث متمسكا للمتخاصمين المتعارضين فى الرأى ، وأن المؤلف بنى بهذا أن ذلك الغموض يجعلهما غير صالحين لأن يكونا أساساً صالحاً للحكومة .

٢ -- إن المؤلف يقرر أن مهمة الدين لا تعدو الهداية والارشاد وأن ماقام به النبى صلى الله عليه وسلم من قيادة الجيوش والمفاوضات وعقد المعاهدات وغيرها من مظاهر السلطة التى يمارسها الحكام لم يكن إلا لحكم ضرورات اجتماعية . وأن المؤلف يعنى بذلك أن هذه الشئون التى قام بها النبى لم يقم بها لأنها من مهمتها الدينية وعنصر من عناصر الرسالة .

٣ -- إن المؤلف يرى ان الحدود جميعها موقوفة عن العمل وليس هناك مجال لاقامتها وان عمر وقف حد السرقة ايام المجاعات وصار ذلك سنة رشيدة من بعده ، وان حد الزنا يحمل موانع تنفيذه وان حد الخمر كحد الزنا فى صعوبة تنفيذه او استحالته ، وان الدين لا يصح ان يعتمد فيما يعتمد عليه فى إصلاح المجتمع -- على العقوبة ، معللا ذلك بأن نفوذ الدين واثره فى مكافحة الرزيلة ليكونان ارسخ قدما واقوم سبيلا حين يسلك طريقه الى النفوس بالتسامح والوفق والحجاج الهادى والمنطق الرصين ، اما حين تتحول هذه الوسائل الى سوط الحكومة الدينية وسيفها فان الفضيلة آنئذ تصاب بجزع اليم .

٤ — إن المؤلف عرض لركن من اركان الدين وهو الزكاة وخلع عليه ثوبا يقزز منه النفوس ويجعله مظهراً من مظاهر المذلة والهوان التى لا يرضى الله بها لعباده ، ورأى أن الكهانة ، اى الدعوة الدينية هى التى صورت للناس أن الإسلام يرى فى الصدقات اشتراكية تلبى حاجة المجتمع ، وانها بهذا التصوير تسير على طريقة الخداع التى تعودت بها إبداء بعض مظاهر العطف والرحمة بالناس فى حين أنها تعمل بها على سلب الناس اعز ما يملكون من كرامة وحق .

وحيث إنه يبين من الاطلاع على الكتاب ان المؤلف نادى بقومية الحكم ورد على الرأى القائل بضرورة قيام حكومة دينية بأن فى ذلك مجازفة بالدين ذاته تعرض نقاوته للكدر وسلامته للخطر ، بينما يجب الحرص على صيانته وابقائه بعيداً عن مهاب العواصف والذاريات ، وان الرسول عليه السلام كان يحس احساسا واضحا بمهمته ويعرفها حق المعرفة وهى انه هاد وبشير وليس رئيس حكومة ولا جباراً فى الارض . وقد عرضوا عليه يوما ان يجعلوا له مثل ما كان للاباطرة والحكام ففزع وقال « : لست كأحدهم . انما أنا رحمة مهداة » . ودخل عليه عمر ذات يوم فوجده مضطجعا على حصير قد اثر فى جنبه فقال له : « افلا تتخذ لك فراشا وطيئا لينا يارسول الله » . فأجابه بقوله : « مهلا ياعمر . . أتظنها كسروية ؟ إنها نبوة لا ملك » ، ثم قال المؤلف إن الرسول لم يكن حريصا على ان يمثل شخصية الحاكم لأن مقام الرسالة ارفع مقام لولا الضرورات الاجتماعية التى الجأته الى ذلك لتحقيق المنفعة والسعادة لمجتمعه الجديد واذا كان الرسول فاوض وعقد المعاهدات وقاد الجيش ومارس

كثيراً من مظاهر السلطة التي يمارسها الحكام وأقام بعض خلفائه من بعده حكومات واسعة النفوذ عظيمة السلطان كان العدل لحمتها وسداها فإن هذا لا يعني ان هناك طرازاً خاصا من الحكومات يعتبره الدين بعض اركانه وفرائضه ، بل ان كل حكومة تحقق الغرض من قيامها ، وهو تحقيق المنفعة الاجتماعية للامة ، يباركها الله . ولئن كانت الحكومات الدينية قد توافرت لها في العصر الاسلامي الأول كل عناصر النجاح والتقدم ، فان ذلك يرجع الى الكفاية الشخصية والكمال الذاتي اللذين كان يتمتع بهما رؤساء تلك الحكومات كابي بكر وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز . غير ان الأمر لم يلبث ان انتهى الى تنافس عموي على الحكم وفتنة بين الناس وقادتهم وبين القادة بعضهم بعضا والى نوع من الحكم ليس بينه وبين الدين وشيجة ولا صلة وان زعم أصحابه انه حكم ديني بل حكم الله ورسوله .

ثم قال المؤلف ان الحكومة الدينية لا تستلهم مبادئها وسلوكها من كتاب الله ولا من سنة رسوله بل من نفسية الحاكمين واطماعهم ومنافعهم الذاتية ، وهي تعتمد في قيامها على سلطة غامضة لا يعرف مأتاها ولا يعلم مداها . ولا تفسر وجودها الا بأنها ظل الله في الأرض . وحين تسأل عن دستورها الذي تخضع له وتقوم به تفر وتهرب الى الغموض الذي لا تستطيع ان تعيش إلا فيه ، وتقول هو الدين . هو القرآن . ولما كان القرآن « حمال اوجه » كما قال علي وكذلك السنة فقد استغل بعض الحكام بعض آيات القرآن استغلالا مغرضا ، وكان اصحاب علي — وهم يحرضون على دم معاوية وقتاله — يقدمون بين ايديهم طليعة هائلة من الآيات والأحاديث هي نفس

الآيات والأحاديث التى كان يحرض بها أصحاب معاوية على ذم على وقتاله ، وبعض هذه الآيات قتل عثمان ، وبها ذاتها قتل الخوارج علياً . كما قتل يزيد الطاغية الحسين بن على مبرراً فعلته هذه بآية وحديث استمسك بهما .

ثم قال المؤلف إن الحكومة الدينية تحكم بهواها ، ثم تزعم أنها تحكم بما أنزل الله ، وإن غريزة الغموض وغيرها من الغرائز التى تستمد الحكومة الدينية منها سلطتها بعيدة كل البعد عن حقائق الدين وفضائله ، وان الحكومات التى حكمت الناس باسم الدين سواء فى المسيحية أو الاسلام كانت أسوأ مثل للحكم ماعدا قلة نادرة فاضلة لاتكاد العين تقع عليها فى زحام الكثرة الباغية . وان الحكومات الدينية التى ينقدها هى تلك التى تعتمد على سلطة مبهمة غامضة ، ولا تقوم على أسس دستورية واضحة ، والتى تمنح نفسها قداسة زائفة وعصمة مدعاة .

ورد المؤلف على الداعين بوجوب إقامة حكومة دينية بانهم إذ يبررون ذلك بفكرة القضاء على الرذائل وإقامة الحدود فإن الدين وحدة من غير أن يكون دولة هو الذى يهدى إلى الفضيلة عن طريق الترويض والاقناع وأن نفوذ الدين وأثره فى مكافحة الرذيلة ليكونان أرسخ قدما وأقوم سبيلا حين يسلك طريقه الى النفوس بالتسامح والرفق والحجاج الهادىء والمنطق الرصين ، أما حين تتحول هذه الوسائل إلى سوط الحكومة الدينية وسيفها فإن الفضيلة آنئذ تصاب بجزع أليم واستشهد على ذلك بقولة تعالى : « فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها » وقوله تعالى : « وما أنت عليهم بجبار . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ثم تحدث المؤلف عن الحدود فقال : إنها موقوفة

عن العمل وليس هناك مجال لاقامتها. فقد وقف عمر حد السرقة فى أيام المجاعات . وصارت سنة رشيدة من بعده .والشرق الإسلامى فى مجاعة مادام الناس لم يستوفوا ضرورات الحياة فحد السرقة موقوف إذن حتى ينزل الرخاء مكان الجدوب ،ويوم يوجد الرخاء فان تحصل سرقة وإذا وجد السارق رغم الرخاء قطعت يده ، على أن قطع بضع أيد سارقة لن يحتاج الى قيام حكومة دينية خاصة ، فمادة واحدة فى القانون تقوم مقامها . أما حد الزنا فان أمر إقامته يحمل موانع تنفيذه فقد شرط الله لاقامته أن تثبت الخطيئة باقرار مقترفها أو بالبينة ،واشترط أن تكون البينة أربعة شهود وأن يروا العملية الجنسية نفسها رؤية سافرة ، وهذا أمر يكاد يكون مستحيلا مما يجعل الثبوت بالبينة متعذراً كما أنه لن يثبت بالاقرار فان احداً لن يذهب من تلقاء نفسه ليقدم ذاته للعار والفضيحة والميتة الشنيعة رجما بالحجارة أو جلداً بالسياط ، ولم يحدث فى خلال عهد الرسول وخلفائه سوى وقائع معدودة أقيم فيها حد الزنا , وقد كان كل من أقيم عليهم الحد معترفين دفعتهم الى الاعتراف نزعه مثالية حببت اليهم تطهير النفس وتحملها مسئولية وزرها فى الحياة الدنيا وهى نزعة نادرة ، أما حد الخمر فهو كحد الزنا تماما فى صعوبة تنفيذه أو استحالته فهو لايقام إلا بالاقرار أو البينة وبينته شاهدان ولا تنحصر شهادتهما فى رؤية الشارب وهو يشرب الخمر ، بل لابد فى رأى كثير من الفقهاء أن يشهدا بأنه شرب وهو عالم بأن الشراب خمر مسكر ، وأنه كان مختاراً غير مكره على شرابه ، وهذا العلم مكنون فى ضمير الشارب ولن يستطيع الشاهدان بلوغه أو الاحاطة به ولا سيما إذا زعم الشارب

أنه شرب غير عالم به ، وخلص من ذلك إلى أنه لاداعى إلى إقامة حكومة دينية من أجل إقامة هذه الحدود خاصة . وقال المؤلف إن سدنة الكهانة يدعون باسم الدين إلى اشتراكية الصدقات ، وهم حين يدعون إلى ذلك إنما يجعلون الصدقة نظاماً اقتصادياً مشروعا ، ومعنى ذلك أنهم يفتحون باب المسألة (أى السؤال) على مصراعيه مع أن الدين الذى يحقر المسألة ويمجد العمل ويأمر بأن يأخذ العامل حقه فيما عمل دون أن ينتقص من حقه شيء ، لايمكن أن يعالج حقوق الشعب فى الحياة بالصدقات ، كما تحاول الكهانة اليوم أن تفعل . والاسلام حين دعا إلى العدل والتكافل الاجتماعى لم تكن الصدقة فى حسابه قط كوسيلة تنهض بها حياة الشعوب ، بل هى شيء يشبه أكل الميتة فتباح لبعض الافراد الذين لايجدون ما يقيم الأود ويمسك الرمق ، ولكنها لاتعالج هبوط المستوى المعيشى للأمم والجماعات . وهذه بديهة يعرفها الذين عرفوا محمداً ودرسوا نفسه العالية ودينه القويم . فلقد وضع رسول الله الصدقة فى مكانها اللائق بها حين يقول : « إنها أوساخ الناس . إنها غساله ذنوب الناس » وقد خشى الرسول أن يفهم الناس أن الصدقة مصدر مشروع من مصادر العيش والارتزاق فكان يدعهم عنها ويذم المسألة إذ يقول : « المسألة كلوح فى وجه صاحبها يوم القيامة . إياك والمسألة فإنما هى رضف من النار ملهبة » . وهو ذكر المؤلف فى مواضع متفرقة من كتابه أن الدين يدعوا إلى توحيد الاله والحرية والمساواة بين الناس وإلى العدل والاحسان والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . وأنه يجب تقديم الدين للناس وضيئاً متألقا كيوم نزل من لدن عزيز حكيم عليم . وما توحيد الاله

وجعل الأمر كله والسلطان كله والكبرياء كلها له دون سواه إلى هتاف علوى مقدس يشيع فى الانسانية الأمن والايناس حتى تلتقى الانسانية كلها على الحرية والاخاء والمساواة . وإن الدين ليس فى حاجة إلى أن يكون دولة إذ هو عبارة عن حقائق خالدة لاتتغير وإن وظيفة الدين هى الهداية والارشاد إلى أنبل مافى الحياة من معنويات وفضائل وتبليغ كلمات الله التى تهدى إلى الحق والفضيلة والصلاح . وإن أجل خدمة تؤديها للدين هى أن نجعله قريبا من قلوب الناس عميقا فى نفوسهم وتطعيم الدولة والمجتمع بروحه الحى ومعنوياته الفاضلة لا أن نأتى بحكومة تستغله فى تقديس ذاتها وتبرير أطماعها واستكراه الناس لجبروتها وإن الدين يجب أن يظل كما أراده ربه نبوة لاملكا ، وهداية لاحكومة ، وموعظة لا سوطاً . وإن الدين فى المجتمع الانسانى بأسره يمثل ضرورة اجتماعية لاغنى للناس عنها وهو مصدر قوة وإخاء ، ومساواة لاظهير أنانية وعدوان ، ويجب أن يحتفظ الدين بخصائصه الذاتية وأهدافه التى من أجلها شرعه الله وأنزله وهى إسعاد الناس سعادة واقعية فى نطاق المساواة النبيلة التى جاء يعلنها ويحرض عليها . وإن الدين فى صورته الصحيحة زميل مؤنس مسعد فى رحلة الحياة كلها » .

وحيث إن الدين شىء ، ودعاة الدين والحكومات الدينية شىء ، آخر . ولا يعد الطعن فى هؤلاء الدعاة أو فى هذه الحكومات طعناً فى الدين إلا إذا انصرف الطعن إليه وانصب عليه فى ذاته ، فالدين حقائق خالدة ثابته ، أما هؤلاء الدعاة ومتولوا شئون هذه الحكومات فهم بشر من الناس يصيبون ويخطئون ، وقد يجد المؤلف عهد الرسول

صلى الله عليه وسلم ، وأشاد بذكر الحكومات التى خلفته فى العصر الاسلامى الأول ، وقال انه توافر لها كل عناصر النجاح والتقدم وإنما وجه المؤلف نقده الى ماعداها من الحكومات الدينيه التى وصفها بأنها كانت تحكم بهواها وتزعم أنها تحكم بما أنزل الله وتفسر وجودها بأنها ظل الله فى الأرض واذ تسأل عن دستورها الذى تخضع له وتقوم به تفر وتهرب الى الغموض الذى لاتستطيع ان تعيش الا فيه وتقول « هو الدين ، هو القرآن » مع أنها ما كانت تستلهم مبادئها وسلوكها من كتاب الله ولا من سنة رسوله ، بل من نفسية الحاكمين واطماعهم ومنافعهم الذاتية. ونعى المؤلف على رجال تلك الحكومات التى انقرضت واصبحت أثراً بعد عين ، انهم كانوا يستغلون القرآن استغلالا سيئاً ويسفكون دم المسلمين متسلحين ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، مستغلين ماتحتمله هذه وتلك من وجوه ومعان عدة . واوضح من هذا ان المؤلف إذ قال إن القرآن حمال أوجه وكذا الاحاديث لم يقصد التعريض بكتاب الله وسنة رسوله ، بل التعريض بأولئك الذين استغلوه استغلالا مغرضاً ، وقد نسب المؤلف إلى علي بن ابى طالب انه قال . « إن القرآن حمال اوجه » . ولم تنكر لجنة الفتوى صدور هذا القول من على . هذا إلى ان ابى نعيم اخرج عن ابن عباس وهو من اجلاء الصحابة انه قال . « القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على احسن وجوهه . وقال الالوسى فى مقدمة تفسيره « إن بعض من يوثق بهم قال . « إن لكل آية ستون الف فهم» وقال ابن جزى الكلبى فى مقدمة تفسيره « إن الطوائف المختلفة من المسلمين تعلقوا بالقرآن وكل طائفه منهم تحتج لمذهبها به وترد على من خالفها وتزعم انه خالف

القرآن . ولا شك أن منهم المحق والمبطل وأن بعضهم يرجح المجاز على الحقيقة فمذهب أبي حنيفة يقدم الحقيقة لأنها الأصل ، ومذهب أبي يوسف يقدم المجاز الراجح ». وقال تعالى وهو أصدق القائلين: « هو الذي أنزل أم الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا . وما يذكروا إلا اولو الألباب »

وحيث إن لجنة الفتوى أخذت على المؤلف قوله إن مهمة الدين لا تعدوا الهداية والإرشاد وأن الرسول لم يكن حريصا على أن يمثل شخصية الحاكم لولا الضروريات الاجتماعية التي ألجأته إلى ذلك لتحقيق المنفعة والسعادة لشعبه الجديد مع أن الشئون التي باشرها النبي من قيادة الجيوش والمفاوضات وعقد المعاهدات وغيرها إنما هي من مهمته الدينية وعنصر من عناصر الرسالة . على أن المؤلف فيما قاله لم ينكر ركنا من أركان الدين ولم ينتقص من قدر رسول الله فقد قال صراحة إن مقام الرسالة أرفع مقام . وان الرسول عليه السلام كان يحس احساساً واضحا بمهمته ويعرفها حق المعرفة وهي أنه هاد وبشير وليس رئيس حكومة ولا جباراً في الأرض قد أيد ذلك بأحاديث نبوية صحيحة . وهو مؤيد كذلك بقوله سبحانه وتعالى « وما أرسلناك الا مبشرا ونذيراً » وقوله تعالى : « انما أنت منذر » « انا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيراً » « ما عليك الا البلاغ » وقوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » وقوله تعالى « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من

يخاف وعيد). وقد قال المغفورله الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى فى تعريفه بكتاب (حياة محمد) لمؤلفه الدكتور هيكل باشا. (ان الرسول أمر بأن يبلغ عن ربه ولم تبين له الطرق التى يتبعها فى التبليغ وفى حماية الدعوة وترك له أن يتصرف بعقله وعمله وفطنته كما يتصرف غيره من العلماء والعقلاء . وجاء الوحى مفصلا قاطعا فى كل مايخص ذات الاله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته ولم يكن كذلك فيما يختص بالنظم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول . وقد صار النبى مبلغا عن ربه داعيا إليه حاميا لتلك الدعوة ولحرية الداعين مدافعا عنهم وأصبح حاكم الأمه الاسلامية وقائد حربها ومفتيها وقاضيها ومنظم جميع الصلات والروابط فيها وبينها وبين غيرها من الأمم وقد أقام العدل فى ذلك كله وألف بين أمم وطوائف ما كان العقل يسيغ إمكان التأليف بينها وظهرت الحكمة والرصانة وبعد النظر وكمال الفطنة وسرعة الخاطر وقوة الحزم فى كل ماصدر عنه من قول أو فعل) .

وحيث ان لجنة الفتوى أسندت الى مؤلف الكتاب أنه عرض بركن من أركان الدين وهو الزكاة وخلع عليه ثوبا يقزز منه النفوس ويجعله مظهرا من مظاهر المذلة والهوان .

وحيث انه لاشك فى أن الزكاة ركن من أركان الدين الخمسة وقد امر الله سبحانه وتعالى بها بقوله . « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وبين سبحانه وتعالى مصارفها بقوله « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضه من الله والله عليم حكيم »

وقد وضعها الله جانب الإيمان به بقوله تعالى : (خذوه فغلوه ثم الجحيم فصلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه انه كان لايؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين) وقد قرنها الله بالصلاة فى كثير من المواضع ، ومن ذلك قوله تعالى : ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وفى الرقاب وأقام الصلاة واتى الزكاة) وقوله تعالى. (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) . وقوله تعالى . (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون » . وفى هذا مايدل على أن الزكاة عبادة وفرض واجب . فالمؤمنون إخوة ولا يتم إيمان المرء حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه .

وفريضة الزكاة تتصل بهذا الاخاء ولا تتصل بالأخلاق وتهذيبها ولا بالمعاملات وتنظيمها . وما اتصل بالأخاء اتصل بالايمان بالله . ومن أجل ذلك قام ابو بكر بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم يطالب المسلمين بادائها واعتبر نكولهم عنها ضعفا فى ايمانهم وتفضيلا للمال عليه وخروجاً على النظام الروحى الذى نزل به القرآن وارتداداً عن الاسلام فكانت حروب الردة التى ثبت بها أبو بكر رسالة الاسلام كاملة .

وحيث ان المؤلف لم يجحد الزكاة ولم ينف أنها ركن من أركان الدين . وهو لم يحقر الصدقة ذاتها بل حقر المسألة . فقد قال إن الصدقة فى عصر الرسول وفى لغة القرآن تعنى ضريبة مفروضة هى

ضريبة الزكاة التى نزلت فيها الآية « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وأنها مباحة للأفراد الذين لايجدون مايقيم أودهم ويسد رمقهم . وقد أورد المؤلف ذلك فى مقام الرد على أولئك الذين يقولون بأن الصدقة نظام اقتصادى واف ووسيلة ناجحة لمحاربة الفقر وإسعاد الشعب . فقال إنه لايمكن معالجة حقوق الشعب فى الحياة بالصدقات وإن الدين يمجد العمل ويأمر بأن يأخذ العامل حقه فيما عمل دون أن ينتقص من حقه شيء . وإن المستمع لأصحاب ذلك الرأى ليكاد يخدع فيصدق ان الصدقة هى كل مايستطيع الاسلام أن يقدمه للشعوب من عدالة ومساواة . مع أن الاسلام حين دعا إلى العدل والتكافل الاجتماعى لم تكن الصدقة فى حسابه قط كوسيلة تنهض بها حياة الشعوب . وأن هؤلاء القوم إذ يجعلون الصدقة نظاما اقتصاديا مشروعا إنما يفتحون باب المسألة على مصراعيه مع أن الرسول عليه السلام ذم المسألة إذ قال : « المسألة كلوح فى وجه صاحبها يوم القيامة . إياك والمسألة . فإنما هى رضف من النار ملهبة » .

وحيث إن ماورد بالكتاب عن ذم المسألة والتعفف عنها صحيح . فقد جاء بالجزء الثالث من كتاب فتح البارى ومتن الجامع الصحيح الامام البخارى أن رسول الله قال « ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء أخير وأوسع من الصبر » . وأنه قال أيضا . « لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه او منعوه » . وانه قال « مازال

الرجل يسأل حتى يأتى يوم القيامة ليس فى وجهه مزعة لحم ، وانه قال . « اليد العليا خير من اليد السفلى » . وقد فسروا هذا الحديث الأخير بأن أعلى الأيدى هى المنفقة ثم المتعفة عن الأخذ ثم الآخذة بغير سؤال ، وان أسفل الأيدى السائلة والمانعة .

ويؤخذ مما روى عن النبى من الأحاديث المتقدم ذكرها وغيرها أنه كان يحض الغنى على الصدقة ، كما كان يحض الفقير على التعفف عن المسألة والتنزه عنها ، ولو امتهن المرء نفسه فى طلب الرزق وارتكب المشقة فى ذلك لما يدخل على السائل من ذل السؤال ، ولما يدخل على المسئول من الضيق فى ماله إن أعطى كل سائل. وأما من يسأل مضطرا فلا جناح عليه . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم كذلك أنه قال . « الصدقة أوساخ الناس وأنها لاتحل لآل محمد وفى رواية أخرى « إنا آل محمد لاتحل لنا الصدقة » . ولعل الحكمة فى ذلك أن الصدقة إنما يصرفها المتصدق على محتاج يريد بها وجه الله .

وحيث إن لجنة الفتوى نسبت إلى المؤلف أنه قال ان الدين لايصح أن يعتمد — فيما يعتمد عليه فى اصلاح المجتمع — على العقوبه . وقد تبين من مطالعة الكتاب أن المؤلف كان يرد على القائلين بوجوب قيام حكومة دينية تتولى القضاء على الرذائل . فقال . إنه لاسبيل للقضاء على الرذائل الا بتطهير النفس وتعويدها على احترام ذاتها ، وأن الدين وحده — من غير أن يكون دولة — هو القادر على أن يوقظ فى الضمائر واعظ الله ، أن الدولة لاتستطيع بقوانينها أن تهب الناس نقاوة النفس . وأن نفوذ الدين وأثره فى

مكافحة الرذيلة ليكون أرسخ قدما وأقوم سبيلا حين يسلك طريقه إلى النفوس بالتسامح والرفق والحجاج الهادىء والمنطق الرصين

وحيث إن المؤلف لم ينكر ما امر الله به من حدود ،وإنما قال إنه لاضرورة لقيام حكومة دينية من اجل اقامة هـــذه الحدود خاصة ولا سيما أن هذه الحدود نادرة التطبيق عملا ، إذ ان حد السرقة يوقف ابان المجاعات ولان حدى الزنا والخمر يصعب اثباتهما شرعا - وإن ماذكره المؤلف عن هذه الحدود صحيح فى جملتـــه ، فقد جاء بالجزء العاشر من كتاب (المغنى) ان عمر بن الخطاب قال: (لا قطع فى عام سنة) وان أحمد بن حنبل قال : (لاقطع فى مجاعة) وان الاقرار بالزنا نادر الحصول وبينته اربعة شهود عدول مسلمين ويشترط فيهم ان يشهدوا بأنهم رأوا ذكر الرجل فى فرج المرأة كالمرود فى المكحله والرشاء فى البئر وأن بينـــة الخمر شاهدان يشهدان بأنهما رأيا الشارب يشرب مسكراً ، ولا يشترط فيهما ـــ على خلاف ماذكره المؤلف ـــ ان يشهدا بأن الشارب شرب مختارًا عالما بأنه مسكر ، لأن الظاهر أن الاختيار والعلم وما عداهما نادر بعيد ، هذا إلى ان الشريعة الاسلامية تميل إلى التشدد فى الاثبات والتحرج فى إقامة الحدود بدليل قوله عليه الصلاة والسلام (تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى من حد فقد وجب) .وقوله : (ادرأوا الحدود بالشبهات مااستطعتم ، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الامام إن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » .

وحيث أنه تبين مما تقدم أن المؤلف لم يطعن فى الدين ذاته ولم يجحد كتاب الله وسنة رسوله ، بل مجد الله وكرم الرسول فى أكثر

من موضع من كتابه وقال . انه يجب تقديم الدين للناس وضيئا متألقا كيوم نزو من لدن عزيز حكيم عليم ، وهو لم يخرج فيما كتب عن حد البحث العلمى والفلسفى ، واذا صح انه أخطأ فى شىء مما كتب فان الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شىء ، وتعمد الخطأ المصحوب بنية التعدى شىء آخر ، ويشترط للعقاب بمقتضى المادة ١٦١ عقوبات أن يكون الجانى قد تعـدى على الدين أى أهانه وامتهنه او ارتكتب ما من شانه المساس بكرامته او انتهاك حرمته والحط من قدره والازدراء به ، وأن يكون قد قصد ذلك وتعمده ولما كان شىء من ذلك لم يتوافر فى حق مؤلف الكتاب فلا جريمه ولا عقاب .

وحيث انه فيما يتعلق بالجريمتين الأخريين اللتين اسندتهمـا النيابة العامة للمؤلف ، فقد تبين من مطالعة الكتاب أن المؤلف قال : ان المجتمع المصرى كسائر المجتمعات العربية تعمل فيها جميعا كوامن الكبت والحرمان ، وبدا التذمر على كل لسان ووجه ، وهذا التذمر خطر على حياة الأمة ولا يمكن أن يستهين بعاقبته حاكم له بصر بالأمور ، وأن المسئولية الكاملة لتجثم على كاهل الرجعية الاقتصادية التى تمتص الحياة من الشعب وتعرقل كل اتجـاه نحو اشتراكية يانعة وأنه يجب مكافحة سياسة التجويع التى تمثلها تلك الرجعية الاقتصادية فى بلاد العرب قاطبة ومكافحة الاستغلال الفردى لانه مهب كل عاصفة وكل إعصار وويل . وقال الملكيات الزراعية موزعه توزيعا سيئا وان اجور الأطيان الزراعية مرتفعة ارتفاعا فاحشا مرهقاً للمستأجرين ، وإلى ذلك ترجع أكثر أسباب الغلاء

الذى يئن الشعب منه، وإنه يوجد تفاوت كبير بين طبقتى المجتمع . ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت الكبير أنه يقسم الأمة على ذاتها ويجعل منها معسكرين متباغضين يحقر أعلاهما الأدنى ويمقت أدناهما الأعلى ، ويتربص كل منهما بالآخر مضمراً له كل كراهية وسوء . ومهما حاولنا إرضاء هذا الفريق برفع مرتبه وتحسين دخله فإنه لن يرضى لأن مشكلته لا تتمثل فقط فى حرمانه بل وفى هذا الترف المسعور الذى يعيش فيه الآخرون ، فيأكلون أكثر مما ينبغى أن يأكلوا ، ويلبسون أكثر مما ينبغى أن يلبسوا ، ويرغدون أكثر مما ينبغى أن يرغدوا . ويجلسون فوق أهرام من الذهب بينما بقية المجتمع تقتات من آلامها وحرمانها . وإن كثيرين من هؤلاء السادة سارعوا عندما قررت الحكومة مجانية التعليم الابتدائى أربع سنوات إلى سحب أولادهم من مدارس الحكومة حتى لايخالطوا فيها الفقراء والرعاع . وإن وراء هذا التصرف المخجل إيمانا عريقا بالأستقراطية وحرصاً شديداً على الامتياز والاستعلاء وجاهلية نابية لاتقرها أخلاق الدين ولا أخلاق الدنيا . وضرب مثلا بما حصل فى عهد الرسول إذ جاءه وفد من أعيان مكة وقالوا له : « يامحمد لقد رضينا أن نستمع إليك ولكننا لا نجالس هذه الأخلاط من عبيدنا وصعاليك مكة الفقراء فاجعل لنا يوما ولهم يوما » . فاستمهلهم الرسول حتى يأتى أمر ربه . وسرعان ماجاءه الوحى الرشيد بآيات باهرة إذ قال تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ويريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين » .

فاحسن الرسول اليهم وخاطبهم بقوله : « أهلا بمن أوصانى بهم ربى وقد علق المؤلف على ذلك بقوله : « ما أحوج هـــؤلاء الذين يستكفون عن زمالة الشعب إلى هذا الدرس البليغ الصارم ليطامنوا من صلفهم وينتهوا من كبريائهم » . ثم قال المؤلف إنه إذ ينقد الرأسمالية لا ينسى أنها عامل من عوامل الرقى وأحد الأطوار التى يمر بها التقدم وهو ماض إلى غايته ، وهو لا يسألها إلا أن تفسح الطريق لاشتراكية عادلة يطلبها الشعب ويريدها ، وبذلك تظفر لنفسها بحسن الختام . وقال إنه يجب علينا أن نعمل لسلامنا الخاص أولا وقبل كل شىء ونوجه كل جهودنا وإمكانياتنا لخدمة أنفسنا ومصالحنا الخاصة وإذا بقى من جهدنا فائض ومزيد لانحتاج إليهما فلا مانع من اسباغهما على الآخرين .

وإنه يجب على الحكومة أن تعمل على ألا يوجد بيننا جوع ولا جياع ، ولا يجوز لها أن تسلك سبيل الشح على رعاياها الذين يدفعون لها الضرائب ، وإنه ليس للحكومات فى هذا العصر من رسالة سوى تحقيق المنفعة الاجتماعية للشعوب وإن الشعب بطبيعته يريد دائما أن يرقى ولا ترى الحكومة الحصيفة أى تثريب عليه فى ذلك مادام العقل والحكمة والنظام هم حداته إلى حقوقه وما دامت هى نفسها تعينه على حفظ النظام . وقال إن الحرص على سلامة بلادنا وتجنيبها ويلات الفتن والاضطرابات يقتضينا أن نعمل على مكافحة الجريمة والقضاء على العوامل التى تيسر نشوءها . . وإنه يمقت الجريمة مهما تكن بواعثها وأسبابها ويعتقد أن عبور الحياة فى زورق جميل مهما طالت رحلته خير من عبورها فى مدرعة ، ولو أبلغتنا

الهدف فى لحظات . ثم قال إنه لا يدعو إلى إزالة كل فارق وحاجز بين الناس فهذا أمر مستحيل وانما يدعو تقريب المسافة البعيدة الفاصلة بين طبقتى الأمة وتوزيع الفرص على المواطنين توزيعا يقضى على التفاوت القصى الذى يشطر وحدتها النفسية والفكرية . وإنه لا سبيل إلى إصلاح الإمور إلا إذا تسلحنا بروح الإنصاف وآمنا بضرورة حدوث تحول اجتماعى شامل وبذلنا جميعا حكومة وشعبا محاولة صادقة لاتمام هذا التحول دون أن نريق قطرة دم واحدة ومن غير أن نكفر بعضنا ببعضا ويلعن بعضنا بعضا . ولاشىء يحسم الفوضى التى نعانيها مثل أن نخطو خطوة كتلك التى خطتها انجلترا مثلا فتتحول من مجتمع رأسمالى متطرف الى مجتمع اشتراكى شامل رشيد وديع معتدل تنتظم الاشتراكية كل مرافقة أو جلها وتتحرر فيه قوى الانتاج المحبوسة فى أيدى الرأسماليين المتطرفين ، وإن العدالة الاجتماعية فطرة أحست بها الانسانية منذ أحست بوجودها ومنذ سمعت وجيب الوعى والحياة يخفق بين جنبيها . وهى ليست روسية الجنسية ماركسية الدم وليس ضربة لازب أن يكون المؤمنون بها الداعون اليها بلاشقة يعذبون ويضطهدون . وإن انجلترا ليست شيوعية وهى التى صعدت بالضريبة التصاعدية الى ٩٤ فى المائة وراحت فى سرعة البرق تؤمم الملكيات الانتاجية الكبرى . وان النظام الذى يحقق العدالة الاجتماعية فى معهد الحاضر هو الاشتراكية ولاشىء سواها . وان حق الملكية الشخصية أمر مفروغ من ثبوته شرعا وعقلا وعرفا وتعترف به البلاد قاطبة لرعاياها وموطنيها غير أن هذا لا يمنع الحكومة من أن تختار نوعا معيناً من الملكية وهو

الملكيات الانتاجيه وتحرره من أيدى الأفراد وتشرف عليه لصالح الامة . اذالتأميم هو الوضع الطبيعى الذى أخذ المجتمع الانسانى يسارع اليه فهويؤدى الى تحرير قوى الانتاج المحبوسة فى أيدى الرأسماليين ويقضى على الفروق الاجتماعيه والتفاوت الكثير فى الدخل المالى ، وقال ان الحكومة المصرية أحسنت صنعاً بفرض الضريبة التصاعدية وضريبة التركات وبزيادة إعانة غلاء المعيشة . وأهاب بها أن تعمل على زيادة مرتبات صغار الموظفين ، والحد من التفاوت الكبير بين ما يكسبه رب العمل ومايكسبه العامل ، واصلاح حال العامل الزراعى : وتساءل لماذا لاتصنع الحكومة كما صنعت تركيا إذ اشترت الاقطاعيات الكبرى وباعتها للفلاحين وقسمتها عليهم قسمة عادلة فاضلة مرضية ، ودعا الحكومة الى ان تستصدر قانونا بتحديد الملكيات الزراعية على غرار مشروع كان قدمه احد الشيوخ المحترمين للبرلمان واذا كان الحد الأقصى للملكية الذى اقترحه الشيخ المحترم وهو خمسون فداناً لايرضى أصحاب الاقطاعيات الكبرى فلا مانع من رفع هذا الحد إلى مائة فدان . وإذا لم تر الحكومة الاستجابة إلى هذه الرغبة الآن فلاأقل من أن تسارع إلى استصدار قانون بتخفيض أجرة الأطيان الزراعية وتحديدها

وحيث إنه يبين مما تقدم أن المؤلف استعرض الحالة الاجتماعية فى البلد ونقد منها مارآه خليقاً بالنقد وحسن مارآه حسنا . فقد نقد الرجعية الاقتصادية والرأسمالية المتطرفة . وأفصح عما تعانيه غالبية الشعب من فقر وحرمان ومابدا عليها من تذمر بينما قلة من الشعب تنعم بالثراء الوفير ، وعما بدا من كثيرين من هؤلاء السادة من

تعال على الفقراء . وهذا الذى قاله المؤلف لا يعدو حدود النقد المباح وليس فيه مايفيد تحريض طائفة على بغض طائفة أخرى أو أنه قصد إلى شىء من ذلك . بل يبين من ثناياه أنه قصد إصلاح حال البلد وإسعاد الشعب وهنائه . وقد أورد المؤلف فى كتابه مايراه من ضروب الإصلاح ودعا إلى اشتراكية رشيدة وديعة معتدلة وقال إن هذه الاشتراكيه هى التى تحقق العدالة الاجتماعية ولاشىء سواها وهو لم يحبذ الشيوعية ومبادئها أو أى مذهب من المذاهب التى تنطوى مبادئها على استعمال القوة والعنف لتحقيق هذه المبادى ، بل صرح بماينقض ذلك ودعا الشعب إلى التماس العقل والحكمة والنظام والرفق والتسامح والحنان والأباة والإنصاف . ودعا الحكومة إلى العمل على تحقيق ما ارتآه من وجود الإصلاح .

هذا إلى أن ماذكره المؤلف عن الفقر وهبوط مستوى المعيشة وما إلى ذلك ليتردد على لسان كل من يسعى إلى الاصلاح ويبتغيه . وقد سجلته اللجنة المالية بمجلس النواب فى تقريرها عن مشروع الميزانية العامة للسنة المالية إذقالت : « إن تنمية موارد الدخل القومى وكفالة العدالة الاقتصادية هما السبيل إلى الاصلاح الاجتماعى الذى يبرىء المجتمع المصرى من أدارته . وإن مصر تعانى من قلة الانتاج وهبوط مستوى الدخل ما تعانى . يجب العمل على رفع مستوى الغالبية العظمى من الشعب التى افتقرت ولاتزال تفتقر إلى مطالب العيش الأساسية لكى تحول دون انتشار النزعات المتطرفة إذ ليس ثمة شك فى أن انحطاط مستوى المعيشة وقسوة الفقر والمرض والجهل تربة خصبة لتفشى هذه النزعات وأن السبيل إلى مكافحتها هو

رفع مستوى المعيشة لكافة أبناء البلاد فليست قوانين البلاد كفيلة وحدها بعلاج الداء ، بل إن العلاج الشافى هو استئصال الداء من منبته بالقضاء على أسبابه . وقد اتجه التفكير إلى تحديد الملكيات الكبيرة كوسيلة من وسائل تحقيق العدالة الاجتماعية . غير أن تجارب مختلف الأمم فى هذا الشأن قد دلت على أن العدالة الاجتماعية لا تتحقق عن هذا الطريق وحده إذ فى متناول الدولة تحديد دخل كل طبقة من طبقات الأمة عن طريق فرض الضرائب بأنواعها وعلى الخصوص الضريبة التصاعدية على الايراد العام » .

وحيث إن حرية الرأى مكفولة فى حدود القانون . ولما كان الكتاب المضبوط لا ينطوى على جريمة ما ، فإنه لا يكون ثمة محل لضبطه تطبيقاً للمادة ١٩٨ عقوبات ، ومن ثم يتعين إلغاء الأمر الصادر بضبطه والافراج عنه .

فلهذه الأسباب

قررنا إلغاء الأمر الصادر بضبط كتاب « من هنا نبدأ » لمؤلفه الأستاذ « خالد محمد خالد » والإفراج عن هذا الكتاب .

صدر هذا القرار وتلى علنا فى يوم السبت ١٠ من شعبان سنة ١٣٦٩ هجرية الموافق ٢٧ مايو سنة ١٩٥٠ .

رئيس محكمة القاهرة الابتدائية

الإهداء

إلى الذين -

إذا جاءهم ما عرفوا . . . لم يكفروا به

وإذا جاءهم ما جهلوا . . لم يعرضوا عنه .

فى هذا الكتاب

١ — الدين . . لا الكهانة .
٢ — الخبز . . هو السلام .
٣ — قومية الحكم .
٤ — الرئة المعطلة .

مقدمة

انتهت التجارب الى اجماع أكيد على أن : «الاستبداد هو الأب الشرعي للمقاومة» وان الرأى المكظوم يتحول داخل النفس الى قذيفة خطره.. وان أيسر الطرق لحضارة خصيبة ممرعة، هو فتح منافذ الملاحة الفكرية، والقضاء على كل بواعث التهيب فى الشعب.

وقديماً قال «توماس بين» : «حين يطرق الرقى باب امة من الأمم يسأل : أهنا فكر حر؟ . فإن وجده يدخل ... والا مضى».

هذه حقيقة اولى .

وهناك حقيقة اخرى تقابلها : هى ان الشعب اذا اساء استعمال حريته ، ومارس حقه ممارسة طاغية ؛ فقد وقع وثيقة عبوديته ؛ واتاح للحكومة فرصة وضعه تحت الوصاية من جديد .

وجدير بنا ونحن فى مبتكر طور حديث من أطوار نمونا ، وفى مؤتنف وثبة نحاول بها اللحاق بموكب الانسانية الناهضة ؛ ان ندخل هاتين الحقيقتين فى حسابنا ، ونلتفع بكل مافيهما من معان ودلالات .

ولقد أنى على جماهيرنا الكادحة حين من الدهر لم تكن شيئا مذكوراً . فلما استيقظت من رقادها ، أدركت الى حد ما ، حاجتها الى مزيد من الوعى والانتباه لتستطيع أن تعرف عن أمرها شيئا

وتقدم اليها من الرواد والدعاة خليط متنافرة من ذوى النيات الحسنة . والنيات السيئة . . . يحملون بضائع مختلفة من المناهج والمذاهب والآراء .

أترى هذه الجماهير التي طال على جهلها ونومها الأمد ، قادرة على التمييز والاختيار ؟!

إن هذا الكتاب شمعة مهداة اليها لتبصر في ضوئها وترى ... وكل ما نود أن ننصح به هو أن نبارك هذا الوعي ، وندعه ينمو ويتسلق . وألا نحاول قط كبحه أو زجره ... فان ذلك هو السبيل كل السبيل إلى خلق المجتمع الحر الباسل الذي نريد أن يكونه .

قد تصيب مرة وتخطىء مرات . وتهتدي تارة وتضل تارات ولكنها أخيراً سوف تضع أقدامها على صراط الحقيقة والصواب. وتسير فوقه بخطى ثابتة أكيدة نحو أهدافها العادلة غير مخلة بواجب ولا مفرطة في حق .

والويل للذين يلوثون أيديهم بخنق ذلك الوعي الوليد . ويل لهم من الله ومن التاريخ ! فانهم لا يقضون عليه وحده . وإنما يقضون على أجيال بأسرها سيكون شذا الوعي فجر حياتها وبداية خلاصها !

إننا لن نقدم لمجتمعنا في هذه الفترة الحاضرة خيراً من الحرية . كي يستطيع في ضوئها وسناها أن يرى ، ويفكر ، ويختار الطريق القويم . فلتذكر هذا جيداً .. . حاكمين ومحكومين .

والتحرر من الخوف — هو نقطة البدء في طريقنا الطويل ورحلتنا الشاقة .

ومن أجل ذلك يجيء هذا الكتاب في أوانه ، ليقول للمجتمع: لا تخف ! ليزيح من طريقة تلك الأشباح التي تخيفه ، وتخذله ، وتملؤه روعا ورعباً — كما يهيب بالمواطنين جميعاً حكومة وشعبا وافراداً ، ان يتحملوا تبعات الرشد في شجاعة وغبطة ، وان يتقبلوا

الواجبات الجديدة التى تفرضها علينا الحياة وظروفها . وان يكون كل مواطن منا أداة حية تساهم فى التحول الاجتماعى الرشيد الذى نتوق اليه ، والذى يجب أن يبدأ فوراً ، ويتم سريعاً .

وقد تعجل . فتسأل : ما هـــذا التحول الاجتماعى . وكيف يكون ؟

وإن الكتاب ليحاول محاولة صادقة أن يجيب على هذا السؤال وهو يرسم الخطوط الرئيسية لتحول اجتماعى وديع يفضى بنا إلى قومية شاملة لا تنافر فيها .. وإلى اشتراكيه عادلة لا استغلال ولا ظلم فيها .. وإلى وعى ناضج سليم لا سلطان للرجعية ولا للكهانة عليه .. وإلى سلام غامر يبدل حقد المجتمع حباً .. وتربصه ولاء وأمناً ، وقلقه استقرارا وغبطة وسكينة .

وإنى إذ أقدمه لمجتمعنا المصرى ، أقدمه لكل مجتمع عربى ، فإن ما بين مجتمعاتنا من مشابه ، وما بين أوضاعنا من تماثل . يجعل الحديث عن أحدها . حديثاً عنها جميعاً .

ونحن مطمئنون للبواعث النبيلة التى أوحت بهذا الكتاب . . . والتى تصورها أصدق تصوير كلمة « روسو » : « ان ايماننا بالله ، وولاءنا للإنسانية هما اللذان يثيران فى طبيعتنا الخيرة أعمق الحوافز لنجعل من الحيوان البليد المسخر . إنساناً بشريا نابها » .

ولسـت أرجو من الذين سيقرأونه سوى أن يؤمنوا بحرية القول وحرية الفكر . وان يقرأوا بعقولهم . لا بعواطفهم . وألا يصدفهم الرأى المخالف عن تدبره وبحثه فى هدوء . فعسى ان يكون الحق ويكون الصواب .

والآن لنبدأ معا . . . مزودين بالتفاؤل والتكافل وحسن الصحبة . . .

إن الليل يوشك أن ينقوض ، ويتولى .

وفجر المستقبل يكافح الظلام فى قوة آخذاً طريقه إلينا . . ولكن حذار ان يخدعنا الفجر الكاذب الذى يسبقه !

ان السحب تنزاح عن سمائنا . . . والغيوم تجرى ... تسوقها رياح الحرية الى منفاها البعيد ، ومطالع الضوء تتسع رويداً رويد مبشرة بالفجر الصادق ، والنهار البهيج .

الدين .. لا الكهانة

« رجل الدين الغبي الجاهل يثير احتقارنا ، ورجل الدين الشرير الردىء يولد الجزع في نفوسنا — اما الناضج المتسامح ، البعيد عن الخرافات . فهو الجدير بحبنا واحترامنا » .

(فولتير)

إن تصفية العلاقات بين المجتمع والدين ، هي بداية الطريق المفضى إلى النماء والاستقرار .

وليس ثمة ما ينفر الناس من دينهم ، إبرازه فى صورة قوة عائقة لنموهم ، مناهضه لحقوقهم ، مخذلة لطموحهم ! .

والدين فى المجتمع الإنسانى بأسره يمثل ضرورة اجتماعية لاغنى للناس عنها .. . بيد ان الأمم تتفاوت فى طرائق الانتفاع به ، واستلهام مبادئه وتوجيهاته ، كما تختلف فى حرصها على أن يظل كما اراد له ربه ان يكون ، مصدر قوة وإخاء ومساواة ، لا ظهير انانية وعدوان .

وبقاء الدين متربعاً على عرشه المجيد ، يتوقف على امرين :

اولهما — تفاعله المستمر مع حاجات الناس ، ومع الحياة ، حتى تستطيع البشرية ان تجد منه عوناً دائما يمكنها من مواجهة مشاكلها المستحدثة ، وضروراتها الطارئة ، ويبارك محاولتها المستمرة للتقدم والوثوب .

ثانيهما — احتفاظه بخصائصه الذاتية الكبرى ، واهدافه التى من اجلها شرعه الله وانزله .. . وهى إسعاد الناس سعادة واقعية فى نطاق المساواة النبيلة التى جاء يعلنها ويحرض عليها .

وانا اليوم لنسمع صراخا بوجوب العودة الى الدين .. فإلى اى دين يدعو هؤلاء المتصايحون ؟ !

هناك شيء اسمه الكهانة ، انحدرت الينا من القرون الأولى .. وهى ذات تعاليم ومبادىء ضارة وقاتلة .. ! ارادت ان تستغل ولاء الناس للدين فلبست لبوسه ، وتشبهت به ، بل واستطاعت ان تتطفل

عليه وتخالط بعض تعاليمه . ثم راحت تنفث سمومها المبيدة فى دأب ومثابرة ، مباركة الرجعيه الاقتصادية والرجعية الاجتماعية ، مدافعة عن مزايا القفر والجهل والمرض ! !

ولم يبق أمام الحكومات المجتمعات التى تحترم ذاتها ، وتحرص عليه ، الا أن تبادر بكل وسيلة مستطاعة ، إلى عزل هذه الكهانة الخبيثة وتنقية الدين من شوائبها ، حتى يظل ولاء الناس له وإعجابهم به . . وإن الفصل الأول من الكتاب ليس سوى محاولة متواضعة فى هذا السبيل . . نريد أن نميز بين الكهانة الكئيبة والدين الرشيد . وبذلك نتيح فرصة للذين صرفتهم الكهانة عن الدين ، كى يجربوه مرة أخرى . . وسوف يجدون منه فى صورته الصحيحة ، زميلا مؤنساً مستعداً فى رحلة الحياة كلها .

وإنا لندعو المتصايحين بضرورة العودة الى الدين . والمتظاهرين بالغيرة عليه . أن يسلكوا هذه الطريق ، فيعمل كل فى نطاق امكانياته على بث تعاليم الدين الصحيحة ، وتطبيق مبادئه الإنسانيه تطبيقاً يرفع عن المجتمع اصرة وأغلال الضرورات التى تجعل حياته عبئاً لا يطاق .

والآن . . إلى أى شىء يدعو الدين . . ؟

ولكن قبل ذلك . . ماهى الكهانة . . ؟

السلالة المتشابهة :

حين ننصت الى العلامة « هـ . ج . ولز » وهو يحدثنا فى كتابه « معالم تاريخ الإنسانية » عن نشأة الكهانة ، ويصور لنا ملامحها يأخذنا العجب لكثرة المشابه القائمة بينها وبين الكهانات المتفشية

فى بلادنا ! ! ونقف على تفسير صحيح للرجعية الممعنة فى التقهقر التى تتميز بها الكهانة المعاصرة .

فالى أى شىء تدعو الكهانة . . ؟

نستطيع أن نعرف الجواب ، من مناوأتها الحادة لرغبات لمجتمع وطموحه . . فعندما اشتد احساس الشعب ببؤسه وخصاصته ، وتضرم شوقة إلى « عدالة اجتماعيه » يستجم فيها من وعثاء لغوبه الطويل ، وبدا كأن الفرص تستجيب ، له وقام « جلالة الفاروق » يمهد بنفسه طريق اليقظة الشعبية الزاحفة ، ففاجأ مجلس الوزراء فى أحدى جلساته ، وخاطب الوزراء بنبرات حازمة مؤثرة . تحمل آلام عشرين مليونا من البشر : « جئت لأطالب بحق الفقير والمحروم والمريض » !

عندما حدث ذلك . . . رأينا الكهانة المصرية تختط مذهبا عجباً . . اذ راحت تمطر الناس بخرافاتها ، وسال جشاؤها سيل العرم حاملا مبادئها الحزينة المدبرة داعية الناس القناعة المقدسة . بيد أن الكهنة أنفسهم الدأعداء القناعة ، وأسبق العالمين الى اقتناص المغانم ، والبحث عن المال والجاه !

وهذا خلق لها قديم كشف عنه العلامة رلز فى كتابة الجليل .

وإنه لأمر يثير الاشمئزاز ، أن يخرج العالم جميعه من الحرب الأخيرة بجداً كافة مواهبة ورجاله ومكانياته لانعاش الشعوب ، وتهيئة حياة ممرعة لها ، ونرى كل أمة تعمل داخل بلادها وخار جبها كى تحقق هذا الهدف ، ونسمع الدول الرشيدة جميعاً تنادى : بأن المعدة الممتلئة هى العلاج الحاسم لمشاكل العالم . . نسمع هذا ونراه

ولكن الكهانة تأبى أن تسمع وترى ! ثم تهر الناس باكتشافها البديع الذى سيضمد جراح الانسانية ، ويدفع عنها إصرها ، ويجعلها فى غنى عن كل النظم والمذاهب والنظريات . !

أجائع أنت وعريان . . ؟

مريض أنت أو جاهل . . ؟

وهل يستبد بك القلق والحيرة والتذمر ؟

لا تاسوا أيها المرضى والمحرومون والمستضعفون . . .

إن الكهانة ستبدل خوفكم أمنا ، وفقركم ثراء ، وسقمكم عافيه بهذه النظرية الرائعة « جوعو تصحوا » !

هذه هى دعوة الكهانة ورسالتها . . ! وهى قادرة على أن تقنعك بأن (الفقر محبوب) ! الفقر الذى كان رسول الله يصبحه باللعنة ويمسيه . . . والذى يقول فيه على بن أبى طالب : ماضرب الله عباده بسوط أوجع من الفقر هذا السوط الممزق الكاوى ، تدعوه الكهانة « بالفقر المحبوب » ، وهى لا تألو جهداً فى التبشير به ، والدعوة إليه .

ولا أزال أذكر ، يوم طالب الأزهريون ببعض حقوقهم المادية كلمة لأحد الكهنة نشرها فى صدر صحيفة يومية وقال فيها : (إنه ليحزننا اهتمام الازهريين بالأرزاق والدرجات . إن العلم والدنيا لا يجتمعان فى قلب واحد . . . فليختر الأزهريون لأنفسهم ما العلم وإما الدنيا) . مع ان ذلك الكاهن يملك عمارة فخمة ، وموارد ثروة ، وتساقط عليه الاوقاف والعطايا . . فكيف اجتمع الدين والدنيا فى قلب هذا العبقرى الفذ ؟ !

ولقد قامت طائفة مثقفة من العلماء والكتاب باطلاق مدفعيتها الثقيلة ، على الدعاية الخبيثة الضارة التى تستغلها الكهانة لصرف الشعب عن حقوقه فى الحياة . لذلك لا أجدنى فى حاجة إلى تكرار القول فى هـــذا الموضوع . وحسبنا أن نكتشف عن البواعث التى تحفزها إلى إحاطة المظالم الاجتماعية بأسوار شاهقة من الأكاذيب والخرافات ، ثم نكشف عن أهدافها وغاياتها الخفية التى تعمل لها .

ونقيم الدليل على أن تقويض المجتمع نتيجة لابد منها إذا ظلت هذه الكهانة سادرة فى طريقها ، تؤيدها الحكومة وتعزز سلطانها .

والآن . . نتقدم بهذه الاسئلة :

ماذا تريد الكهانة بدعوتها الناس إلى الفقر

ولماذا تسخر نفسها للدفاع عن مصالح الكبار ؟

ولماذا تكافح كل محاولة لتحول اجتماعى يريده المجتمع ويتضرم شوقا اليه . . ؟

سندع العلامة ولز يجيب على هذه الاسئلة ، مكتفين بأن نقول : إن الكهانة تتجه هذا الاتجاه بدوافع تقليدية مزمنة . . إذ هى امتداد للكهانة الاولى التى تميزت بخصائص تركزت فى طبيعتها واستقرت فى أعماقها ، وأصبحت فيها كالغرائز تتوارثها سلالتها المتتابعة المتشابهة .

يقول ولز : « كان الكهنة يلقنون الناس أن الارض التى يزرعونها ويدأبون فيها ، ليست لهم . . وإنما هى للآلهة التى فى المعابد . . وقد يهبها الآلهة (للحكام) ويهبها (الحكام) لمن يشاءون من خدمهم وموظفيهم .

« ... واستكشف الرجل العادى شيئاً فشيئاً ان الرقعة التى كان يزرعها لم تكن له ، إذ كان الرب مالكها .. وعليه ان يدفع جزءاً من محصوله للرب .. أو ان الاله قد وهبها « للحاكم » وللحاكم ان يفرض عليها مايراه من الضرائب ، أو ان « الحاكم » قد منحها إلى موظف ، هو سيد للرجل العـــادى .. وكان للرب أو للحاكم أو للسيد فى بعض الاحيان عمل يجب قضاؤه ، وكان لزاما على الرجل العادى عند ذلك أن يترك رقعته ويشتغل لمولاه .! ولم يحدث قط أن تحدد فى ذهنه ولا أن اتضح لديه تماما أمر رقعة الارض التى كان يزرعها وإلى أى حد كانت منسكيته لها »

« .. وفى مصر كانت المعابد ، « أو فرعون الرب » أو من دون فرعون من النبلاء ، هم الذين يتلقون الايجار .. ولم يستطع الرجل العادى أن يحافظ على النسبة بينه وبينهم ، فانحط بدرجات غير محسوسة إلى حال تقليدية مزمنة من التبعية والخضوع .. » .

« .. وبلغ الامر ان كبار الفـــاتحين ، فى العصور لأكثر تأخراً ، كانو حريصين على أن يضعوا أيديهم فى أيدى كهنة الشعوب والمدائن التى يبتغون طاعتها .. مظهرين بذلك ثقتهم بهم وإكبـــارهم إياهم ، بسبب عظيم نفوذ هؤلاء الكهنة على عقول الناس » .

« .. وكان بعض الكهنة من القساة الغلاظ الأكباد ، وبعضهم ممن ركب على الطمع والفساد .. وكان سلطان الكهانة يقوم فى نهاية الامر على إقناعها الناس بأن كل أضرب نشاطها تتسم بالعطف والرحمة ! »

إذن ليس للرجل العادى من الامر ، ولا من الحياة ، ولا من الارض شيء ؟

وإنما كل ذلك منحة ينالها بعض المحظوظين بالطريقة التى سبق ذكرها .. وعلى الذين حرمتهم الآلهة من خيرات الحياه أن يسمعوا ويطيعوا ، ويتجرعوا الغصة فى صمت ، ويطرقوا على المضض فى رضا وهوان !

هذه هى تعاليم الكهانة منذ آلاف السنين .. فهل تراها تغيرت ولو قليلا ؟

إن الرجل العادى ، رجل الشارع الكادح الدءوب .. لايزال فريسة هذه الكهانة تدعوه إلى الرضا والتسليم ، بل وإلى الاغتباط بما هو فيه من سغب وشقاء ، ويتفاوت تأثيرها حسب تفاوت الوعى بين ضحاياها .

فنى اليمن مثلا نرى الكهانة صورة طبق الأصل لتلك التى حدثنا عنها ولز ، ونرى الرجل العادى هناك هو نفس الرجل العادى القديم .

ولقد حدثنى صحفى زار اليمن إبان حوادثها الاخيرة ، بأن أكثر ماراعه هو أن ينسب الناس كل شيء للامام . فيشير الرجل إلى بعيره ويقول : هذا بعير الامام ، وإلى حماره : هذا حمار الامام . وبئر الامام ، وأرض الامام ، وغنم الامام !

وهكذا تعمل الكهانة على إذابة شخصية الامة ، وتهوى بها إلى درك سحيق من التبعية والخضوع كيما يسلس قيادها ، وتسير من ورائها مرتلة

ياعمرو انت امامنا وخلفة النفر الأوائل

وهى فى كل عصر وجيل تشعر بانها حارسة هذا التراث الخالد، والمسئولة عن إبقاء السادة سادة والعبيد عبيداً .

هذا هو منهجها ، وتلك شرعتها منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد وهى مدفوعة اليوم ، وكل يوم ، لالتزام هذا المنهج بدوافع شبه غريزية ، لاتعرف مأتاها ، ولا تستطيع تفسيرها . . لكنها الآن فقط تستطيع أن تعرف . . والكهنة المعاصرون قادرون ، بعد أن يقرأوا ماكتبه « ولز » على أن يضعوا أيديهم على الحوافز الشريرة التى تدفعهم لاقتراف آثام باغية ، وأن يحاولوا تعليتها وترويضها .

* * *

اشتراكية الصدقات :

ليس من الانصاف أن نظلم الكهانة فنتعتها بالجمود المطلق . فان لها مرونة خارقة تمدها دائما بامكانيات التفاعل مع التطور وتلبى بها حاجات المجتمع ؟

ماذا يريد الناس ؟ أيريدون اشتراكية وعدالة ؟ إن لدى الكهنة اشتراكية « جاهزة » وهم مستعدون أن يجودوا بها عليهم ليعيشوا فى ظلها أعزة شامخين كرماء !

تلك هى اشتراكية الصدقات » !

فالصدقة فى نظر الكهانة نظام اقتصادى واف، ووسيلة ناجحة لمحاربة الفقر وإسعاد الشعب ومطاردة متاعبه وشقائه ، وإنك لتسمع وترى الدعوة إلى الصدقة والاحسان فى كل مناسبة حتى لتكاد تشك : هل أنت فى مجتمع أو فى ملجأ ! وإنى لأصفق بكلتا يدى لهذا الكشف الرائع الذى كشفه ولز فى طبيعة الكهانة حين قال :

« وكان سلطان الكهانة يقوم فى نهاية الأمر على إقناعها الناس بأن كل أضرب نشاطها تتسم بالعطف والرحمة » فالكهانة حين تسلب الناس أعز مايملكون من كرامة وحق ، تحاول أن تعوضهم عن ذلك بابداء بعض مظاهر العطف والرحمة ، ولكنها رحمة لاتخرج عن نطاق سياستها المرسومة ، وهى أن العبد عبد والسيد سيد وغاية مايستحقه العبيد من الرحمة والعطف إنما هى الصدقة . حيث تمتد اليد السفلى لتلتقط مايهبط عليها من اليد العليا . والمؤلم أنهم يظلمون الاسلام ظلما فاحشاً إذ يتكلمون باسمه ، ويكاد الذى يستمع اليهم أن يخدع فيصدق أن الصدقة هى كل مايستطيع الاسلام أن يقدمه الشعوب من عدالة وبر ومساواة .

ولكن هل هذا صحيح ؟

معاذ الله أن يرضى لعباده المذلة والهوان . إن الاسلام حين دعا إلى العدل والتكافل الاجتماعى ، لم تكن الصدقة فى حسابه قط كوسيلة تنهض بها حياة الشعوب . . بل هى شىء يشبه « أكل الميتة » فتباح لبعض الافراض الذين لايجدون مايقيم الأود ويمسك الرمق ولكنها لاتعالج هبوط المستوى المعيشى للأمم والجماعات .

هذه بديهة يعرفها الذين عرفوا محمداً ، ودرسوا نفسه العالية ، ودينه القويم .

فلقد وضع عليه السلام الصدقة فى مكانها اللائق بها حين قال :

« إنها أوساخ الناس . . إنها غسالة ذنوب الناس » .

فكيف نتصور أن يرفع الاسلام مستوى الحياة والمعيشة بهذه الغسالات والأوساخ ؟ !

إننا نلقى على الأمة أعظم دروس فى الهوان والضعة حين ندعها تفهم أن طريق إصلاحها ، وشيوع العدالة فيها هى الصدقات .

لقد رأى رسول الله حفيده الحسن يمد يده نحو تمرة من تمر «الصدقة» ويدفعها فى فمه ، فانتزعها منه وهو يقول له : « كخ . كخ إنها لاتحل لمحمد ، ولا لآل محمد . . إنها أوساخ الناس ! ! » .

فهل كان آل محمد طبقة ارستقراطية خاصة تأنف الهوان وتستنكف عنه ثم تبيحه لبقية الناس . ؟

كلا . . وإنما هو مثل رائع يضربه محمد بهذا المجتمع الصغير ، الذى هو أسرته . . للمجتمع ، الذى هو أمته ...

فاذا كانت الكهانة تدعو الشعب الى التسول ، والاغنياء الى التصدق عليه ، فالدين على نقيض ذلك . . إنه يقول للشعب . كخ .. كخ ..إن الصدقة أوساخ الناس لاتحل لأمة رفيعة كريمة .

ولقد كان الشافعى رضى الله عنه يفضل الأكل من شبهة على الأكل من صدقه ، ويقول عنها : « إنها تذر البطون عليلة ، والنفوس ذليلة» .

وكانت الصدقة (١) فى عصر الرسول وفى لغة القرآن تعنى ضريبة مفروضة هى ضريبة الزكاة التى نزل فيها « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . وأما ماوراء ذلك من الهبات والتبرعات فكان الرسول يعالج بها ضرورات أخرى طارئة فى مجتمعه الذى لم يكن التطور قد أسعفه بعد بالنظم والمفصلات ، ولقد كان الرسول يخشى ان يفهم الناس أن الصدقة مصدر مشروع من مصادر العيش

(١) هذه العبارة دفع لاعتراض قد يقوم بذهن القارىء وهو كيف نوفق بين تنفير الرسول من الصدقة وقول الله تعالى: (خذ من أموالهم صدقه) فاردت أن ابين أن الزكاة سميت بهذا الاسم إلا أنها تختلف عن الصدقة كل الاختلاف لأنها كما ذكرت (ضريبة مفروضة) وليست نافلة من نوافل البر والاحسان

والارتزاق فكان يدعهم عنا دعا ،ويزجرهم زجرا .

إن « سدنة الكهانة » حين يدعون باسم الدين الى « اشتراكية الصدقات » يقعون فى شرك خطير . . فمعنى هذا أنهم يجعلون الصدقة نظاما اقتصاديا مشروعا ومعناه أيضاً أنهم يفتحون باب المسألة على مصراعيه .. لأن الذى يقول لى : الصدقة مصدر رزقك المشروع . . تقول أيضاً : احرص على هذا المصدر واسع اليه ، وتهافت عليه ، تشبث بوسائله واسبابه . وما وسائل الصدقة الغالبة إلا المسألة. والالحاف .. مع ان الرسول عليه السلام ظل يذم المسألة حتى كاد يجعلها كفراً .. فهو القائل :

« المسألة كلمح فى وجه صاحبها يوم القيامة . اياك والمسألة . فانها هى رضف من النار ملهبة » .

وبايع بعض أصحابه على : ألايسألوا الناس شئا . . وان سقط حبل أحدهم فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه ! » .

وفى الوقت الذى حقر فيه الصدقة والمسألة .. راح يمجد العمل وحده ، فيقول الحكيم : « اذهب بارك الله لك فى صفقة يدك » ، ويأمر الأنصارى الذى لم يكن يملك من أثاث منزله سوى « حلس نلبس بعضه .. ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء » أن يأتى بهما .. ووقف الرسول يبيعهما بالمزاد ،فنادى : من يشترى .. ؟ فيقول رجل : على بدرهم .. فيعيد الرسول الكرة من يشترى .. من يزيد ؟ ثم يبيعها بدرهمين .. ويأمر الرجل أن يشترى بأحدهما طعاما وبالآخر « آلة العمل » ويأمره أن يعمل . فيعمل وينجح :

فالدين الذى يحقر المسألة ، ويمجد يعمل ، ويأمر بأن يأخذ العامل حقه فيما عمل دون أن ينتقص من حقه شىء ، لايمكن ان يعالج

حقوق الشعب فى الحياة بالصدقات، كما تحاول الكهانة اليوم ان تفعل وان اشتراكية الحقوق والواجبات ، لا اشتراكية الصدقات ، هى التى تستطيع ان تجتاز بنا الإعصار ، وتهزم العاصفة ، وتبلغنا المرفأ السعيد .

المغفلون النافعون :

ولقد ظلت الكهانة ، ولاتزال ، ينسحر طوفانها عن طائفة ترسبت فى القاع نستطيع ان نسميها « المغفلين النافعين » يدعون بدعوى الجاهلية الأولى ، بل الجاهلية التى قبل الأولى .. ! ويتمادون فى الفلسفه الكهنوتية الكئيبة ، فيدعون الشرق كله . والشرق وحده ، الى نبذ المادة النجسة ، والاعتصام بالروحانية ، نتخذ منها سماءنا وغذاءنا . ونسود بها الدنيا ، ونصبح ملأها الأعلى ، وملائكتها المقربين .. !!

وقبل أن نتحدث بايجاز عن هذه الفكرة الخبيثة المدمرة .. اود أن أعتذر للمغفلين النافعين عن هذه التسمية ، وأوضح لهم معناها والمقصود منها ..

فنحن — أولا — نريد بالمغفل ، الغافل .. من الغفلة .. لامن التغفيل .. ولعل من الطريف أن أسوق هنا اصطلاحا « أزهريا علميا » يزيد هذا التفسير وضوحا .

فلقد كنا ، ونحن نطالع الكتب المؤلفة عن « رجال الأثر والحديث » الذين رووا أحاديث رسول الله ، نلتقى بعبارة تضحكنا كثيرا .. إذ يقول المؤلف أثناء عرضه لتاريخ راو من هؤلاء الرواة :

« .. فلان هذا .. صالح مخلص ، صادق ، قانت . ولكننا لا نأخذ بروايته .. لأنه كان ـ رضى الله عنه ـ مغفلا » . يعنى غافلا .. فلا نضمن أن يلقى فى نوبة من نوبات غفلتـــه وسهوه بأحاديث مصنوعة موضوعة ، وفتاوى مخطئة ، وأفكار مغلوطة .

والمغفلون النافعون الذين نتشرف الآن بالكتابة عنهم من هذا القبيل ، فهم قد يكونون مخلصين ، صادقين قانتين ، ولكننا لا نستطيع الاطمئنان إلى تفكيرهم ، لأنهم ـ رضى الله عنهم ـ مغفلون .. !!

هذا .. أول ..

والآمر الثانى ـ أن هذا اللقب اصطلاح «دولى» تعرفه وزارات الخارجية فى الدول الكبرى ذوات الأطماع الاستعمارية .. فلقد قرأت لكاتب أمريكى أن فى وزارة الخارجية البريطانية « ملفات ودوسيهات » ضخمة تعرف بملفات « المغفلين النافعين » وهم الذين يخدمون الاستعمار خدمات جلى من غير قصد ، وبحسن نية !! وذلك بأن يذيعوا فى صفوف أمتهم أفكاراً ، أو يتصرفوا تصرفات من شأنها أن تفضى إلى تركيز الاستعمار وتهيئة الجوله ، دون أن يقصدوا هم هذه الغاية ، أو يعملوا لها :

فالعالم ، الذى ينحرف بالدين عن غايته التى هى إنهاض البشرية وتوفير الحياة لها ، مغفل نافع للزندقة والالحاد والاستعمار .

والرجعى ، الذى يعمل على تعويق التطور والحضارة ، ويعمل على أن تبقى النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافيـــة فى الشعب كالمومياء المحنطة لا تدب فيها الحياة ، ولا يجرى فى عروقها الدم جديد الغفل نافع للاستعمار والجهل .

والصحفى ، والكاتب ، والخطيب ، الذين يتخذون من أقلامهم وألسنتهم أمصالا يطعمون بها الشعب ضد الاحساس بالحياة وضد الشعور الجياش ، والحنين الوثاب إلى الحقوق المفقودة . هؤلاء أيضاً مغفلون نافعون لقوى الشر التى تعمل ضد سلامة المجتمع وأمنه ورفاهيته . ولكن شر سبط فى سلالة « المغفلين النافعين » وأبعدهم أثراً فى مصير الأمة ومستقبلها . أولئك المبشرون بالروحانية ، والداعون لها .

فلنتحدث إذن عن هذه الروحانية ، هذه البدعة التى تطل علينا بوجهها الضامر كلما أذن بيننا مؤذن : حى على الحياة . . !

وأود أن يكون مفهوما أننا لانسوق الحديث عن هؤلاء سخرية وتفكها ، وإنما هو « وباء » نريد ان نلفت الأنظار إلى مكافحته ، وتطهير البيئة منه . فان هذه الفكرة البلهاء التى تزعم أن الروحانية هى علاج الشرق الوقائى ، وان « المادة » ستفسدنا كما افسدت الغرب ، وان الروحانية شئ مستقل بذاته ، وليست اثراً من آثار المادية المنظمة بالرغد والرفاهية .

هذه الفكرة الساذجة تجد لها انصاراً كثيرين ، وتخدع حتى بعض الذين كان يظن ان لهم من ثقافتهم وعقولهم عاصما .

ففى امسية غابرة شهدت بأحد الأندية الثقافية الممتازة بالقاهرة محاضرة عن « التربية القومية » واثين ليلتئذ الحديث عن الروحانية كوسيلة هامة من وسائل هذه التربية ، واتيح لى التعليق الخاطف على الموضوع . . حيث ذكرت ان الرحانية ، كما يفهمها « سدنة » الكهانة اليوم ، ليست سوى « عملة زائفة » يراد بها طرد العملة

الصحيحة من السوق . . . والعملة الصحيحة التى يراد طردها بالروحانية ، هى إيمان الشعب بحقوقه ، وإيمانه بالحياة ورغبته النهمة فيها ، وإصراره عليها . ولقد روعت ليلتها حين اكتشفت أن خمسين فى المائة من المستمعين المثقفين قد طعموا ضد هذه الحيوية الباعثة ، والفكرة الخالقة ، وراحوا ضحية المصل اللذيذ المسكر الغاش ، مصل الروحانية المدبرة .

وقبل ذلك ، منذ عامين تقريبا ، شهدت ميلاد فكرة ، توائق بعض الأدباء الناشئين على ان يتبنوها . ويكفلوها ، ويبشروا بها ، وهى ان الشرق خلق ليكون مصدر روحانيات ، ويجب أن يظل كذلك . وكذلك فحسب ، وان « استيراد » المبادئ الغربية ، ايا كانت . ضلالة لاتليق بجلال الشرق وسموه .

قلت للاديب الناشئ ليلتها : واستيراد المخترعات ايضا . لا تنس ان تضيفه إلى قائمة المحظورات ، حتى يبلغ جلال الشرق مداه .. !!

لاروحانية مع الحرمان :

ولآن فلنسأل : ماذا يريد « المغفلون النافعون » بالروحانية ؟ إنهم طبعا لايقصدون إطلاق البخور ، وتلاوة الرقى ، ومخاطبة الجن واستحضار الأرواح . .

وهم ينشطرون شطرين ، يسير كل شطر منهما فى اتجاه . .

فيعنى بعضهم بالروحانية : العزوف عن الدنيا ومباهجها . . ويريد الآخرون بها : الفضائل النفسية ، والمعنويات النبيلة ، التى تجعل صاحبها إنسانا فيه التسامح ، والإخلاص ، والايثار ، وحب الغير ، ومحبة السلام . شئ كثير

وهذا الفريق الثانى هو الجدير بان يناقش . أما الاونون فقد رثت حبالهم ، وأصبح كثير من الناس يدركون بالخبرة أو بالفطرة أن فاسفتهم هى ليست سوى « دخان تقذف به مداخن متهدمة » . ولسنا نزعم أن ضحاياهم صاروا من القلة بحيث لايؤبه بمظهرهم ، فان ضحاياهم لايزالون يبلغون من الكثرة درجة مقلقة بشعة تبعث على الاسى والشفقة ومن أجل هؤلاء الضحايا وحدهم سنقول لهذا الطراز من « المغفلين النافعين » كلمة ونحن نجرى :

إن عصر الزهد والموت قد انتهى وتقوض ونحن اليوم فى عصر الحياة ، وإذا كنتم مصرين على مذهبكم الباطل فادعو اليه بأسم الكهانة لا بأسم الدين ، فالدين لم يجىء ليجعل من الحياة الهيجة المشرقة متعة تقضى ايامنا فى صوامعها ولحودها ، ولكنه جاء يهتف ، ويذق اجراس الصباح للنوام صائحا فيهم . اليكم زينة الله وطيبات الدنيا ، ومسرات الحياه :

وإذا كنتم تلوحون لنا بأحاديث رسول الله فانا نحترم رسول الله ، ونحترم أحاديثه ، ولكننا نمتهن فهمكم لها ، فالصحيح من هذه الاحاديث ليس سوى « توجيهات استثنائية » لظروف استثنائيه والراسخون فى العلم يعلمون إن هذه الاحاديث مجازية المعنى ، يراد بها علاج وقتى ، يبث الامل فى نفوس المحرومين مع حفزهم فى الوقت نفسه على الاستيقاظ والاستمتاع بالحياة .. وإذا أنتم رفضتم هذا التفسير الصحيح ، فانكم تنكبون أنفسكم نكبة مروعة ، فاننا نستطيع بأحاديث أخرى صحيحة ، أن نجردكم من رصيدكم فى البنوك وإقطاعياتكم فى القرى ... ومن كل مظاهر الأبهة التى فيها تحيون ، وفيها تموتون . !!

وإليكم بعض الأحاديث :

يقول عليه الصلاة والسلام : إن خليلي عهد إلى ان أيما ذهب أو فضه أوكىء عليه (كنز وادخر) فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله عز وجل » .

وكان عليه السلام يقول . انى لأجل هذه الغرفة ... ما ألجها إلا خشية أن يكون فيها مال فاتوفى ولم أنفقه » .

وأتى يوما بجنازة ، ثم أتى بأخرى ، فقال ، «هل ترك من دين؟ قالو : لا ، قال : فهل ترك شيئا ؟ قالوا : نعم ، ثلاثة دنانير . فقال الرسول وهو يشير بأصبعه : ثلاث كيات » . !

وبعد فما قولكم دام فضلكم ؟ إذا كانت هذه الاحاديث تقرر مبدأ واجب النفاذ ، فأطلقوا إذن سراح الاموال المكدسة فى خزائنكم ، وإن تك مجازات ذات دلالة وقتية طارئة فكذلك قولوا فى الاحاديث التى تكلمت عن الفقر البغيض الفقر التى تمجده الكهانة وتسوق الملايين إلى مذبحه الرهيب !

ولننتقل للآخرين الذين يريدون بالروحانية فضائل النفس وإشراقها لنسألهم : هل تستطيع النفس المغمومة المشتتة أن تجد حلاوة الايمان وصفاء الروح؟

هل يستطيع الإنسان التى اختلت غدده ، وأجدبت خلاياه أن يكون ذا سلوك وديع ؟

هل يستطيع المحروم الذى لم يجد من الفرص ما يثقف نفسه ويربيها ، ويطعمها ويسقيها ، أن يصير إنساناً فاضلا ؟

وهل تعلمون أن رسول الله كان يتعوذ ملء نفسه وإلحاحه من

الدين ويقول : انه يحمل الرجل على أن يحدث فيكذب ويعد فيخلف

وهل تعلمون ن تسعة أعشار مجتمعنا يرزحون تحت أعباء ديون ثقيله مهظة ، وهم لذلك يتحلون بفضيلة الكذب والاخلاف ؟

وأن تسعة أعشار أيضا ضعاف عجاف مهازيل قظ جعلت منهم الأمراض وسوق التغذية نماذج حية للعقد النفسية والسلوك المنحرف ؟ ياليتكم تعلمون

لقد أثبت العلم بتجاربه التى لاريب فيها ، أن أخلاق الانسان ليست شيئا بعيدا عن ذاته وتركيبه وأجهزته . وليست شيئا يناله صاحبه بدعوة صالحة ، أو موعظة رقيقة ... وليست شيئا يهبط من السماء فيصيب أقواما ويخطىء آخرين ! وما السلوك البشرى كله : خيره وشره ، صالحه وفاسده ، إلا وليد حالتنا الصحية وحالتنا العقليه .

فالشخص المريض الذى هبطت طاقة خلاياه العصبيه ، لانه لايجد غذاء كافياً ، والشخص الجاهل الذى لايجد فرص التربية الكافية . لايمكن أن تصدر عن أجدهما تصرفات سليمة ، فضلا عن ان نعثر داخل إهابة على فضائل يانعة وروحانية مشرقة... لأن المرض والحرمان يفقدانه سكينة النفس وغبطتها ، ويمتصان من روحه العزيمة والامل

وفى هذا يقول دكتور ادواردسبنسر كولز فى كتابه «لاتخف» :

« ان كل تغيير فى الخلية العصبية مهما تقل درجته ، يتبعه لامحالة تغيير فى نفسية صاحبها

ويضرب لنا مثلا ، رجلا سكيراً بلغ فى الادمان درجة حطمت

كل مقوماته ، ومحت خصائص نفسه أو كادت ، وجردته من كل خلق وفضيله ، وروحانية طبعا ... ولما عجزت المواعظ والزواجز عن إنقاذ هذا المغلوب على ارادته وأمره ، صاح العلم : ان العلاج يجب ان يبدأ من الداخل حيث ... الخلايا المجدية ، والاعصاب المنهوكة والغدد المختلفة ..!

وهناك فى غرفة العمليات ، أجرى له دكتور « كولز » عملية بزل السلسلة الفقرية التى تخفض الضغط فى السائل المخى ، فتتغير بذلك كيمياء المخ ، ونجح نجاحا باهراً ، ورد للمريض ، ولا يزال يرد لأشباهه عافيتهم البدنية ، فتعود تبعا لها عافيتهم النفسية ، وتعود الأخلاق الطاهرة الروحانية الغامرة .

وماهنالك ريب فى أن هذا الذى ينطبق على الفرد ، ينطبق على الجماعات والمجتمعات ، فالمجتمع المتمتع بعافية أقتصادية ، هو الذى تزدهر فيه الفضائل اما المجتمع السغيان المضنى فلا وجود فيه للفضيلة ، ولا للروح . ان الرخاء هو الجهاز ، وهو الغدد وهو الخلايا التى تحيا بها الشعوب

أليست الروحانية تعنى السلام والاخاء والمحبة ؟ وكيف السبيل اليها فى جماعه يؤجج الحرمان فى أنفسهم نار البغضاء والحقد والتشاؤم من الحياة وأهلها ؟ ! هذه حقيقة ادركها رواد الروحانية أنفسهم وعبر عنها ابو ذر الغفارى اجمع تعبير حين قال : إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر : خذنى معك ! » كما عبر عنها توماس بين فى آيته الخالدة : « ان الفقر ليتحدى كل فضيلة »

كما عبر عنها ايضا « عبد الله بن المبارك » الصوفى الزاهد العالم الذى كان يقلب الذهب بكفيه فى غبطة ويقول : ولا هذا لتمندل

بنا هؤلاء — مشيراً إلى قصور الأمراء — ولاتخذوا نفوسنا الشم سخرياً ! ؟ » .

قد تعرف الكهانة ذلك ، وقد تجهله ، أو تتجاهله ، وأيا كان الأمر فالنتيجة واحدة . لأنها لا تصدر عما تعلم ، بل عما تريد . . وهى تريد دائماً أن تكون لها الكبرياء ، والطريق لذلك هو تجريع الناس هذه الجرع التى تذهلهم عن أنفسهم ، وعن حقوقهم . . وهى كما قلنا من قبل تعمل بدوافع شبه غريزية لتمكين العالين فى الأرض من القبض على أعناق المجتمع الذليل ، وإبقائه منطقة نفوذ دائم لمصالحهم المادية .

وإن عجبنا من فلسفة « المغفلين النافعين » فى الروحانية لا يكاد ينتهى ، لأن فلسفتهم هذه لا تريد أن تؤذن بانتهاء !

لقد كتب أحدهم يوما ، ومن المؤسف أنه كاتب كبير ، يقول : « إن الروحانية أسعدت الشرق رغم فقره وقعوده ؟ والمادية أشقت الغرب رغم ثرائه ورقيه ! ! » .

وكتب كاتب كبير آخر : « إن الروحانية تدعو أبناءها أن ينظروا دائماً إلى السماء ، أما المادية فتعلم أصحابها النظر إلى الأرض » !

وفات هذا الكاتب المبدع ، أو نسى ، تلك الحكمة القائلة : « إن الذين يقفون على الأرض ينظرون إلى السماء ، أما الذين فى السماء ، فينظرون إلى الأرض » !

فالروحانيون ينظرون إلى السماء ، كما يقول حضرته . ولكن لماذا ؟ لأنهم على الأرض ! . . أما الآخرون السعداء فينظرون إلى الأرض لأنهم فى السماء . .

إن الكلمة الأخيرة التى سنقولها للشعب دائما . هى أن طاقته

الروحية وليدة طاقة الاقتصادية . وأنه ما لم تطاوعه الفرص ، ويحيى فى غير حرج ، ولا قاقة ، فلن تكون له روح .

هذه روحانيتنا :

وقد يخطر لجماعة « المغفلين النافعين » أننا نغمط قدر الجانب الروحى ونضائل من قيمته . ولكن كل سطر من كلماتنا هذه يدل على مدى اعترافنا بها وإدراكنا لفائدتها . . . فقط كما نفهمها نحن لا كما يفهمون .

فالإنسان كما تقول المستشرقة الفاضلة كاترين هنرى : « مفتقر دائماً إلى الوحى والإلهام فى حياته الفردية والاجتماعية ، والروحانية هى التى تكمل النقص من هذه الناحية وتطلق القوى الكامنة فى طبيعة الإنسان من عقالها وتوجهها إلى متجهات فى الحياة نحو الله ونحو محبة الإنسان وخدمته » .

وإنا لنرى أن طبيعتنا تظل بغير تهذيب وصقل حتى يتاح لنا التمكن من هذه المحاولة الأدبية الرفيعة التى نسميها « بالروحانية » فتنفيها من شوائبها ، وتصقلها ، وتهبنا صفاء العقل ، وغبطة النفس ونور الشخصية . وتفتح لنا آفاقاً من المعرفة ربما كان العقل وحده عاجزاً عن كشفها . . . كتلك الإلهامات التى تومضها فينا أحياناً ، والتى أومضتها فى نفوس العباقرة والمخترعين فكانت هذه الحضارة العتيدة . وإنا لنؤمن بأن كل رقى لا يتخلل نسجه هذه الخيوط من النور ، فإنه يحجب وراءه تدهوراً منتظراً ، وانحطاطاً سريعاً .

هكذا نقول ، وبه نؤمن . . ولكن الطريق إلى هذا الإشراق الروحى ، وإلى السكينة الاجتماعية ، والفضائل النبيلة : ماهو ؟

أما فى رأينا فهو الرخاء الاقتصادى الشامل ، ثم بعد ذلك ، أو معه التربية النظيفة الباعثة . وما لم تتغير أوضاعنا الاقتصادية ، وتترق . فهيهات أن يتجدد قلب المجتمع ، أو تطهر طبيعته .

وربما يستطيع بعض الأفراد أن يتغلبوا على مشاق بيئتهم وظروفهم ، ويكتسبوا لأنفسهم رغم متاعبهم وآلامهم حياة روحية وضيئة . . بيد أن ذلك غير مستطاع بالنسبة للأمم والجماعات ما لم يكن لها من نظمها معين أى معين .

ولعل من تكرار القول أن نقيم على هذه الحقيقة شواهد وأدلة. لذلك نكتفى بمثل واحد ، هو الحب . . . ذلك الخيط النوراني الوثيق الذى ينتظم قلوب الناس فيجعل من حياتهم أغنية بهيجة ساحرة .

هذا الحب الذى يصوره لنا صوفى مسلم عظيم ويرسم حدوده فيقول ، وهو السرى السقطى رحمه الله : « لاتتم المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر : يا أنا !! »

هذا الحب الذى نقضى فى دفئه أسعد أيام الحياة ، والذى هو ذروة الروحانية وغاية سعيها ؛ هل يمكن أن يوجد فى مجتمع يعانى صراعا عصبياً من جراء مخاوفه وهمومه وجوعه وأحقاده العميقة القرار ، وشعوره بالتبعية والدونية والخضوع ؟!

إن الروحانية التى ندعو إليها لاتبدأ من نفسها بل هى تبدأ من المعدة الممتلئة . فاذكروا هذا جيداً . . ؟

الكهانة والعقل :

سنعود مرة أخرى إلى كتاب « معالم تاريخ الانسانية » مقلبين الصفحات التى كتبها عن الكهانة فى حذر !! خشية ان تباغتنا بعض أظفارها الجارحة ، أو ألغامها المبثوثة . ولقد بلغنا غايتنا ، فلنقرأ هذه السطور :

« ولم يكن أى إنسان ليستطيع أن يحصل قط على أية حياة عقلية كما لم يكن يستطيع الدخول إلى حظيرة الأدب أو ارتشاف العرفان إلا على أيدى الكهنة . وكان كثير منهم أغبياء مستمسكين بالمبادىء النظرية ، وقد أعمى استمساكهم الجامد بالتقاليد بصائرهم . . »

عن أى شىء تكشف هذه الكلمات ؟

إنها تكشف عن جانب آخر خطير فى طبيعة الكهانة وتبين فى صراحة وصدق أن مؤامرتها المحبوكة ضد الشعوب لا تهدف فقط إلى تجويع البطون وحرمانها . بل إلى تجويع العقول أيضا !

وإذا المجتمع جاع بطنه وعقله . . فقد صار مطية ذلولا لها ، ولكل مستكبر جبار .

لقد منحت الكهانة نفسها سلطة واسعة النطاق ، وساعدها فى ذلك كما قال « ولز » تأييد الفاتحين والحاكمين لها كى يستغلوا نفوذ الكهنة على عقول الناس لتدعيم سلطانهم وإرباء مصالحهم . والعجيب أنها تمرض نفسها فرضا على شئون المجتمع كلها . ما تعلم منها ومالا تعلم ! ولقد منحت نفسها سلطة الحارس المطلق الذى وكلت إليه حراسة النظم الاقتصادية والتقاليد الاجتماعية . فهى تطارد كل رغبة فى تحويرها أو ترقيتها . . ولما كان العقل قوة محركة يدفع إلى التغيير

ويحفز على التطور ، فقد وضعت يدها عليه من قديم الزمان كما سمعت ، ثم هى لاتزال متشبثة به . وإن هذا الحجر العقلى الذى اتسمت به الكهانة طول تاريخها الاسود ليرينا أى خصم أثيم ، ذلك الذى يعمل على تقويض المدنية كلها .

انها لتحتكر عقول الناس ، وتضرب حولها حصاراً قاسياً ، ونطاقا من حديد ، ولئن كانت فى ماضيها البعيد لم تكن لتأذن لأحد أن يفكر بغير عقلها ، أو ان يتلقط المعرفة من غير أفواه سدنتها فإنها اليوم كما كانت بالأمس . بل انها اليوم شر من الامس أنانية وأكثر تحكما وعسفا .!

انها ترى فى العقل الحر اعظم خطر يهدد وجودها لأنها لاتحتمل هجوما واحداً منه فهى لذلك تبذل اقصى جهدها ليظل العقل الخاضع لها مكبلا بالاصفاد . وهنا يبدو لنا فارق جلى تتناهى فى الوضوح والجلاء بين الكهانة الكاذبة ، والدين الحق الصادق . فبينما لاتستطيع الكهانة أن تعيش إلا فى الظلام ... إذا بالدين يدعوه لاضاءة الأنوار ، ويعلن سلطان العقل أيما إعلان ، ويدعوه إلى اقتحام كل مناطق الفكر دون أن يخاف ويخشى .. ذلك ان الله العلى الكبير الذى شرع الدين لعباده يعلم ان الحياة بغير عقول طوافة حرة شجاعة لن تفوق كثيرا على بيوت العنكبوت ... وستظل تتقاما وتتقازم حتى تتلاشى معالمها

لطالما قرأنا وسمعنا عن الكهانة حديثا عجيبا ، يرينا كيف اضرمت نار عداوة طويلة الامد بين الدين والعلم ، وكيف كانت تقف بالمرصاد لكل عقل مبدع ، ولكل اختراع نافع ، ولكل حقيقة

علية باهرة ، وكيف البت الجماهير الغافلة على الذين كانو ينفقون كل أعمارهم فى سبيلها من العلماء والفلاسفة والمخترعين

يقول ولز : إن الكهانة تتلذذ دائما بأنحطاط الغير عنها . . وهى نفسها تقف فى أول سلم الانحطاط من أدنى » .

وإذا الانسانية بما فيها من حقائق وبحوث استسلمت لها ، فقد حق عليها التدهور السريع نحو القاع ، ولكن من حسن حظها — أى الانسانية — ان العقل قائم للكهانة بالمرصاد يعمل فى ثبات ومثابرة ، وما سمعنا ولن نسمع ابدا انه هزم ، او انه سينهزم امامها والذى يسبر عبر التاريخ يشاهد آثار الكفاح الطويل ، ويمر بآلاف الشواهد القائمة تحمل اسماء شهداء العقل والحرية . ولكنه لن يعثر قط على نصب للعقل ذاته ، لأن العقل لايزال حيا وسيظل كذلك إلى الأبد ، بل الى مابعد الابد . وهذه هى الحقيقة التى تقدمها لسدنة الكهانة المعاصرة رجاء ان يؤمنوا بها فيوفروا الوقت للعقل ينفقه فيما يعود على البشرية بالفائده بدل ان تضطره إلى الدخول معها فى صراع ستلقى فيه حتفها لامحالة .

لقد حاولت اخت لها — من قبل — وهى الكهانة الغربية محاولتها الخاسرة ، وابطرها الظفر الذى احرزته اولى الكفاح واستمرت لحوم العباقرة ، حتى دفعت الثمن اخيرا : خياتها ووجودها ، وسار موكب العقل فى زخفة الميمون وسيظل يسير ..

فماذا جنته تلك الكهانة بحماقتها ؟

هل عظت الارض مسطحة كما كانت تقول ؟

هل بقيت السماء قبة من النحاس الأزرق كما كانت تريد ان يؤمن الناس ؟

هل صار « الميكروسكوب » وغيره من المخترعات العظمى بدعا وفسوقاً كما كانت ترى !

هل بقى أثر واحد من آثار تلك الكهانة دون أن تدوسه الأجيال بأقدامها ؟

لقد اتهمت « غاليليو » بالإلحاد كما اتهمت من قبل « كوبرنيكس » وحكمت عليه بالسجن حيث قضى فيه بقية حياته . . فما زاده ذلك إلا إصراراً وإيماناً . . وكان يقبض بكلتا يديه على القضبان الحديدية ويهزها فى عنف صائحاً :

« إنى أقسم بكل شىء مقدس . . أقسم بدقات قلبى التى أسمعها الآن ، وبالهواء الذى تستنشقه رئتاى أن الأرض تدور . . تدور تدور . . . » وكتب فى سجنه أعظم كتاب له وهو « قوانين الحركة » .

وماتت الكهانة — وبقى غاليليو حياً خالداً فى التاريخ ، وأصبح الأطفال فى المدارس يعرفون نظريته كما يعرفون أنفسهم وأسماءهم .

ولقد فزعت يوم اخترعت أول آلة للطباعة ، ورأت فيها مارداً عملاقاً سيدمر كل بنائها . فأخرجت مراسيم التحريم للقضاء عليها ، وأصدر البابا اسكندر السادس مرسوماً عام ١٥٠١ م يقضى باعدام كل من يطبع كتابا بغير إذنه !

ولكن ذلك البابا ذهب مكفناً فى كهانته ، وبقيت المطبعة أصدق حليف وأقوى نصير للعقل والعلم والمعرفة .

وقامت الكهانة أيضا بحرق « العالم برونو » وهو حى ، فى مشهد تتقزز منه نفس الشيطان ذاته حين قام يقرر نظرية خلود المادة . ولكن الأيدى القذرة التى لوثت بأفظع جريمة يرتكبها وحش

فضلا عن إنسان . تقطعت وذهبت فى تراب الأرض بدداً .. بينما تظفر نظرية « المادة » فى مطلع شمس كل يوم بما يزيدها رسوخا وصدقا واتساعا .

أى الفريقين إذن خير مقاما وأبقى ذكراً وأكثر نفعا ؟

- الكهانة تتوسل بالمسجد والمنبر لتقويض المجتمع :

إن الكهانة تحارب العقل لأنه يرى الناس عوراتها ، ويبدى لهم سوءاتها ، ويعمل جاداً لفض سوقها ... هى تخشاه لأنها لا تصبر على بحث ولا تصمد أمام نقد . أما الدين الصحيح فيعلم ان العقل صديقه الوحيد الذى يهيء له النفوس ويمكن له فى القلوب .

ولقد أصبح من أهم واجبات المجتمع المصرى أن يميز بين الاثنين ... بين الكهانة والدين ، فينقى عن نفسه وعن الأجيال ويلها وجهلها وضلالها . فلقد كنا ولا نزال كلما حاول المجتمع أن يخطو إلى الأمام خطوة نبصر بالكهنة يثيرون فى طريقه النفع الكثيف ، ويحفرون له الخنادق كى يتردى فيها .. متخذين من الدين مسوحا يلبسونها وألسنة يتفيهقون بها . ولقد نبأنا الرسول بهم ، وحذرنا منهم من قديم الزمن ورسم لنا بعض ملامحهم فقال . « هم من جلدتكم يتكلمون بلغتكم ، ويصلون صلاتكم ، تعرف منهم وتنكر » .

وهذه الكهانة تستغل انصراف رجال الدين عن واجبهم فى نشر الحقائق الدينية الباعثة ، وتذهب هى تبشر بأفكارها المدبرة عاملة على تعويق النهضة فى المجتمع .. فمثلا ، يوم نادى قاسم امين بتعليم المرأة المسلمة ، وتحريرها من قيودها المزرية ، وإسارها الظالم ..

تصايحت الكهانة ونادى بعضها بعضاً . وخرجت جرذانها من الجحور تسعى . . لتقرض الكتاب الذى دعم مؤلفه كافة قضاياه بنصوص قرآنية ونبوية . . وراح الكهنة السذج يبذلون جهدهم لإطفاء هذه الشمعة . وذهب إليه بعض الذين سمت أخلاقهم حتى بلغت فى رفعتها الأرض السابعة . . يطلبون منه أن يعرض عليهم زوجه ليستمتعوا بعذب حديثها ، وإشراقة وجهها . . ! ! وأمطرت سماء الكهانة كأفواه القرب من الأحاديث المكذوبة الموضوعة التى تدخرها لمثل هذه المواقف . واستجاب لها جيش الجماهير الغافلة الذين قال فيهم حافظ :

رأوا فى قبور الميتين حياتهم فقاموا إلى تلك القبور وطوفوا

ولكن الأفكار أقوى من الجيوش — كما يقولون — ولقد أحرزت أفكار المصلح العظيم « قاسم أمين » نصراً باهراً لم يكن فى حساب أحد .

ونستطيع أن نحمل هذه الكهانة وزر تأخر الشعب وجهله ، وما فى كثرته الساحقة من بلادة وكسل وفتور . . وذلك بما تبثره به من تعاليم فاسدة . . تزعم أنها دين ، أو أنها من الدين .

بل نستطيع فى غير تهيب أن نتهمها بأنها تعمل على أن تنقسم الأمة على ذاتها ، وتصبح ذات موازين نفسية متباينة متعارضة . . وأقرب دليل على ما أقول هو تفكير القرية المصرية وإحساسها . ففى أربعة آلاف قرية تلتقى بملايين من المواطنين الذين يعتقدون أن المدن المصرية وسكانها هى سبب كل بلاء ينزل بالبلاد ، وسبب كل آفة زراعية وغير زراعية ، وأن سكان المدن ولاسيما « القاهرة » و« الإسكندرية » قوم يستحقون طوفان نوح ، أو صيحة ثمود . .

وكثيراً ما تسمع هذه العبارات التقليدية : « الله يقطع اللى فيها . . ما عدا الصالحين » يعنون القاهرة طبعاً . . كما تسمع « لولا أهل البيت . . ما بقى فيها بيت . . » والضمير هنا راجع إلى عاصمة الدولة أيضا . . ! فإذا ما حاولنا معرفة السبب فى هذا الحقد المشبوب لم نجده فى غير الخطب المنبرية التى احتوتها « دواوين » مزمنة . . تجشأتها جماجم كهنة غابرين ، حيث يقف خطباء المساجد فى القرى وأكثرهم طبعاً من الأميين ، فيجترون الخرافات ، ويخبرون ضحاياهم عن « سوء الحال ، وفساد النساء والرجال ، وعما فى المدن من سفور وفجور وكفور وضلال . . . . . » .

وبهذه الطريقة يتكون فى القرية على مر الأيام إحساس عام لا يدين بالتسامح فضلا عن التفاعل مع المدينة ، بل إن المدينة نفسها تنقسم على ذاتها فى مشاعرها وتفكيرها . فالجمهرة الكاثرة من أهلها الذين توجه تفكيرهم مؤثرات كهنوتية ، يحسون أنهم غرباء ، أو كالغرباء فى المجتمع ، وذلك بسبب ما يسمعونه من السدنة الذين يدسون أنوفهم فى كل شىء ، ويقدمون للناس ثقافة مهلهلة مغلوطة باسم الدين تحول دون الفرد ومجتمعه ، كما تحول بينه وبين الحياة . .

ولقد آن الأوان لرسم سياسة المسجد ، وتنظيم رسالته وتهذيب وسائله . فالكنائس فى الغرب تعمل مع المجتمع لا ضده ، وتمجد الرقى لا تلعنه ، وتدعو إلى الحيـــاة لا الموت . وتتطور مع العلم والزمن ، وتقدم للفرد — دائما — كل حاجته الروحية التى تمكنه من السير مع مجتمعه لا التخلف عنه والنفور منه . .

ولقد سمعت من استاذ فاضل ثقة زار أمريكا أخيرا — أنه دخل هناك كنائس كثيرة ... رأى فيها جميعاً . وسمع فيها جميعاً أسلوبا واحداً وطريقة عمل واحد كل غايتها أن تربط الفرد بالله وبالمجتمع دون أن تبذر فى نفسه أدنى بغضاء للمجتمع الذى يعيش فيه مهما يكن هذا المجتمع زاخرا بالآثام ..

ولعل السبب فى هذه النهضة الكنيسية هناك ، أن الجيل الداعى إلى الله من القسس ورجال الكنيسة ، جيل جديد مثقف ثقافة واسعة عالية يعرف كيف يستخدم الدين استخداما رقيقاً فى إصلاح الفرد وبناء الامة ! بل إن كبريات الكنائس هناك أصبحت مزودة بعلماء النفس ، وعلماء الاجتماع ، والإخصائين فى مرحلة الطفولة والاخصائين فى دور المراهقة ، فلا تكاد تدخل احدى هذه الكنائس ، حتى ترى حلقات منثورة هنا وهناك : هؤلاء أطفال ومعهم رائد يناجيهم ويناجونه . ويرصد ميولهم وانفعالاتهم ، ويقدم لهم الوانا بهيجة من الثقافة الخفيفة التى تلائم عقولهم ..

وهؤلاء شبان مراهقون يجلسون إلى عالم نفسانى ، لاصلة له بالدين ولا بالوعظ ، ومهمته فقط ان يروض للغرائز المتوثبة المشبوهة ، ويعاون هؤلاء الشبان على حل مشاكلهم الجنسية والنفسية وتنظيم سلوكهم العام .. وهكذا تقوم الكنيسة بدورها فى الخدمة الاجتماعية التى هى فى نظرها جزء من صميم رسالتها .. بل لعله اهم جزء فى هذه الرسالة !

أما المنابر عندنا فإنها تقوم بدور سلبى هدام .. وتسعة اعشار خطبائها لم يعرفوا بعد ، الرسالة التى يجب ان يعملوا لها .. فتراهم

يعالجون الفقر بالفقر ، ويمحون الخبيث بالخبيث ، ويدعون الناس إلى التشاؤم من المجتمع ، ويحرضونهم عليه لأنه فى نظرهم مجتمع مارق فاجر لايستحق التوقير والاحترام .

وهم يزكون افكارهم المدبرة احاديث مصنوعة ، كتلك التى كان يسمعها ابن عباس رضى الله عنه من الكهنة المعاصرين له . فيثور ويقول دامغا إياهم بوصمة الكذب والجهل : « كلما لعق احدهم من الإسلام لعقة ، ذهب يقول : حدثنى رسول الله ... ووالله ماحدثه رسول الله بشىء ، ولا هو حدث من يفقهون حديثا . ! »

وكثيرا ماتذهب الجراءة ببعضهم مذهبا يؤسف ويضحك . فتراه على المنبر يعالج موضوعا اقتصاديا او سياسيا او اجتماعيا ، يعجز كل العجز عن فهمه ، بل عن تصوره فضلا عن نقده ومناقشته كما ينكرون فى عنف كل تقدم وتطور لم يألفوه من قبل مهما يكن شكليا . بسيطا . ولا أزال أذكر ذلك الشيخ الوقور الذى وقف فوق منبره يوم جمعة غضبان اسفا هائجا كالثور ، لأن رجال الجيش قد استبدلوا القبعة بالطربوش ... ولا ازال اذكر واحفظ مطلع خطبته العصماء ..! الحمد لله الذى امرنا ان نأخذ من الشيطان كل حذر وحيطة . . . ومن اجل ذلك حرم علينا لبس « البرنيطة ! » الا ليت هؤلاء السادة يستمعون إلى قصة « ابلس » ويعتبرون بها . فلقد كان « ابلس » المصور إذا صور صورة عرضها حيث تراها المارة من الناس ، ثم يختبىء خلفها ليسمع آراء الناس فيها . وفى يوم وضع صورة واختبأ وراءها فمر بها « إسكاف » وتأملها ثم قال « ان سير الحذاء اوطأ مما يلزم » فسمع « ابلس » نقده ، واصلح

السير . وفى اليوم التالى مر بها « الإسكاف » فرأى سير الحذاء قد أصلح ، فأخذته الجرأة ، وراح ينتقد الساق . . ! فبرز له « أبلس » من مكمنه وقال له :

ـ مكانك يا عزيزى . . إن نقد الاسكاف يجب ألا يجاوز الحذاء . . . !

وهذا بالضبط ما نود أن نقوله اليوم للكهنة . .

نريد أن نقول لهم : إن نقدكم ، وتوجيهكم يجب ألا يجاوزا حدود خبرتكم الضيقة ، وإدراكيكم القاصر ، ومعرفتكم الفجة . . وإلا صرتم لعنة لا تطلق . .

الفرق بين الدين والكهانة :

أعتقد أن الفرق بين الدين والكهانة قد علن وخصص من خلال السطور السالفة ، ولكننا فى هذه الحلقة الأخيرة من هذا الفصل ، نريد أن نجمع تلك الفوارق ونركزها فى سطور . .

وأول هذه الفروق ـ أن الدين إنسانى بطبعه وشرعته . أما الكهانة فانانية بغريزتها . . تتبدى لنا إنسانية الدين فى دعوته الحارة إلى تكريم بنى آدم ، وتسخير السموات وما فيها والأرض بما فيها لذلك الانسان الذى هو أثمن درة فى تاج العلى الكبير . . وتتبدى لنا أنانية الكهانة فى فلسفتها الخاطئة التى استهلت بها حياتها الجافة اليابسة . . تلك الفلسفة التى ادعت بها وزعمت أن الأرض ملك للالهة الذين يرقدون داخل الهيكل . وأن الآلهة قد منحوها لطبقة من الناس يستغلونها لأنفسهم كما يشاءون . . وإنه لمن الحقائق التاريخية

المعلومة ، ان الكهنة هم اول من خلق طبقة « رقيق الأرض » ، واستاقوا الجماهير الكادحة لحسابهم وحساب الاقطاعيين ، وظلوا لها مسترقين ومستعبدين حتى جاءت الأديان برسالة التحرير والخلاص وصاح موسى عليه السلام فى وجوه الكهنة المصريين : « أدوا إلى عباد الله ، إنى لكم رسول أمين » . ومعنى الاية الكريمة واضح ، وتصويرها للعبودية القاسية التى كان الانسان يرسف فى أصفادها، يأخذ بالألباب . . فهو يقول للكهنة والفراعين : أدوا إلى عباد الله أى ادفعوا الى ، وسلمونى . وأطلقوا سراح هذه السلع البشرية المحتكرة . . . هذه السلع الادمية المحنوسة التى طال على رقها الامد، وتكاءدها اللغوب . وبهظها الحرمان . !

ومن قبل موسى ومن بعده ، كانت رسل الله تترى . . صائحة نفس الصيحة مبشرة بذات المبدأ ، معلنة حقوق الانسان .

وثانى هذه الفروق — أن الدين « ديمقراطى » النزعة ، وهو كما يجب أن يفهم ، لا يعترف بالفوارق المفتعلة التى تجعل بين أبناء الأسرة الانسانية الواحدة ، قطعاناً وذئابا ، وعبيداً وأرباباً ، وما توحيد الاله ، وجعل الأمر كله له ، والسلطان كله ، والكبرياء كلها . له دون سواه ، إلا هتاف علوى مقدس يشيع فى الانسانية الأمن والايناس . ويذيب فى حرارة أنفاسه كل ما فى ضعفنا من خوف وتهيب وانكسار ، وكل ما فى قوتنا من عتو وتجبر واستكبار حتى تلتقى الانسانية كلها على الحرية والاخاء والمساواة .

أما الكهانة فانها لا تؤمن بالديمقراطية ، حتى ولا أضعف الايمان . . !

لقد تعود الكهنة أن ينحنى لهم الناس ، ويخروا على أيديهم سجداً ثم يشبعوها لثما وتقبيلا . . وكذلك تعودوا أن يأمروا فيطاعوا لأنهم أبناء السماء ، أو أبناء الهيكل . . والويل لمن يقول لشيخه أو لكاهنه : لم . ؟ وهم حريصون على هذا التراث الموروث بل هم مدفوعون إلى الحرص عليه دفعاً بحكم غرائزهم الجامحة فى غوايتها ، المتوغلة فى غيها . . وإنا لندرك ما بين الدين والكهانة من بون شاسع وأمد بعيد فى فهم الديمقراطية والايمان بها ، من هذه المقابلة العابرة بين أسلوبيهما فى مخاطبة البشر .

فالدين يناديهم : يا أيها الناس . ويخاطبهم الحق جل جلاله : يا عبادى . .

أما الكهانة ممثلة فى « خلافة دينية وحكومية دينية » فإنها تكتب قديماً لوالى مصر قائلة : بلغوا عبيد بابنا العالى . . !

والفرق الثالث — يتجلى فى إيمان الدين بالعقل وكفر الكهانة به كفراً بواحا .

إن الدين يكرم العقل ، ويجعله مناط المؤاخذة والجزاء ، ومعنى هذا بداهة ، أنه يعطيه كل الحرية فى البحث والمناقشة كما يشاء .

ولقد أدرك هذه الحقيقة أعلام الفقه الاسلامى الخافقة . . أبو حنيفة والشافعى ومالك وأحمد وسواهم . فجعلوا من الرأى ، ومن حكم العقل تشريعاً ومنهاجاً . . حتى لقد سميت مدرسة أبى حنيفة رضى الله عنه « أهل الرأى » . وألفينا الامام الشافعى يغير مذهبه القديم ويبتكر حين قدم القاهرة مذهباً حديثا . . . حتى إذا سئل

عن سر ذلك ، أجاب بأنه رأى شيئا لم يكن يراه ، وسمع قولا لم يكن يسمعه .

وكذلك رأينا « مدرسة مالك » تبتكر قاعدة « المصالح المرسلة » ومدرسة أحمد بن حنبل ، تنادى بمبدأ « اعتبار المصلحة » وتقدم المصلحة على النصوص الدينية . . وكل ذلك يدل على مدى إجلال العقل واحترامه ، والتسليم له بحقوقه .

اما الكهانة فهى — كما قرأنا للعلامة « ولز » من قبل — لا تسمع للعقل ان يفتات ويتغذى إلا بما تقدمه هى له من فتات وعفونات ! وهى تحارب البحث والتأمل والبرهان ، وتقيم مكانها الأوهام والمخاوف التى تحاول ان تتعبد بها العقل الانسانى وتستكرهه .

وإنا لنذكر ، فنضحك ، انه بينما كان العقل « يذيع انباء انتصاره الباهر فى اكتشاف كرية الأرض وحركتها » كان سدنة الكهانة المسيحية يزفون إلى الدنيا نبوءاتهم الطافحة بالكذب عن قرب فناء العالم وقيام الساعة — ليشغلوا الناس بذلك عن كشوف العلم وفوز العقل . حتى لقد حدد بعض أولئك الكهنة اليوم والساعة التى ستقع فيها الواقعة ، كما زعم من قبلهم بعض رجال الكهانة الإنجليز فى القرن السابع عشر : « أن الثالوث خلق الإنسان فى يوم ٢٤ أكتوبر عام ٤٠٠٤ ق . م فى تمام الساعة التاسعة صباحا !! » .

إن الدين الحق ليعلم أن العقل هو رئته التى يتنفس بها . لذلك نجد القرآن الكريم يحض الناس فى مئات الآيات على استعمال هذه الرئة استعمالا دائبا ، وعلى التنفس بها تنفسا عميقا حتى ينفرد آخرها وينتعش أقصاها .. وما هذه الأنفاس التى يحرضنا الدين على تنشقها

إلا النظر العميق ، والتأمل الهادىء ، والتفكر المستغرق فى كون الله الخصيب الرحيب . وما هذه الآيات الكريمة : أفلا تتفكرون ... أفلا تعقلون .. سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق .. أعظكم بواحدة — أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا .. إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وقول محمد عليه السلام : « تفكر واساعة واحدة خير من عبادة سنة ... » — ما هذه التوجيهات جميعاً إلا ترويض للناس على احترام العقل والإيمان به والسير معه والاهتداء بهديه

وقد تؤمن الكهانة بهذا ولكنها تقول : إن المراد بالتفكر هنا منه جئنا وإليه نعود . .. وهذا التأويل الهزيل يضع أيدينا على الفارق الرابع بين الدين والكهانة .

وإذن فالفارق الرابع بينهما — أن الدين يؤمن بالحياة ، ويحبها ، ويراها مكانا جديرا بالحب ، كلها مباهج وكلها أزاهير .. الزهد فيها غباوة ، والفرار من تبعاتها جريمة . أما الكهنة فيجعلونها أبغض الأشياء إلى قلوب الناس ، حتى إذا انصرف الناس عنها ، خلوا هم إليها ، واجتالوا لأنفسهم طيباتها .

والدين يتفاعل مع الحياة والعلم ، ويعلم أن حيويته متوقفة على استمرار التطور فيه بحيث لا يقف والفكر يزحف . ولقد وجدنا كيف أنه كان فى العام الواحد ، وأحيانا فى اليوم الواحد . ينسخ حكما بحكم ، ويقيم مبدأ مكان آخر متعبا فى هذا قانون التطور وهو التغير والانتقال من صالح إلى أصلح « ما ننسخ من آية أو ننسها ، نأت بخير منها أو مثلها » . وخليق بنا ان نعلم أن هذا التطور المستمر ... لم يكن مسايرة لمصالح الناس فحسب ، وإنما كان يعنى تدريب الناس على

مسايرة الحياة فى نقلها ، وإفهامهم أن التزام حال واحد ونظام واحد وطريقة واحدة فى أسلوب حياتهم أمر مستحيل ، حتى ولو كانت هذه الطريقة المتزنة خاصة بالعبادة والدين . . كما حدث مثلا من نسخ قبلة المسلمين الأولى ، واستقبال قبلة أخرى . . بل كما حدث فى تطور الصلاة نفسها . هذا ، بينما الكهانة جامدة لا تتحرك ، ولا تسمح لنفسها ولا للناس بتطور أو نهوض . . فالمجتمع اليوم هو المجتمع منذ آلاف السنين . هكذا يجب أن يكون ، وهكذا يجب أن يظل . . كل رقى بدعة ، وكل تطور ضلالة . !

* * *

ورغم المسافة الهائلة التى تفصل بين الدين والكهانة ، فإن خطورتها على الدين تزعج الغيورين عليه . . إذ هى دائمة الزحف نحوه ، وكثيرا ما تختلط تعاليمها بتعاليمه . . والجماهير لا تتلقى توجيهاتها تلقى البصير الناقد لأنها لا تقدر على ذلك ولا تجد إليه سبيلا .

وهكذا تظل الكهانة تزحف ، وتمتزج بتعاليم الدين وتحتل عقول الناس على أنها الدين الذى يجب أن يذعنوا له ولا يناقشوه ! وهنا ينجم ضرران خطيران :

الأول — استماع الناس لها ، واقتداؤهم بها حيث تسير بهم إلى الهاوية بعد أن تسكرهم بتعاليمها التى ترتجم مما يتعب الكرام . . وحيث يظلون عبيد نصوص ميتة ساحقة كاذبة لم يأت بها من الله وحى ولا كتاب .

الثانى — أنه على مر الزمن ، لا بد من ظهور طبقة مثقفة فى المجتمع تؤمن بالحرية وبالفكر ، وتمتهن الخرافة ، ترى الشعب

وهو يساق إلى الموت والظلام . . فتقف سائلة عن هذا الرائد الخبيث المضلل الذى يسوقه : من هو . ؟ فيقال لها : هو الدين . . والواقع أنها الكهانة الغريبة الدخيلة التى اندمجت فى الدين ، ثم أخذت تنمو فيه ، حتى اكتسبت شخصيته ، واتسمت بسماته وملامحه . عندئذ يصب هؤلاء المثقفون على الدين جام غضبهم ، ويشنون عليه حملات عنيفة ، ويدعون الناس إلى الشك فيه ، والتمرد عليه . . هذا هو الذى حدث فى أوربا والغرب ، وهو الذى نخشى أن يحدث فى الشرق إذا لم نبادر بعزل الكهانة عن الدين ، وتنقيته من شوائبها ، ونقدمه للناس وضيئا متألقاً كيوم نزل من لدن حكيم عليم .

* * *

فلنحسم بوائقها :

وحسم بوائق هذه الكهانة ، وإماطة أذاها ... أمر عارم المشقة ولكن العزيمة الصارمة كفيلة ببلوغه إذا سلكت الطريق الصحيح ، والطريق إلى مكافحتها ، هو نفس الطريق إلى مكافحة كل وباء .

التحصين — العزل — الدعاية

فلا بد من تطعيم الشعب بمصل الحقيقة الدينية الخالصة ليستطيع أن يقاوم كل عدوى غازية ، وذلك بأن نعلمه أن رسالة الدين هى الحياة . . والحياة هى أن تعيش كريماً ، حراً ، سعيداً ، لا أن تعيش مهانا ، عبدا محروما ، فكل دعوة تدعوك إلى الحياة . . والسير فى موكب التطور .. خذها بقوة .. إنها كلمة الله . . وكل باطل يدعوك إلى الجمود ويصرفك عن الحياة ، وعن حقك المقدس فيها ، فانما هو الشيطان يعدك الفقر ، ويريد تقويض الإنسانية

التى صنعها الله على عينه ، وسواها بيديه ، ونفخ فيها من روحه ، فالمصل الواقى ، هو الثقافة النزيهة التى لا تضع نفسها فى خدمة أحد سوى الحقيقة ، فلكن مناهج الدين فى المدارس بحيث تؤدى هذا الغرض ، ولنجنب التلاميذ النصوص التى لا يستطيعون أن يدركوا حقيقة معناها ! والتى قد يوحى ظاهرها بذم الحياة .. أو فقدمها لهم مشروحة شرحا يكشف عن حقيقة أغراضها ، ومتجهاتها ، ويوازن بين معانيها المحتملة مؤكداً المعنى الذى هو حق وهدى .

* * *

دخلت يوما على تلاميذى الذين أدرس لهم . وكانوا حديثى عهد بدرس « جغرافيا » . فسألتهم عرضا : ماذا كان موضوع درسكم اليوم ؟ فأجابوا : كروية الأرض ودورانها . وانتفض من بينهم تلميذ وقال بالحرف الواحد : ده كلام فارغ يا بيه ! نصدقهم والا نصدق ربنا ؟ !

وسألته ، من أين لك أن الله يكذب هذا ؟

فأجاب بأن القرآن وكلام النبى — لم يقولاه! .

— وهل قرأت القرآن وأحاديث النبى وفهمتها ؟

— لا . ولكنى أصلى الجمعة وأسمع ذلك .

ثم قص على أنه من قريب ذهب ليصلى الجمعة ، ووقف الخطيب يقول : لعلكم تقرأون فى الصحف « الكافرة » أن العلماء سيتصلون بالقمر وأن المريخ كوكب عامر بالناس . . هذا كفر ، والقمر ليس لا مصباحا منيرا ، والشمس كذلك ، والأرضون سبع ثابتة

لاتدور . والسموات سبع: الأولى من نحاس، والثانية من رصاص، والثالثة والرابعة .. وانطلق الكاهن يهدم فى عشر دقائق كل ماتبنى المدرسة فى سنوات .! وقلت للتلميذ : يا بنى ذلك رجل جاهل أمى. لايعرف عن الدين ولا عن الدنيا شيئاً ... فخذ العلم من هنا.. من المدرسة التى تتعلم فيها قلت هذا وأنا متردد . فكم من اخطاء تقدمها المدرسة لبنيها ، ولكنى اخترت أخف الضررين وأيسرهما .

وما دمنا بحاجة إلى تقديم ثقافة دينية جديدة بريئة ، فلابد من العمل على خلق جيل جديد من الوعاظ وأئمة المساجد. والأزهريون اليوم على تمام الاستعداد النفسى والذهنى للقيـــام بهذه الرسالة الجديدة وليس على شيوخ الأزهر إلا أن يقدموا لهم برامج حديثة ومناهج علمية سليمة تتفق والوعى الجديد ، وتعين على إنشاء مصر الحديثة والشرق الجديد . فإذا أبى شيوخ الأزهر ذلك ، أو عجزوا عنه . . . كان حقـــا لزاما على الدولة أن تنشىء فى كل جامعة من جامعاتنا العلمية القائمة والتى ستقوم ، كلية للدراسات الدينية تدرس المبادىء الصحيحة التى تهدى إلى حياة دينية ناهضة ، حتى يصير الدين عماداً لقوى التقدم والارتقاء ، ويتخرج منها وعاظ من طراز جديد .. كوعاظ الكنيسة فى أوربا ، ولا بد من الإهابة بالعلماء الراشدين كى يعرضوا كل قضايا الدين من جديد عرضاً وافيا خالقاً . وإذا كنا نقدر خطر تعاليم الكهانة على حياتنا ، ونؤمن بأن الأفكار أقوى من الجيوش ، فإن الدولة ستهتم لا محالة إذا شاركتنا هذا الإيمان، بالقضاء على الكهانة ومكافحتها ، فتؤلف بجمع العلماء ، ليقوم بالمهمة التى ذكرناها : وهى عرض التعاليم

الدينية صحيحة عرضاً جديداً، ويؤلف الكتب فى ذلك ويشترك فيه علماء الدين واسعوا الأفق مع صفوة تختار من رجال الفكر والأدب والاجتماع .

* * *

لقد أخرجت وزارة الأوقاف منذ أعوام كتاب الفقه على المذاهب الأربعة . وملأ هذا الكتاب قرى مصر ومدنها ، وتجد الناس هناك يرونه المرجع الأول بعد كتاب وأحاديث الرسول . وتعليل ذلك واضح ، فهذا الكتاب « ميرى » والذين أشرفوا على تأليفه وإخراجه علماء من أصحاب المركز والصيت ، يتوج هذا أن إحدى وزارات الحكومة هى التى أخرجته ، وهى حيثيات كافية لأن تجعله فى أعين جماهير المتدينين شيئاً ذا قيمة نفيسة — فإذا ما وجد مثل هذا المجمع الذى أشرنا اليه ، وقام بالمهمة التى نرجوها ، فإن الفائدة التى سنجنيها أعظم من أن تتصور . قد يقال : إن بعض المفكرين الأحرار من رجال الدين يقومون بهذا الجهد .. وهو قول صحيح — بيد أن العمل الفردى لا نصاحبه قوة التأثير التى تصاحب عملا جماعياً ذا طابع مهيب مقنع كالذى أشرنا اليه — بدليل ما نرى من إعراض جمهور القراء عن بعض تلك المؤلفات الحرة بل اضطهادها ، استجابة لنداء الكهانة التى توهمه بأنها مؤلفات بدعة وإلحاد !

مواكب الجمعة :

ومواكب الجمعة شديدة التأثير ، فياضة الإلهام فى نفوس المصلين . وكثيراً ما تترك خطب المنابر فى تفكير الناس أخاديد عميقة . وليس فى مكنتنا أن نضع فى كل مسجد خطيباً يؤتمن على دين الله ، وعلى

عقول البشر .. أعنى أننا لن نجد لكل منبر رجلا ذا فهم واسع وإدراك رشيد ، يحسن اختيار أفكاره وعرضها ، دون أن يعمد إلى الدواوين المترعة بالجهالات .. وإذن فالحل الحاسم الذى ننصح باتخاذه فوراً ، والذى يؤيدنا الدين فيه كل التأييد ، لأنه يحقق حكمة مشروعية الجمعة : هو حصر صلاة الجمعة فى المساجد الكبيرة فى كل حى ، بأن نختار منها عدداً يتسع لأهل الحى وسكانه ، ونعهد بمنابرها إلى وعاظ مجددين نختارهم على علم . وبهذا نثق من أن الثقافة التى يوجه بها الشعب كل أسبوع ثقافة تنبض بالحياة والقوة وفى الوقت نفسه نكون قد حققنا الحكمة المقصودة من الجمعة ، وهى حشد المجموعات الكبيرة فى مساجد محدودة مادام لا يمكن تجميع هذه المجموعات فى مسجد واحد . وحتى هؤلاء الوعاظ المجددين على قلتهم ننصح بأن تقام لهم دراسات خاصة لتوجيههم توجيها سديداً .

أما مساجد القرى التى يعلو منابرها أميون لا يفقهون ، ويجرعون الملايين كل صنوف السموم وألوانها — فالحل العملى بالنسبة لهم ، هو تأليف لجنة ذات ثقافة دينية نظيفة ، تضع لهم الخطب أولا بأول ، وتمدهم كل شهر بمنهج جديد ليتيسر لها أن تعالج فى هذه الخطب المشاكل المستحدثة ، والموضوعات الطارئة ، فتنسخ بذلك خرافات الكهانة ، وتحكم آيات الله وآيات الحضارة .

ولا يهمنا أن يقوم بهذا العمل وزارة الشئون ، أو الأوقاف ، أو الأزهر ، وإنما يعنينا فقط أن تتم هذه الخطوة سريعاً ، وأن يراقب الله والوطن من سيوكل إليهم تنفيذها ، فيقدموا للشعب المصفد ثقافة دينية رشيدة تضع عنه إصره وأغلاله ، وتنقذ القرى من دواوين الخطب المنبرية التى تكفى ورقة واحدة منها لابادة شعب بأسره !!

وبعد — أترانى نسيت الكنيسة ؟

لا .. وكل هـذه المقترحات التى أعود إلى تنفيـذها بالنسبة للمسجد ، لا بد من أن تنتظم الكنيسة أيضا — فيؤلف من بين رجالها الراشدين من يشرفون على توجيه رسالتها توجيها يخلق الشعب الذى يحيا بالدين ولا يموت.

ولكى تثمر هذه الخطة ثمرتها فلا بد من الدعاية الواسعة النطاق عن طريق الاذاعة والمسرح الشعبى ، وإقامة مسابقات أدبية ذات جوائز مغرية للمؤلفين الذين يصوغون تعاليم الدين صياغة تنزع بالناس إلى تمجيد الدين وتمجيد الحياة .

هذا .. إذا كنا نريد أن نحيا ، وإذا كنا جادين فى الغيرة على ديننا ، واذا كان يسعدنا ويرضينا أن نرى الشعب قويا ناهضا متمتعا بما منحه الله من حقوق الانسان .

• • •

وقد يرى بعض المتشائمين فيما نرجو ، خيالا .. مع أنها حقائق مستطاعة .. ويستطيع الانسان الآلى .. الذى اخترع أخيراً .. أن يقوم بها جميعاً — إذ عجزت المخلوقات الأصلية عن إنفاذها ..

وقد تعوق الكهانة هذه الأفكار والمقترحات ، وتشق عليهـا هجوماً طويلا . . وذلك بأن تهـون من شأنها لتنصرف عنها ، أو تزعم للناس أنها إلحاد وضلال ، يريدان هدم الدين وتهشيم المقدسات . . لكنى مؤمن أن كل هذه الأفكار ستنفذ يوما ما . الآن . . أو غداً . . وكل إرجاء لها ، فإنما هو ارجاء لمشرق نهضة نافعة .

وقد بلغت . وما على الناصحين إلا البلاغ .

الخبز هو السلام ..

« إن الفقر ليتحدى كل فضيلة وسلام .
لأنه يورث صاحبه درجة من الانحطاط والتدمر
تكتسح أمامها كل شيء .. ولا يبقي قائماً غير
هذا المبدأ : كن .. أو لا تكن .. ! »
[توماس بين]

أوزار الحرب

الخبز.. والزبد:

بعد أن وضعت الحرب الأخيرة أوزارها، لم يتح لرؤساء الدول المنتصرة أن ينعموا بإعجاب شعوبهم طويلا... ولم تكن هتافات التكريم تنبعث من حناجر الملايين خالصة.. بل كانت تختلط بها أصداء مولولة لم تلبث حتى أجلت هتافات الإعجاب عن الحناجر والشفاه؛ وانبعثت هي مدوية راجفة: نريد الزبد! نريد الطعام!

والزبد — كلمة أجنبية..! يقابلها عندنا: الخبز! وكالسهام المقذوفة انطلقت كل حكومة هناك لتوفر الزبد، وتوفر الطعام.. مادام صاحب الكلمة العليا «الشعب» يريد الزبد ويريد الطعام..! وسارت حياة الناس سيراً مسعداً، واستقبلوا أياما جميلة، لا يمر منها يوم إلا والذي بعده خير منه.

ولكن كيف جاءهم هذا الرخاء؟

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»، ولا بد أن يكون هذا هو الذي حدث.. وإن السياسة التي سلكتها حكومة العمال بانجلترا لتشهد بذلك. فلقد ورثت من المحافظين مجتمعاً تشيع فيه البطالة والفوضى، وتتبعت أسباب ذلك فوجدتها تكمن في «الرأسمالية الفردية» التي تسخر كل إمكانيات المجتمع لمطامعها! ولم تفكر حكومة العمال طويلا، وقررت فوراً الانتقال بالمجتمع الانجليزي — لأول مرة في تاريخه — من اليمين المتطرف إلى اليسار المعتدل أي من الرأسمالية الكنود الجشعة إلى الاشتراكية المعتدلة المتسامحة

ولم نعد نسمع صيحات الجوع التى أزعجت بريطانيا العالم بها عقيب النصر ، كما لم نعد نقرأ عن مهاجمة الشعب للعمارات ومصالح الحكومة واحتلالها لينام فيها ويسكنها ، لأن النظام الاشتراكى الذى طبقت بعض مبادئه استطاع أن يجد للجائعين زبداً ، والمتشردين مأوى .

وما كان يسعها أن تصنع غير الذى صنعت ، فالحكومة التى لا تطعم شعبها لا تكون حكومة .

ولقد قامت أمريكا بإرسال فيض من الإعانات للدول التى تعجز مواردها عن سد حاجاتها . . فلماذا ؟ إنها ليست عاطفة الرحمة ولا الوازع الإنسانى . بل لأن أمريكا تعلم أن صيانة السلام فى تلك البلاد صيانة لها ، وهذا السلام لا يوجد إلا إذا طعمت الشعوب وشبعت واستمتعت بأكثر فرص الحياة .

ولذلك غلت يدها وعونها عن الأمم التى تعيش فى ظلال حكومات إقطاعية . . حتى تغير ما بنفسها ، لتضمن الفائدة التى ترجوها من وراء إعارتها المبذولة ، وهى السلام .

ونحن منذ وضعت الحرب أوزارها ، بل وقبل أن تعلن . . ننادى ونصيح : نريد خبزا . . وطعاما . . وكلما اتجهنا إلى السماء نشكو إليها بثنا وحزننا ، قذفتنا بهذه الآية الزاجرة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ! ثم نرجع إلى أنفسنا ، ونديم أعيننا فيها فنرانا جد خاطئين .

ولا نستطيع أن ننكر أننا نسير إلى الأمام ، وأننا نتقدم ،

ولكن عيبنا المؤلم أننا نحبو حبو السلحفاة فى عالم يقطع الحياة قفزاً ووثباً ، وأننا نجبن عن الانتفاع بالفرص الكبيرة التى جربتها أمم عظمى فجنت منها أطايب الثمار ، وأننا نأتى البيوت من ظهورها لا من أبوابها .

وإن أخش غلطة نقترفها خلال سعينا للسلام ، هى التماسنا له ، وبحثنا عنه فى الخارج لا فى الداخل ، فنظن أن المعاهدات ودورانها فى فلك دول أكبر ، أو منظمات أقوى .. سيملأن بلادنا سلاماً وأمناً مع أن تجاربنا الأكيدة بالنسبة للمعاهدات وللمنظمات تجعلنا أول اليائسين منها ، المستريبين فى فائدتها وجدواها . ولعل الدروس الأخيرة ، والغزيرة ، التى تعلمناها من معاهدة ١٩٣٦ ومن منظمة هيئة الأمم ومجلس الأمن خلال نظر قضيتنا الوطنية ، وقضية فلسطين الشهيدة . . كفيلة بأن تلهمنا رشدنا ، وتهدينا سواء السبيل .

لقد قام مجلس الأمن بمهمة « المحلل » حين عرضنا عليه قضيتنا ، وأثبت أن الدول الكبرى قد اصطنعته لهذا الغرض . . ليكون « محللا شهماً » .. يضفى على الصفقات المسلوبة والحقوق المنهوبة صفة الإباحة والحل . وبذلك تستطيع تلك الدول الكبيرة التى أصبحت تخجل من السرقة بإكراه .. أن تسرق بقانون .. ! وكان موقفه فى قضية فلسطين واضح الدلالة على إمنيته وتبعيته .. إذ وقف مندوب بريطانيا يوما يعلن أن الحالة فى فلسطين غير مهددة للسلم وقالت أغلبية الأعضاء : نعم . . . وبعد أسبوع واحد . . وقف المندوب البريطانى نفسه يعلن أن الحالة فى فلسطين مهددة للأمن . وقالت نفس الأغلبية الرشيدة : نعم . . مع أنه لم يكن حدث أية

مضاعفات تستدعى من حضراتهم هذه الموافقة — غير أن بريطانيا أرادت ، فلم يسع « المحلل الشهم » إلا أن يحقق ما تريد !

على أننا لا نضائل من قيمة المعاهدات ، والمنظمات الدولية بصورة عامة ، فقد يكون فيهما خير للذين يقدرون على اهتبال الفرص . . لكنه ينبغى ألا يعزب عنا — حتى ولو كانت فائدة المعاهدات والمنظمات محققة بالنسبة لنا — أن سلام الأمم ينبع أولا وقبل كل شىء من داخلها . . من حاجاتها الملباة . ورغباتها المحققة ونفسيتها المستقرة . . فإذا كنا حريصين على إقرار الأمن والسلام فى بلادنا فلنبدأ من هنا .

* * *

نذير رشيد . . !

وليس هذا الذى نقوله ونزعجه ، شيئاً جديداً ، بل هو إحدى الحقائق الكبرى التى انتهت اليها التجربة الإنسانية من العصور الأولى ثم بلغت اليوم ذروة الواقعية واليقين ، وإنا لنتسمع أصداء المعركة القائمة فى الغرب بين رجال الاقتصاد والاجتماع من جانب ورجال السياسة من جانب آخر ، إذ يتهم الأولون الآخرين بأنهم ألد أعداء السلام ، لأنهم بدل أن يملأوا بطون الناس بالطعام ذهبوا يملأون بطون المصانع باليورانيوم والبارود .

ولقد وقف عالم عظيم يؤكد أن لا ســـلام مع الجوع . وأن الطريق الأوحد المفضى إلى سلام جميل هو الرخاء ، ذلكم هو العالم الزراعى الإنجليزى (سير جون لويد أور) الذى رأس مؤتمر منظمة الشعوب المتحدة للغذاء والزراعة فى أبريل سنة ١٩٤٨ بوشنطن ،

وقف فى هذا المؤتمر مبشراً العالم بمصيره الأسود الذى تسوقه إليه الأنانية المفرطة فقال : « إذا وجد الخبز وجد السلام ، فهما معنى واحد . أما العوز والحرب فهما رفيقان لا ينفصلان ابداً . وليس أمام العالم اليوم إلا الاختيار بين أحد الأمرين : فاما المدفع ، وإما الزبد . . وإذا لم يختاروا الزبد ، فسيواجه العالم الخراب . حتى لو لم تكن هناك حروب ! » .

« إن الجوع وارتفاع اسعار الطعام ، يقودان دائماً إلى الثورات الاجتماعية . ونحن نذكر ان عجز المحاصيل فى فرنسا عام ١٨٤٠ ، فى تلك الفترة التى سميت (المسبغة الأربعينية) كانت نتيجة ارتفاع اسعار الغذاء وندوة الحصول عليه ، ولا سيما الخبز . وكان الشعب فى شمالى انجلترا يهزج ويصيح : استلوا خناجركم ، واعدوا مدافعكم فاما الرغيف وإما الدماء . . وإما الحياة وإما الفناء » .

هذا رجل مسئول مفكر يصرح بأن الجوع يقود دائماً إلى الفوضى والاضطراب والثورات . . وان الخبز هو السلام ، وهو الاستقرار وهو النظام .

وإنها لكلمات جليلة ، نضعها امام اعين الذين يريدون لشعوبنا القلقلة المتحفزة — امناً وسلاما .

إن مجتمعنا المصرى ، ومثله سائر المجتمعات العربية ، تجتاز اليوم دور المراهقة العنيف ، وتعتمل فيها جميعاً كرامن الكبت والحرمان : ولقد هبطت طاقة شعوبها ، فهبطت معها الحواجز النفسية واصبحت نهب الأحاسيس المتدفقة المروعة ، وإنا لنجد التذمر على كل لسان ووجه . . وليس من الإنصاف ، ولا من الممكن ، ان نحظر على

الناس أن يتذمروا . . ولقد كان (كونفشيوش) يقرر حقيقة خالدة حين قال : (إنه لأشق على الإنسان أن يكون فقيرا دون تذمر ، من أن يكون غنيا دون غطرسة) .

وإذن فما دام فى جانب من المجتمع ثراء متغطرس ، فلا بد أن يكون فى الجانب الآخر فقر متذمر . !

وهذا التذمر النامى المتراكم ، من أخطر الأشياء على حياة الأمة ولا يمكن أن يستهين بعاقبته أو يسكت عن علاجه حاكم له بصر بالأمور . وغير مجد أن نقلم فروع الشجرة الخبيثة دون أن نجتث جذورها الضاربة المتوغلة ، وأعنى بالشجره الخبيثة ، تلك العوامل التى ملأت المجتمع حقداً وتذمراً وضجراً .. وإن المسئولية الكاملة لتجسم على كاهل (الرجعية الاقتصادية) التى تمتص الحياة من الشعب وتعرقل كل اتجاه نحو اشتراكية يانعة .

هذه الرجعية هى التى توقد نار الحرب بين الأمة الواحدة لتمزقها وتحرقها .. وهى لا تملأ بالحقد الاجتماعى ، قلوب المحرومين وحدهم . . بل إنها لتثير كل مواطن له قلب وضمير مهما استمتع بلبان العيش ، ورفاهية الحياة — لأن نهمها ، وكنازتها ، وسيطرتها الشاملة على مصادر الأرزاق ، وينابيع الحياة ، تجعلنا نشعر بأننا غرباء فى بلادنا ، وأن الملايين من أبناء الأمة قد حكم عليهم بالإعدام جوعا ، من أجل أن تتخم قلة عاطلة . . . ولكى يتأكد لدينا أن التذمر الناشىء عن الفوضى الاقتصادية قد شمل المجتمع بأسره ، فلنقرأ ما سطره كاتب مصرى ، لا يمكن أن يكون الحرمان باعث تذمره وضجره . . ذلكم هو الأستاذ إحسان عبد القدوس

الذى كتب فى العدد (١٠٣٥) من مجلة (روز اليوسف) يقول :

(نظرة واحدة إلى ميزانية الدولة المصرية تكفى لتحريضك على اعتناق الشيوعية ، أو على الأقل تقنعك بأن الشيوعية على حق ، وبأن الثائرين على نظام الطبقات فى مصر ليسوا مجرد حاقدين . . وإنما هم علماء فى علم الأرقام ، فأرقام الميزانية تسجل أن قيمة الضرائب المفروضة على أصحاب الأراضى الزراعية تبلغ ٤٫٧٠٠٫٠٠٠ جنيه فى حين أن ميزانية مصلحة الرى التى تقوم على خدمة هذه الأراضى وتنظيم ريها تبلغ ٦٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه ، أى أن مصر تتبرع سنوياً للسادة أصحاب الأملاك بمبلغ ١٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه .

(. . . وهذا المبلغ الضخم الذى تتبرع به مصر سنوياً للسادة الكرام ، أصحاب التفاتيش والعزب والأطيان ، يشترك فى دفعة الشعب ، لأنه يدفع من حصيلة الضريبة غير المباشرة ، الضريبة على الدخان ، وعلى الأقمشة ، وعلى الأطعمة ، وعلى كل ضرورات الحياة فكل سيجارة يدخنها أى صعلوك من صعاليك مصر يعطى منها دون أن يدرى نفساً أو نفسين للبدراوى باشا عاشور ، وكل ثوب يكسو أى عامل من عمال مصر يتقاضى عليه عبود باشا ضريبة خاصة يزيد بها زراعته ازدهاراً ، ويزيد بها تفاتيشه طولا وعرضاً . . ونظرة أخرى إلى الميزانية (لا يزال الأستاذ إحسان هو الذى يتكلم) ترينا أن قيمة عوائد الأملاك المبينة تبلغ ٩١٢٫٠٠٠ جنيه ، فى حين أن ميزانية مصلحة التنظيم التى تشرف على تجميل هذه المبانى تبلغ ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، والفرق تدفعه مصر من الضريبة غير المباشرة أيضاً . . وفى كل نظرة تقع عيناك

على رقم يصرخ فى وجهك بان الثورة على النظام الاقتصادى حق ويؤكد لك اننا نعيش فى بلد يصرف فيه الفقير على الغنى ، وتبنى فيه الثروات بالظلم الرسمى والجهل الحكومى . . »

* * *

وأود أن تلاحظ مرة اخرى ، ان الاستاذ إحسان ، صاحب هذه الكلمة السالفة ، ليس روسيا ، وإنما هو مواطن مصرى حريص على أمانته المواطنية ، فأتم بواجباتها .. كما أنه ليس محروما يائسا حتى يكون الحرمان هو الذى استورى زناد غيظه وتذمرة ،

وصحيح إن إقرار الضريبة التصاعدية جدير بأن يبعث فى نفوسنا شيئا من التفاؤل والرضاء .. ولكنها لن تغنينا عن الخطوة الحاسمة التى يجب أن نخطوها والتى سنعرض لها بعد قليل .

* * *

المجال الحيوى للجريمة

هل نحن حريصون على سلام بلادنا وسلامتها ؟

وهل نرغب فى تجنيبها ويلاب الفتن والاضطرابات ؟

إذن ، فلنكافح الجريمة . وأفضل من ذلك أن نقضى على العوامل التى تيسر نشوة الجريمة . فالوقاية — كما يقولون — خير من العلاج وإننا حين نتتبع سير الانتفاضات العنيفة التى وقعت فى التاريخ ، لانكاد نجد لها سوى سبب واحد هو : أمة تريد .. وحكومة تأبى والشعوب دائما تريد ثم تريد ... وليس لمـا تطمح إليه غاية

ولا نهاية — وتلك سنة الله ، وإلهام الوعى الكامن فى الحياة والذى يدفعها بكل كائناتها إلى التغير والتطور والسير إلى أمام.

فلولا طموح الأمم والجماعات ، ما انتقلت الانسانية من عهد الهمجية المظلم ، ولما خفق لحقوق الإنسان لواء ولما سمعنا عن ديمقراطية واشتراكية .

إذن فالشعب بطبيعته يريد دائما أن يرقى ، وهو على الدوام طالب حق .. وكلما أفسحت له حكومته السبيل ، ازداد توثبه ، واضطرمت رغبته فى حقوق أخرى وسبيل آخر .

حدث فى فرنسا منذ ثلاثة أعوام ، وأثناء حكم « رماديه » أن تفاقمت الازمة العالمية ، فانتزع رماديه من فم الميزانية التى انهكتها الحرب والافلاس ، عشرين مليونا من الجنيهات مرة واحدة ، لينعش بها حالة العمال .. والتهم العمال هذه الوجبة الدسمة ، ولم يمض من الزمن غير أيام معدودات حتى صاحوا : هل من مزيد وجديد

فلما قيل لهم : لاجديد ولا مزيد ، رفعو عقائرهم فى شوارع باريس هاتفين : اشنقو رماديه فى أقرب عمود نور ؟ !

وأطل عليهم « رماديه » من شرفة مكتبه وحياهم باسما ، ثم أوى إلى المكتب فوراً ليبحث عن بضعة ملايين أخرى من الجنيهات تباعد بينه وبين عمود النور !

والحكومات الرشيدة تتفاءل دائما بزحف مواطنيها نحو حقوقهم ، ولا ترى الحكومة الحصيفة أى تثريب على الشعب مادام العقل والحكمة والنظام هم حداته إلى حقوقه ، ومادامت هى نفسها تعينه على احترام النظام . أما الحكومة التى تبخل بالإصلاح والعدل

على دافعى الضرائب ، وتصدر فى سياستها الاقتصادية عن شح بغيض . فتلك هى خالقة الجريمة وحامية حماها . . بل إنها ، ومن وراءها من أصحاب المصالح الكبيرة الخاصة ليمثلون المجال الحيوى الذى تترعرع فيه الجريمة وتزدهر . وما أحرانا أن نتدبر حديث الرسول عليه السلام : « اتقوا الشح . فإنه أهلك من كان قبلكم ، دعاهم إلى أن يسفكوا الدماء فسفكوها .. ودعاهم إلى أن ينتهكوا الحرمات فانتهكوها . . . » .

فالشح إذن وباء . . ولا سيما إذا كان كما ذكرنا من قبل ، شح الدولة على رعاياها الذين يدفعون لها الضرائب ..

ونحن نمقت الجريمة مهما تكن بواعثها وأسبابها . ونعتقد أن عبور الحياة فى زورق جميل ، مهما تطل رحلته ، خير من عبورها فى مدرعة . . ولو أبلغتنا الهدف فى لحظات .. بيد أن رحلة الزورق الوديع لن تظل شيئاً محبباً مقبولا إلا إذا تجنبتها العواصف والأعاصير وهذا هو الذى يحدونا إلى مكافحة سياسة التجويع التى تمثلها الرجعية الاقتصادية فى بلاد العرب قاطبة .

نحن نكافح الاستغلال الفردى لأنه مهب كل عاصفة جائحة ، وكل إعصار وبيل .

إن الشعب القلق على لقمته فى بطنه .. . ومن أجل ذلك قال العرب مثلا قديماً : « لا تنم بجوار جائع فيأكلك » لأن العقل آنئذ لا يفكر فى غير القضم ، وتفسير الجريمة تفسيراً كافيا لاقناع الضمير بأنها واجب لا جريمة .. هذا إذا كان الجوع سيدع فى ضحاياه ضمائر .. ولعل من أعراض هذه الفلسفة المتنمرة ، تلك

الصيحة المضحكة التى تصايح بها ثوار الحزب الديمقراطى فى روسيا : « شقو بطن القيصر .. وأخرجو منها الكثرى لأكلها ! » . فهم لم يتجهو بتفكيرهم ووجدانهم وسخطهم إلا إلى مخزن الكثرى فى ذلك البطن السعيد !

ولدينا رجل من أجل من حملت الأرض على ظهرها — هو أبو ذر الغفارى — صاحب رسول الله — يصور مشاعر المجتمع الذى زايلته المساواة فيقول : « عجبت لمن لا يجد القوت فى بيته — كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه » !!

إننى رغم إعجابى الشديد بأبى ذر العظيم ، لا أتمنى ذلك الذى تمناه .. وهو أن يخرج الجياع شاهرين سيوفهم . وإنما أتمنى شيئا آخر يسير التحقيق والتنفيذ لو وجدت الحكومة المجهزة بالإرادة والعزم : هو ألا يوجد بيننا جوع ولا جياع . وإنا على ذلك لقادرون إذا انتهجنا نهجاً اشتراكياً صحياً شاملا .

نحن نعيش فى عصر ، ليس للحكومات فيه رسالة سوى تحقيق المنفعة الاجتماعية للشعوب ، وإزاحة كل العوائق التى تعترضها وتصدها عن غايته المقدسة .

أما عندنا ، فمن الخير أن نعترف بأن جماعة من أصحاب المصالح الكبيرة . وكثيرا ما يكون بعض الوزراء من أعضاء هذه الجماعة ، يتربصون بكل وعى حر ، وكل محاولة عادلة . ولعلنا لم ننس بعد ؛ الصراع الشاق الذى دار بين حكومة النقراشى باشا والجماعة المذكورة بشأن الضريبة التصاعدية .

هؤلاء المواطنون — وإنا لنرجو أن يقدروا جلال هذا

للقب ، وحققوا لانفسهم معنـــاه — يلعبون بالنار ، ويتحملون مسئولية مباشرة فى كل جريمة تقترف ضد سلام المجتمع وسلامته .

وإن الشريعة الإسلامية ، التى يحاولون استغلالها لحماية مصالحهم لتعتبرهم شركاء أصيلين فى الجريمة .

واليهم هذه الواقعة الصحيحة التى يرى فيها « مقترف الجريمة » وعوقب « المتسبب فى الجريمة » :

سرق غلمة لحاطب بن أبى بلتعة ، ناقة رجل من مزينة واعترفوا بجنايتهم ، ورفع الأمر إلى عمر .. فرأى نفسه أمام جريمة استوفت كل عناصر الإدانة : من سرقة ، وسارق ، واعتراف لايشوبه ضغط أو إكراه . . فبم يقضى .. ؟

ألقى على وجوه المتهمين نظرة . . . ثم تلا قول الله تعـــالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » ونادى كثيراً بن الصلت : يا كثير : قم فاقطع أيديهم .

ومضى بهم ابن الصلت إلى مكان التنفيذ .. وقبل أن يبلغه ، كان صوت عمر يشق الفضاء وراءه :

يا كثير . . ارجع إليهم . فعاد وعادوا معه . . ووقف الغلمان أمام عمر الذى راح يفحص وجوههم من جديد .. فماذا رأى ؟

أبصر وجوهاً أملقت من الدم .. وعيوناً انطفأ فيها كل ومض وبريق .. وجسوما خرعة أعياها البؤس والسغوب .. فسأل : من سيد هؤلاء ؟ ائتونى به ..

فلما جاء سيدهم ، عبد الرحمن بن حاطب . قال له عمر : « لقد هممت أن أقطع أيدى هؤلاء .. لولا ما أعلمه من أنكم تدئبونهم وتجيعونهم ، حتى إن أحدهم لو أكل ماحرم الله عليه ، لحل له .. !

وايم الله إذ لم افعل ، لأغرمنك غرامة توجعك وتزجرك .

ثم سأل صاحب الناقة المسروقة :

كم تساوى ناقتك يا مزنى ؟ قال : اربعمائة . . قال لعبد الرحمن سيد الغلمان المتهمين : اذهب واعطه ثمانمائة . . ومرة أخرى القى على الغلمان نظرة نابعة من فطنته ورحمته معاً وقال : اما انتم ، فاذهبوا ولا تعودوا لمثلها . .

سلام على عمر .. فى الأولين والآخرين .. ! ولهؤلاء الذين يتخذون من الاسلام « برفانا » يسترون به مظالمهم ، عزاؤنا .. فقد فقدوا بهذا المبدأ الذى شرعه أمير المؤمنين ، كل أمل فى النجاة من المسئولية التى تحاصرهم وتحيط بهم .

ويماثل حكم عمر ما يقوله العالم الكبير « اكوتيليت » البلجيكى فى كتابه « الانسان وتطور خصاله » :

« من ، يحمل المجتمع فى رحمه جنين كل جرم يقترف فيه .. فهو الوعاء الذى يحتوى الظروف التى تيسر نشوء الجريمة ، وتمهد لها الطريق — اما المجرم ، فليس سوى آلة التنفيذ » .

فلنعمل على ألا يحمل مجتمعنا فى رحمه سوى الأجنة الصالحة الخيرة ، وان يحتوى دائما اوغالبا ، الظروف التى تيسر نشوء السلام لا نشوء الجريمة .. وذلك يتحقق فى نظرنا بثلاثة امور:

الأول — ان نعمل لسلامنا الخاص اولا وقبل كل شىء ، ونوجه كل جهودنا وإمكانياتنا لخدمة انفسنا ومصالحنا الخاصة . ثم إذا بقى من جهدنا فائض ومزيد لا نحتاج اليهما ، فلا مانع من إسباغهما على الآخرين .

الثانى - استقصاء كل عوامل القلق والرجعية والظلم الاجتماعى والكشف عنها ومواجهتها فى شجاعة وصراحة وازالتها من طريق المجتمع .

الثالث - تحديد الأوضاع الاقتصادية لاترقيعها ، وتنفيذ سياسة اشتراكية شاملة واضحة تعطى كل ذى حق حقه ،وتقضى على التفاوت البعيد ؛ وتدك حاجز التمييز بين الطبقات

والآن .. لنتكلم عن هذه الثلاثة . . ولنعالجها بالروح الكامنة فى مطامحنا جميعاً ، محاولين أن نتغلب على مشاكلنا لنتغلب تبعاً لذلك على البغضاء التى بثها الحرمان خلال الزمن الطويل .

° ° °

سلامنا أولا !

طاف كاتب أمريكى ببلاد الشرق الاوسط ثم كتب عنه فيما كتب هذه العبارة : « فى الشرق الأوسط . فى هذه الرقعة المضطربة تصطدم رغبات روسيا بالمصالح الحيوية لبريطانيا والولايات المتحدة وأنت ترى ملايين من العرب يتململون فى سورة انبعاث قومى ،وهم لم يقرروا بعد : ايتجهون إلى الشرق أم يتجهون الى الغرب ، إلى الشيوعية أم إلى الديمقراطية .

« ولب الحقيقة فى شأن العرب اليوم ، هو أنهم فى غمار تحول عنيف سريع ؛ فهم ينقلبون فى مدى جيل واحد من حياة كحياة الإقطاع فى القرون الوسطى ، إلى حضارة القرن العشرين » .

وهذه الكلمات الوجيزة تفتح أعيننا على حقيقة أمرنا ؛ وحقيقة

أمر أولئك الفضوليين الذين يفرضون أنفسهم علينا ، ويتخذون من بلادنا ومصالحنا ميداناً يصطرعون فيه ويتعاركون ..

فمن جهتنا نحن . . ملايين تتململ فى سورة انبعاث قوى . . يقابل ذلك ، دول كبرى تتململ فى سورة جشع واستعمار . . ! كل دولة تريد أن تكون لها الكبرياء فى أرضنا ، والامتياز المطلق فى منتجاتنا وخيراتنا . . وهذا التنازع علينا ، والتنافس فينا . . هو السلام الذى ينشدونه ويدعون الى دعمه وحمايته . . !

ما أبلغه من درس قرين بالتدبير واعمال الفكر .. فالسلام كما تفهمه هذه الدول الكبيرة ؛ هو أن تجد لبضائعها اسواقا ولطائراتها بترولا ، ولأطماعها مجالا ومناطق نفوذ . . ولا تثريب عليها إذا هى احتربت وتصارعت من أجل هذه الاطماع ؛ لأنها حرب من أجل السلام ، أى من أجل ضرورتها ؛ ومطالبها . ومصالحها . وأسفهم عن السلام لا يعنى إلا الأسف على سلامهم الخاص . . أما السلام العالمى فهو خرافة ، وهو دمية جميلة يعابثون بها ويخادعون الأمم الصغيرة التى لا يزالى وعيها فى دور الطفولة الغريرة . . وكل دولة من تلك الدول ذات السيادة والنفوذ ، على أتم الاستعداد لأن تذبح السلام العالمى وتسحقه إذا كان فى ذلك ضمان سلامها الخاص . وإذا كنا قد نسينا كل العبر الغابرة فما أظننا نسينا درس فلسطين الذى يؤكد هذه الحقيقة أعمق توكيد .

فعندما رأت انجلترا اصرار الشرق على التخلص من صداقتها الجبرية المفروضة .. دعمت « إسفين » الصهيونية فى فلسطين . ومن قبل هذه الخطة ، أو فى ثنيها .. توجت صديقها الاكبر - الملك

عبد الله — على شرق الاردن .. وهى تعلم علم اليقين أن شرق الأردن لاتصلح أن تكون «دائرة انتخابية» فضلا عن أن تكون مملكة . والملك عبد الله نفسه يعلم ذلك .. يعلم انها قرية ضئيلة يحدها من الشمال شرق الاردن ، ومن الجنوب شرق الاردن ، ومن الغرب والشرق ، شرق الاردن .

جلالته يعلم أنها دولة « جيب » ويظهر أنه كان متألماً من هذا الوضع بدليل أنه قام بعد إعلان تنصيبه ملكاً ، بدعوة جديدة إلى سوريا الكبرى .. ولأنه كان على وعد مع اصدقائه الكبار بأن دولة « الجيب » هذه ستصبح « بولمان » عما قريب . وليس على حكومة جلالته إلا أن تمتثل أوامر المخرج وتنفذها بامانة وجراءة وفى الوقت المعلوم . أعطى المخرج الإشارة للصهيونية فتحركت وفى مطلع الفصل الثانى من الروايه اعطى إشارة إخرى للقيادة الاردنية فوثبت على خشبة المسرح ولعبت دورها ببراعة بين إعجاب المخرج وتصفيق الممثلين .

ولست أعيد تفاصيل المهزلة — فكلنا يعلمها .. وانما أومض ذكراها فقط ، لنعيد تلاوة الحقيقة فى ضوئها . فانجلترا تعلم ولاريب ان تمكين الصهيونية فى فلسطين تمكين للفتنة والبغى والعدوان ، وتهديد مستمر لحياة السلام . وهى أيضاً تعلم أن إحداث فجوة عميقة بين الملك عبد الله ، وبقية دول العرب أو تقسيم العرب إلى معسكرين هاشمى وغير هاشمى ، أو « تدويل » القرية الأردنيـــة وتضخيمها على حساب جاراتها .. لن يفيد السلام فى شىء بل سيمزقه ويجعله وهما وأحاديث ، ويثير نقع فتنة عاصفة .

وكذلك تعلم أمريكا .. كما تعلم روسيا أن تدليلها الصيهونية ونصب شراعها فى محيط العرب المسالمين ليس سوى تقويض للسلام فى جزء كبير من الدنيا ، ومع ذلك رأينا كل دولة فى هذا «الثالوث» الحامى حمى السلام ! تسابق الأخرى فى سكب البترول على النار - لماذا . ؟ لأن كل واحدة منهن تبحث كما قلنا عن سلامها الخاص ، وتحاول ان تشتكثر من « مراكز التنفس » لنفسها ، ولو كان ذلك على حساب حياة الآخرين وسلامهم ؟ !

بل إن أمامنا شواهد أخرى تنادى بأن ذلك الغرب لا يريد للشرق حياة ، ولا سلاما ، وانه يعمل على بقاء القلاقل والكوارث فيه ليبقى له نفوذه الأثيم ، وحججه الكاذبة التى يدعم بها هذا النفوذ.

فبينما تتظاهر دوله الكبرى بدعوة حكومات العرب والشرق الأوسط إلى رفع مستوى المعيشة للشعوب . إذا بهم يعملون بكل الوسائل على تعويق النهضة التى تريدها شعوب الشرق .

ولنستمع لشاهد من أهلها وهو مراسل انجليزى يقيم على مقربة من وزارة خارجيته ، ويعرف حقيقة اتجاهاتها أو بعض هـــذه الحقيقة .

كتب لصحيفة مصرية يوميه فى ٨ يونيه سنة ١٩٤٧ يقول :

« .. وقد دأب المستر « بيفن » منذ أن تولى السلطة على القول بأنه يهدف فى سياسته بالشرق الأوسط إلى رفع مستوى شعوبه - ولكن كيف ؟ !

« يمكن أن تقدم لنا مسألة أمتيازات زيت البترول فى المملكة العربية السعودية جواباً جزئياً على ذلك . فان فى عملية استخراج البترول من تلك الاراضى ، من الربح مايسمح لانجلترا وأمريكا

ن تعطيا الملك ابن السعود منحة سنوية كبيرة جداً ، ولكى يوضح الملك ابن السعود فى حالة تدفعه الى الرضاء دعت انجلترا وأمريكا ولده ووزراءه وحاشيته لزيارتهما حيث أكرمتا وفادتهم إكراماً ملكياً .. وقد حضرت بعض ما أقيم لهم من مآدب وشاهدت بنفسى ما بذل فيها من بذخ ..

« هذا هو ما يسميه المستر بيفن رفع مستوى شعوب الشرق الأوسط ..

« .. وفى نفس الوقت أرغم آلاف العمال فى آبار البترول الإيرانية فى البحرين بقوة السلاح على العمل ، وأرسلت فرقة هندية إلى الحدود الايرانية مزودة بما يلزم لتحطيم إضراب عمال آبار الزيت الوطنية الذين طالبوا بزيادة قرش واحد على أجورهم اليومية الضئيلة:!!

« لا .. ليست أراضى دول الشرق هى التى سوف تفيض فيها أنهار العسل واللبن كنتيجة لاستغلال ثرواتها المعدنية .. بل هى راضى أبناء العام سام وجول بول المرفهين المدللين .. » ا . هـ

إن المسألة ليست فقط مجرد استهجان لاعتداء « امبراطورية » على بضعة آلاف من العمال يريدون قرشاً واحداً من بترولهم وأرضهم ..! ولكنها رمز أى رمز على مدى مافى دعوى الغرب من الحرص على رفع مستوانا من زور وبهتان .

إن زعماء الغرب حين يفكرون داخل حدودهم ، فانما يفكرون بعقول اقتصادية علمية .. لأنهم لا يستطيعون أن يحرموا جوفا واحداً من الزبد ، والويل لأحدهم إذا فعل . إن الشعب ليسقطه فى

مثل لمح البصر ... ولكن حين تغادر عقولهم حدود بلادهم فإنها تفكر تفكيراً استعمارياً سياسياً لاغير ، دون أن تستجيب لأية عاطفة رحيمة نبيلة

ولذلك نجد بلادهم تموج بالمسرات والمباهج والنعم .. وامامى الآن إحصاء نقلته منذ عام ونصف تقريبا ، نلاحظ فيه أن بلداً كالولايات المتحدة رغم ان اهله يكونون ٦٪ من مجموع سكان العالم إلا أنهم يملكون .

٧٠٪ من مجموع سيارات العالم
٥٠٪ « تليفونات العالم
٤٥٪ « راديوات العالم
٣٤٪ « السكك الحديدية العالم

ويستهلكون :

٥٦٪ من حرير العالم
٥٣٪ من جميع كاوتشوك العالم
٥١٪ من جميع بن العالم .

* * *

ووراء هذه الارقام السعيدة ، نبصر شعبا سخرت له الحياة .. تجرى بأمره رخاء حيث اصاب . وفى مستوى مسائل لهذا ، أو قريب منه ، تعيش كل الدول التى تتنافس فينا ، وتتآمر على وجودنا وغذائنا وكسائنا . !

والعجب أنهم يستخفون بنا استخفافاً ساخراً ، ويستغلون سذاجتنا استغلالا بارعاً . فتراهم كلما حاولنا إثارة حقنا فى

الاستقلال المطلق ، وفى التحلل من الاتفاقات التى صبحت غير ذات موضوع ، يخلقون مظاهرة كاذبة ، ولكنها صاخبة .. ويوهموننا بأن الحرب ستقع بعد أيام وربما بعد ساعات . . وتستجيب لدعايتهم صحافة قصيرة النظر ، أو مغرضة ، وفى هذه الضوضاء المفتعلة يتبدد الصوت الذى انبعث يطلب حقاً مضيعاً مسلوباً .

وإنك لتستطيع الآن ، بعد قراءة هذه السطور ، تذهب إلى دار الكتب ، وتقلب الصحف التى كانت تصدر أيام عرض قضيتنا على مجلس الامن . أو أثناء قضية فلسطين . فستراها تحدثك عن الحرب . الحرب التى ستنقذف شرارتها بعد ساعات . وتحدثك عن وجهة نظر زعماء أمريكا وانجلترا فى الخلاف المصرى الانجليزى وكيف يجب أن ننتهى إلى حل قبل وقوع الكارثة . . تماما — كما يحدث اليوم ، لاننا نريد إثارة قضيتنا من جديد . . !!

الوقائع أنه لاحرب . . الآن على الاقل ، لا لأنهم انقلبوا بنعمة الله إخوانا . . بل لفزعهم من الحرب المقبلة ، وإيمانهم جميعا بأنها ستلتهم الغالب والمغلوب معاً :

فلنملأ بهذه الحقيقة نفوسنا ، ولنرفع مستوانا من غنيمة بارد تتزاحم عليها الذئاب . . إلى قوة مهيبة تحترمها الذئاب وتخشاها . وإنا ؛ ولاريب ، عاجزون عن إقناعهم باحترامنا ، حتى نحترم نحن أنفسنا . . . والطريق لهذا — أن نصنع كما يصنعون . . فنبحث عن سلامتنا الخاص . وتمكن لشعوبنا فى الارض وفى الحياة . ونملأ بلادنا بالرخاء والرغد . . ما أحوجنا إلى جرعة قوية من الأنانية التى تحصرنا فى أنفسنا ، وفى مصالحنا ـ فلا تفكر لغيرنا حتى ننتهى

من التفكير لأمتنا وشعبنا ، والتى تجعلنا فى النطاق الدولى أصحاب ذاتيه مستقلة ، تدور حول نفسها ، وحول مصالحنا . . ولانخلق لأنفسنا عداوات نحن فى غنى عنها أونزج بها فى خلاف كبير لانوق لنا فيه ولا جمال .

* * *

هذه عوائقنا :

١ — التفاوت البعيد . .

فى طليعة العوامل التى تحرم مجتمعنا من التناغم والانسجام والاستقرار ، هذاالتمايز البعيد الذى يشطره شطرين غير مكافئين .

لقد أصبحت هذه الفروق الشاسعة بين طبقتى المجتمع من الموضوعات التى يكثر فيها اللغط . ويقل الفهم الصحيح والإدراك السليم .

واتخذها الساخطون وقوداً يسعرون به سخطهم وغيظهم ، مما يجعل تجاهلها أو تحريم الحديث عنها أمراً غير مجد أومفيد . نريد الآن قبل تفنيد مضارهذا التفاوت؛ أن نفهمه على وجهه الصحيح . . فليس معنى لقدنا له ، أننا ندعو لإزالة كل حاجز وفارق بين الناس فذلك أمرمستحيل . وإنا لنجد فى مثل أمريكا وروسيا وانجلترا من يملك رصيدا ضخما من المال ، ومن لايملك شيئا . . بيد أنهم لايضارون بهذا التفاوت كما نضار به . وكما نرزح تحت كاهله وضراوته . . ذلك لأن شعوبهم تعيش فوق خط ضروراتها ، وفى منتصف المسافة ، أوأكثر ؛ إلى قمة السعادة وذروة الرخاء والرفاهية

والمجتمع هناك ، غير قلق على مستقبله ، ولا ضائق بحاضره — وهو لهذا راض عن نفسه ، سعيد بنظمه ، لايثير التفاوت بغضاءه ، لأنه مكفول الرغد ، مطرد التقدم والاقتراب من السعادة الغامرة ولكل فرد من أفراده الحق كل الحق فى كافة الفرص التى يمكن أن تجعل منه كما جعلت من غيره وزيراً أو مليونيراً — فهو لذلك لايجد من الوقت ماينفقه فى الحقد والبغضاء لأنه متجه نحو الفرص المترعة بكل مقدرات النجاح والفوز يهتبلها وينتهزها .

ثم ان التفاوت هناك ، نتيجة عوامل طبيعية شريفة ، وليس نتيجة استغلال جشع كالذى عندنا ، من أجل هذا نراهم مؤمنين ببلادهم وبانفسهم إيمانا يحلق بهم فوق العواطف والأخطار . فهذه السيدة الامريكية التى وقفت تودع ابنائها الخمسة إلى ميدان القتال وتقول لهم : « إذا خامركم خوف أو تردد ، فاذكروا أن الموت رحلة جميلة ، سوف تلقون فى نهايتها أباكم !! » وكان أبوهم قد استشهد فى أحد المعارك

والمرأة الروسية التى صمدت امام جنود الألمان وقاتلتهم فى مطبخ دارها بسكين الثوم والبصل حتى فاض اخيراً روحها الباسل وهى تقول : « لابأس أن أموت أما روسيا فلن تموت ابداً » .

وهؤلاء الملايين من شباب الجامعات الذين كانو يسارعون إلى خومة الوغى كأنهم ذاهبون إلى مواعيد حب جميل ! اى سحر ذلك الذى انساهم رهبة الموت وقسوة المصير ؟ !

إنه المجتمع الصالح العادل المنظم الذى يعيشون فيه إخوانا وسواسية — ليس فيهم قطعان وذئاب ، ولاعبيد وارباب

المجتمع الذى منحهم كل أمكانياته وفرصه ، فنحوه كل ولائهم وقلوبهم ، وبادلوه وفاء بوفاء ؛ وتقديراً بتقدير .

ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت البعيد القائم فى مجتمعنا أنه يقسم الأمة على ذاتها ؛ ويجعل منها معسكرين متباغضين يحقر أعلاهما الأدنى ويمقت أدناهما الأعلى ، ويتربص كل منهما بالآخر مضمراً له كل كراهية وسوء . . . ومهما نحاول إرضاء هذا الفريق الأدنى برفع مرتبه وتحسين دخله ؛ فانه لن يرضى . . لأن مشكلته لاتتمثل فقط فى حرمانه ؛ بل وفى هـــذا الترف المسعور الذى يعيش فيه الاخرون . . فيأكلون أكثر مما ينبغى أن يأكلوا ؛ ويلبسون أكثر مما ينبغى أن يلبسوا ؛ ويرغدون أكثر مما ينبغى أن يرغدوا ، ويجلسون فوق اهرام من الذهب بينما بقية المجتمع تقتات من آلامها وحرمانها وانهيارها . . !!

ونستطيع أن ندرك مدى الاحتقار الذى يكنه الأعلون لأمتهم ومجتمعهم من كافة تصرفاتهم .. ومن سلوكهم إزاء الشعب الذى أتخمتهم نعمه وطيباته .. فعندما قررت مجانية التعليم الابتدائى منذ سنوات ، سارع كثيرون من أولئك السادة ، وسحبوا أولادهم من مدارس الحكومة حتى لايخالطوا فيها أبناء الفقراء والرعاع .. !! ثم أدخلوهم مدارس أجنبية تليق بمجدهم ومجد آبائهم .. وان وراء هذ التصرف المخجل لايماناً عريقا بالارستقراطية ، وحرصاً شديدا على الامتياز والاستعلاء ، وجاهلية نابية لاتقرها أخلاق الدين ، ولا أخلاق الدنيا .. !

ولقد ذكرونا بنظرائهم فى الجاهلية الأولى . . إذ ذهب وفد من أعيان مكة إلى رسول الله وقالوا له :

« يا محمد . . لقد رضينا أن نستمع إليك ، ولكننا لا نجالس هذه الأخلاط من عبيدنا ، وصعاليك مكة الفقراء — فاجعل لنا يوما ، ولهم يوما » !

وأستأناهم الرسول إلى غد . . حتى يأتى أمر ربه ، وسرعان ما جاء الوحى الرشيد بآيات باهرة :

« . . واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا » .

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء ، فتطردهم فتكون من الظالمين » .

وجاء العالون فى الأرض ، فألفوا محمداً قد فرش للفقراء والعبيد رداءه ، وأجلسهم عليه ، وراح يربت على مناكبهم واحداً واحداً ، ويحييهم وفى عينيه دموع الغبطة والرضا قائلا : « أهلا بمن أوصانى بهم ربى » ، وتلا عليهم آيات ربه ، وانسحب ، وفد الأعيان يجر أذيال الخيبة والهزيمة . . فقد سامتهم السماء احتقارها ، وبسطت ذراعيها تحتضن بها الفقراء الكادحين .

ما أحوج هؤلاء الذين يستنكفون عن زمالة الشعب إلى هذا الدرس البليغ الصارم ، ليطامنوا من صلفهم وينتهوا من كبريائهم

إن الحرص على سلامة المجتمع ورخائه ، يقتضينا أن نواجه هذه الحقيقة — وهى أنه لا استقرار ، ولا غلبة لأى إصلاح اجتماعى إلا بتقريب المسافة البعيدة الفاصله بين طبقتى الأمة وتوزيع الفرص على المواطنين توزيعاً يقضى على التفاوت القصى الذى يشطر وحدتها النفسية والفكرية . وإن مقارنة عابرة بين جاردن سيتى ، مثلا وبين آلاف القرى ، ومعها الأحياء الشعبية فى القاهرة وغيرها . . ليفتح أبصارنا على الخدعة الكبرى التى ينطوى عليها مجتمعنا المكدود ، وديمقراطيتنا الزائفة ! وتذكرنا بما كتبه الأستاذ الصاوى فى صدر « الأهرام » . « إن مائة أسرة فقط هى التى تنعم بخيرات هذا البلد وطيباته ... » كما تذكرنا بكلمته فى « أخبار اليوم » عن الملايين التى ليس لها فى الحياة حظ ولا نصيب ، « هناك ترى آية انحطاط الشرق .. ترى ما تقشعر منه الأبدان من القذارة .. ترى مخلوقات بشرية تعيش كأنها لا تعرف الهواء ولا النور ، وتتغذى بالذباب والتراب » ! !

٢ — الملكيات الزراعية الكبرى :

وثانى العوائق التى تحول بين المجتمع ونموه وسعادته — هذه الملكيات الزراعية الواسعة ... وإذا كانت مصر بلد زراعياً ، وكانت تسعة أعشار أرضها المزروعة ملكا لمائة أسرة أو مائتين . فماذا يبقى للشعب من ثروة بلاده وأرضه . ؟ !

هذه ظاهرة محرجة ، ولو أنفقنا من الوقت والجهد فى مواجهتها مثل ما ننفقه فى مكافحة الضائقين بها لأفدنا كثيراً

وإنا لنعلم كيف بدأت قصة التفاتيش والضياع ، يوم كان الفلاح المصرى عاجزاً عن زراعة المساحات المتوسطة ، فضلا عن الشاسعة ، فرئى إقطاع بعض القادرين هذه التفاتيش ليزرعوها ويعمروها ..؟!

وفى هذا المعنى يحدثنا « قلينى فهمى باشا » فى مذكراته ، عن ذكرياته أيام كان موظفا كبيراً بالدائرة السنية ، فيقول فى العدد « ١٢٢٦ » من مجلة المصور .

« . . كان إسماعيل يملك مئات الألوف من الأفدنة فى إنحاء البلاد ، ومنها جميع أراضى مديريتى بنى سويف والمنيا ، عدا خمسة عشر مصنعا للسكر . . كلفه كل منها مليونا ونصف مليون من الجنيهات . وكانت هذه الأراضى مقسمة إلى تفاتيش ، كل تفتيش لاتقل مساحته عن سبعين ألف فدان .

« فإذا أراد سموه أن يكافئ أحداً على إخلاصه فى العمل ، أقطعه جزءاً منها . . » . !

هكذا ولدت الملكيات الزراعية الواسعة . . ثم طفقت بين مد وجزر حتى تبلورت أخيراً فى هذا الاحصاء المروع (١) .

فالذين يملكون أكثر من خمسة أفدنة ، لغاية عشرة أفدنة — يبلغ عددهم ٨٥٫٦٢٢ — ويملكون نحو ستمائة ألف فدان .

والذين يملكون أكثر من عشرة أفدنة لغاية عشرين فدانا — يبلغ عددهم ٤١٫٤٥٥ — ويملكون نحو ستمائة ألف فدان .

والذين يملكون أكثر من عشرين فدانا لغاية ثلاثين فدانا — يبلغ عددهم ١١٫٩٠٧ — ويملكون نحو ثلثمائة ألف فدان .

( ) منقول عن جريدة المصرى (وراء العناوين) للاستاذ محمود كامل المحامى .

والذين يملكون أكثر من ثلاثين فدانا لغاية خمسين فدانا — يبلغ عددهم ٩١٧٩ — ويمتلكون نحو ثلاثمائة وخمسين ألف فدان.

والذين يملكون خمسين فدانا لغاية مائة فدان — يبلغ عددهم ٦٧٧٣ — ويملكون نحو أربعمائة وخمسين ألف فدان.

والذين يملكون أكثر من مائة فدان لغاية مائتي فدان — يبلغ عددهم ٣١٤٨ — ويملكون نحو خمسمائة ألف فدان.

والذين يملكون أكثر من مائتي فدان لغاية أربعمائة فدان — يبلغ عددهم ١٤٤٨ — ويملكون نحو ثلثمائة ألف فدان.

والذين يملكون أكثر من أربعمائة فدان إلى ستمائة فدان — يبلغ عددهم ١٤٢ — ويملكون نحو مائة ألف فدان.

والذين يملكون أكثر من ستمائة فدان إلى ثمانمائة فدان يبلغ عددهم ١١٦ — ويملكون نحو مائة ألف فدان.

والذين يملكون أكثر من ثمانمائة فدان لغاية ألف فدان، يبلغ عددهم ٩٢ — ويملكون نحو ثمانية ألف فدان.

والذين يملكون أكثر من ألف فدان لغاية ألف وخمسمائة، يبلغ عددهم ٩٠ ويملكون نحو مائة ألف فدان.

والذين يملكون أكثر من ألف وخمسمائة فدان لغاية ألفين، يبلغ عدهم ٤٠ ويملكون نحو سبعين ألف فدان.

والذين يملكون أكثر من ألفي فدان، يبلغ عدهم ٦٨ ويملكون نحو ثلاثمائة ألف فدان!!

ووراء ذلك يوجد «٨٣٠٫٨٩٤٫١٦» من المواطنين لا يملكون شيئاً! مما يجعل تهذيب أوضاع الملكية الزراعية فريضة لازمة وكتابا موقوتا.

وقد وقف رئيس حكومة مسئول فوق منبر البرلمان وصرح بأن وباء الملاريا الذي غيب فى تراب الأرض ألوفاً من أبناء الشعب الأسيف . كان نتيجة حتمية لسوء توزيع الملكية الزراعية ، حيث ضرب الناس بالجوع والإفلاس (١) .

ترى هل كتب على بلاد العرب أن تظل وحدها فى هذه المحنة الطاغية ؟ ! فانك لتجد الحياة فيها جميعا ضربا متماثلا من الشذوذ والفوضى ، وبينما تلتقى فى مصر بمن يملك قرية كاملة .. إذا بك تلتقى فى العراق بمن يملك مائة ألف فدان ، ويبلغ دخله ربع مليون ريال فى السنة . . . ! ! وبجانب هذا الواحد المصرى ، أو العراقى ، يوجد مليون بطن تقرقر أمعاؤها من الجدوب والسغب ! !

ومثل ذلك فى سوريا ولبنان واليمن . . وفى الحجاز حيث تتقطع أنفس الحجازيين عدوا ووثبا وراء الحجاج ، وهم يصيحون . هلله ياحج . . هلله ياحج . . . . ! بينما حفنة من المترفين تحصى على أصابع القدمين . . . تسبح فى بحيرات من اللذة والشراب . . والذهب المذاب ،

ياحسرة على العرب . . . وعلى الشعوب التى أوهنها الحرمان الأليم :

إننا لنعرض مشاكلنا هذه ، بضمير المواطن المخلص الغيور ، وكل رجائنا أن يتقبلها الآخرون بنفس هذا الضمير ، فذلك أجدر

---

(١) نقل هذا الخطاب الهام من مضبطة مجلس النواب ، الكاتب الاجتماعى الكبير الأستاذ عبد المجيد نافع فى كتابه القيم « السلام الاجتماعى »

ألا تبقى لنا مشاكل ، وأحرى ان تجرى حياتنا مع تيار العافية والسلام .

وقين بنا أن نعلم أن بقاء حق التملك الزراعى بدون تحديد أمر لا يمكن أن يطاق ، وهو بعد ذلك وزر اجتماعى لا تقره انسانية ، ولا يقره دين . . . وخاصة بعد أن بلغ الشعب عشرين مليونا يريدون أن يخرجوا من نطاق الرق . ويسلموا من قبضة الاحتكار . وسوف نبدى رأينا فيما ينبغى عمله لوضع هذه الأوزار ، وإماطة أذاها عن المجتمع فى نهاية هذا الفصل من الكتاب .

٣ ـ صكوك الموت !

وثالثة الأثافى — هى الإيجارات الزراعية ، وإن هذه العقود التى تبرم كل عام بين المالكين والمستأجرين لتحمل بين سطورها اشنع مأساة مفردة . . . وهى صكوك موت حقا ، يوقعها الفلاح وهو كاره صاغر ذليل . . وفى كل قرية من قرى مصر — تتسمع الشهقات المكظومة التى تريد ان تصرخ وتستغيث من جشع الملاك الذين يعاملون المستأجرين بغرائز نهمة . . . ثم يصرفها عن الصراخ ماتعلمه من أن عاقبة شكوها ستكون خسراً .

وإنى لأعرف ، تفتيشا ، أنزل بالناس عذابا ألما ، ولفق لهم التهم الكواذب ، وجلد ظهورهم بالسياط ، لأنهم فقط رفعوا إلى وكلائه ورؤسائه ملتمسا يرجون فيه تخفيض الإيجارات ، وإعفاءهم من التوقيع على بياض . ؟

ولقد أدركت بعض الحكومات المصرية مافى ارتفاع الإيجارات

الزراعية من ظلم ، وما وراءها من متاعب فادحة للمجتمع بأسره ، فألفت لجنة لدراسة الموضوع . وأذكر أن اللجنة قررت وجوب تخفيضها وتحديد أسعار مناسبة لها ، ثم وئد القرار ، ولم نعد نسمع له ركزاً .. مع أن التخفيض بداية كل إصلاح مرتجى ورخاء مرتقب - فالغلاء الذى نئن تحت مطارقه ... إنما ترجع أكثر أسبابه إلى الغلاء الفاحش فى تأجير الأرض الزراعية .. وأولئك الفلاحون الذين يكونون تسعة أعشار الشعب لا يجدون ما يسعدون به أنفسهم وأبناءهم ، لأنهم يستأجرون الفدان بخمسين أو أربعين أو ثلاثين جنيها ، وينفقون عليه مثل ذلك .. ثم يعجز محصوله عن الوفاء بمجموع هذه النفقات . !

ولقد سمعت أذناى معالى الاستاذ أحمد حسين بك ، وزير الشئون الاجتماعية ، يقول فى محاضرة له أيام كان وكيلا للشئون : ان وزارة الأوقاف باشرت بنفسها زراعة بعض تفاتيشها التى كانت تؤجرها للأهالى ، فخسرت خسارة فادحة .. بيد أنها حين عادت فى السنة التالية وأجرتها للزارعين فراراً من الخسارة لم تأخذها بهم رحمة ولا نصفة ، فجعلت أسعارها باهظة . وهى تعلم علم اليقين أن محصولها فى أجود حالاته لن يفى بالإيجار والتكاليف أبداً !

فاذا كانت الحكومة نفسها تضرب الأمثال لبقية المالكين بهذه القسوة والكزازة . فلمن يتجه الفلاح بمظلمته وشكواه ؟

إن بقاء هذا الوضع القاسى فى بلادنا يحول بينها وبين كل هدف وغاية . وإذا كنا حتى اليوم نجامل القلة المالكة على حساب الملايين المعذبة المصفدة بعقود الإيجارات الزراعية . . فقد آن الأوان لأن تراجع ضمائرنا . . ونرسل البصر فى رحلة سريعة إلى أربعة آلاف

قرية ليرجع البصر خاسئا وهو حسير ، يحمل صورة المأساة التى تجل عن الوصف .. صورة الفلاح المواطن الذى يتوسل إلينا بمصريته وبآدميته ، وبالتراب المقدس ... تراب الوطن الذى يسقيه بدمعه وعرقه ، فيصير ذهبا ينساب إلى جيوب المالكين - يتوسل إلينا بذلك كله ، أن نمكن له فى أرضه ، ونمنحه فرصة يتذوق بها طعم الحياة . !

وهنا سؤال نتوجه به إلى السادة أصحاب التفاتيش والضياع : هل فكر أحدكم مرة فى أن يزور مزارعى ضيعته وتفتيشه ليرى كيف يعيشون .. أو هل سأل نفسه عقب حفله ساهرة حمراء .. عن المعجزة الخارقة التى يواتم بها الفلاح بين دخله ومصروفاته .. ؟

ليتهم يشرفون بزياراتهم تلك الحظائر التى تموج موجا بالحيوان البليد المسخر .. وليتهم يفكرون من أجله كل عام ساعة واحده ، عندما تتكدس أمامهم مئات الألوف من الجنيهات التى انصدعت عنها أرض ضربها الفلاح بفأسه . وشقها بساعده ، وأبلى فيها أحسن البلاء ! !

إذن لعلموا أى وزر أثيم يجترحونه حين يؤجرون الفدان الواحد بخمسين جنيهاً أو أربعين .. فلا يستطيع المستأجر الذى سينفق مثل هذا المبلغ ، أو دونه ، على الأرض إلا أن يواجه الموت كل عام ثلاث مرات — عندما تهل مواسم التحصيل ، والتى هى للأسف مواسم الحصاد . موسم الذرة وموسم القمح وموسم القطن .

وإذا استسغنا — جدلا — من رجل يملك عشرة أفدنة أو عشرين أن يؤجر الفدان بثلاثين جنيها أو أربعين .. فكيف نستسيغ ذلك من تفتيش يتكون من آلاف الأفدنة وينتظم قرى

كاملة ويستطيع إذا أجر بسعر متواضع معقول ، أن يجمع أموالا طائله تناسب ملكه العريض الكبير ؟!

لكن هؤلاء السادة منطقاً آخر مدعما بالبراهين الدالة على أن الفلاح سعيداً جداً فى ظل هذه الإجارات التى نتطفل نحن بنقدها وتجريحها ! !

ويضربون لك مثلا بالجاموسة ، وبيض الدجاج . ! فهم يقدمون بلغة الارقام التى لايأتيها الباطل إحصاء دقيقاً ينبئنا أن الجاموسة وحدها تدر للفلاح كل عام من لبنها ، وسمنها ، ونتاجها مالايقل عن خمسين جنيها .

ولقد تعبوا بهذه الوثيقة المضحكة وزارة الزراعة التى جندت قسم الاحصاء التابع لها لتبحث هذا المكشف الرائع الخطير . . . ولم تدم فرحتنا وأسفاه . ! إذ تبين لقسم الإحصاء أن نفقات الجاموسة من برسيم وتبن وفول وخدمة عامة ، تستغرق معظم ماتدره وتنتجه ولا يتبقى لصاحبها فى أحسن الظروف أكثر من سبعة جنيهات فى العام . !

هذا اذا سلمت الجاموسة من العوارض الجائحة التى تتربص بها دون أن تجد من الطب البيطرى معونة او نفعا .

* * *

٤ - العامل والموظف الصغير :

وإذا نحن جاوزنا المستأجر الزراعى إلى العامل الزراعى ألفيناه شراً مقاما وأفدح عبئاً . . . ولقد قامت (مصلحة الفلاح) ببحث

حالة العمال الزراعيين الذين يعملون فى الحقول والتفانيش ، فإلى أى شىء أفضى بحثها .. ؟

لقد اكتشفت حقائق مؤلمة ومخجلة . فى بعض التفانيش وجدت الرجل يستأجر بخمسة قروش فى اليوم ، وبينما يستأجر الحمار بعشرة قروش . ، ومعنى هـــذا أن المساواة لم تتحقق بعد ، بين الإنسان المصرى .. والحمار المصرى . . !

كذلك وجدت أن أقل مايجب أن يظفر به العامل الزراعى يومياً لكى يعيش أدنى وأحقر معيشة — هـــو ثلاثة عشر قرشا ، بيد أن أغلبية هؤلاء العمال تتراوح أجورهم بين خمسة قروش وعشرة فى اليوم ... ولنستمع لوكيل وزارة الشئون الذى هو الآن وزيرها يعلق على هذه الموازنة فيقول : وإذن فالعامل الزراعى مضطر لكى يعيش فى أحط مستوى ، أن يقترض كل يوم مابين ثمانيـــة قروش وثلاثة قروش » !

وكذلك وجدت مصلحة الفلاح ، أن المدة التى يشغلها العامل الزراعى لاتتجاوز ستـــة أشهر فى كل عام ! كما ألفته محروما كل الحرمان مما يتمتع به زميله العامل الصنـــاعى من التشريعات والتشكيلات النافعة !

فليست لهم نقابات ، ولا يباح لهم أن يؤلفوها .. وليس لديهم قانون ساعات العمل ولا قانون التعويض عن إصابات العمل ، ولا قانون تشغيل الأحداث والنساء ، ولاغير هذه القوانين التى دعمت شخصية العامل الصناعى إلى حد كبير وحرم منها ذلك المواطن المفنى المسكين !

أليس إرهاق هذه المجموعة النفسية من المواطنين وإهمالها ، إهداراً لكرامة الوطن . وتعويقاً لنهضته ، وتكديراً لسلامة ؟

وحين نغادر العامل الزراعى إلى العامل الصناعى ، نجد هذا الأخير لايزال فى حضيض الفاقة والاهمال ، رغم ما أحرزته الحركة العمالية من نماء ونجاح ، ورغم ما ظفروا به من حقوق وتشريعات!

وحين نغادر الاثنين إلى الموظف الصغير . . نجد ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر !

نجد الشقاء ، والدين وفوضى المعيشة - قد تضامت جميعاً ، وتداخلت ، وصيغ منها هذا الكائن المرتجف المقرور . . الذى لايموت ولا يحيا . !

أعرف موظفا - هو صورة لألاف مثله - خدم الحكومة خمسة وعشرين عاما ، ولا يزال فى خدمتها ، له بنون وبنات . . ودخله الشهرى سبعة جنيهات مصرية . مع أنه يقوم بعمله للكتانى خير قيام ، ويحمده كل رؤسائه وزملائه . . ! ومنذ عام أشيع أن أمثاله من المنسيين سينالون الدرجة الدرجة التاسعة . . وفرح المسكين فرحا لم يفرح مثله قبله . . وملأت أمه الجو بصياح الغبطة! ومضت تبشر الناس أن ابنها سيأخذ « نمرة ٩ » . . . ومضى عام كامل ؟ ولاحيز الى المسكين ينتظر . لكن ولاءه لواجبه لم يتغير . . فتراه ينهض صباح كل يوم فيغدو الى (الديوان) لينجز أعماله . . ثم يروح إلى البيت ليواجه أثقاله وأحماله . . !

ألا سحقاً لهذه المحنة التى نسميها حياة ؟

كيف يعيش هذا المخلوق ، وكيف يعيش الآلاف من نظرائه أيتها الدولة الرشيدة . ؟ !

إنه لو قضى هذا العمر المديد يتاجر فى الفقر ذاته لكان اليوم مثريا نابها عظيما . . لكن حظه السيء أوقعه فى خدمة الحكومة ، فهو — بعد خمسة وعشرين عاما - قد رجع لا يخفى حنين . بل يخفى الحكومة !

والآن ينتظر هذا المسكين - ومن على شاكلته - إعانة الغلاء الجديدة المرتقبة لتنفذ من مأساتهم ما يمكن إنقاذه . وإنا لنرجو أن تأتى محققة لبعض آمالهم ومصالحهم .

* * *

إن الوظيفة « العقدة الحيوية » فى جسم المجتمع . هى مركز التنفس الذى ينظم دورات الدم ، وحركات الأجهزة . ويسلم الجسم إذا سلم ، ويعطب إذا عطب . وهذا الجيش اللجب من صغار الموظفين - يمسك بيده مصاير الأمة ومصالحها ، ومالم نشعرهم بأنهم موضع عناية الدولة ورعايتها ، فلن يؤدوا واجباتهم إلا فى جو من الضجر والفتور . . . وهذا هو سر البطء القاتل الذى يتسم به الروتين الحكومى عندنا والذى يعطل مصالح المجتمع ، ويفسد عليه أموره - كما أن المحسوبية التى تصطفى من بينهم من لا كفاية له ولا موهبة سوى قرابة أو مصاهرة أو تبعية ، ثم ترفعه فوق نظرائه درجات . . قد أفسدت ذمما كثيرة ، وجعلت الاختلاس عند كثيرين فضيلة يتنافسون فى إحرازها . . وصرنا نسمع عن

كاتب بسيط يستطيع أن يختلس مائة ألف من الجنيهات . ! !

حقاً إن المجتمع يحمل فى رحمه جنين كل جرم يقترف فيه. وإن الحكومة حين تتخلى عن واجباتها إزاء رعاياها ومواطنيها . لتهيء لنفسها بنفسها مصيراً قاسياً أليما . . وهى بحرمانها الموظف الصغير من ضرورات الحياة ، وإغداقها مئات الجنيهات وآلافها على كبار الموظفين ، تحرض على الفساد والفوضى .

* * *

هـــذه مهاب العواصف التى تهدد سلام المجتمع ، وتتوعده بكارثة محققة ــ وليست السلامة أمراً معجز الدرك أو صعب المزاولة . . بل إنا لقادرون على أن نأسو كلومنـــا أسواً جميلا ، ونبدد تلك العواصف السافية والعاتية ، إذا تسلحنا بروح الانصاف والايثار ، وآمنا بضرورة حدوث تحول اجتماعى شامل ، وبذلنا جميعاً ــ الحكومة والشعب ــ محاولة صادقة لاتمام هذا التحول دون أن نريق قطرة دم واحدة ، ومن غير أن يكفر بعضنا ببعض ويلعن بعضنا بعضا .

والآن . . وقد استبان لنا أن الخبز هو السلام . وأن مرد كل تأخر وانهيار وتذمر ، إلى الفقر وما يعانيه الشعب من خصاصـــة وحرمان . . فقد آن لنا أن نضع أقدامنا على الطريق الذى يفضى بنا إلى الغاية النبيلة التى يتحق ببلوغها معنى وجودنا وحياتنـــا ــ فأين هذا الطريق . . ؟

* * *

لا شيء سوى الأشتراكية :

عندما نزلت عبارة « العدالة الاجتماعية » ضيفاً على مجتمعنا المصرى عقب الحرب .. وأخذت ألسنة المواطنين تتداولها ، وتتلمظ بها ، كنت أجد لها طعما لذيذاً ، وجرساً منغما عذباً دون أن أعرف حقيقة مدلولها ، وما تمثله من نظم ومناهج .. حتى رأيتها تجرى على ألسنة الطبقة الكانزة التى يشكو المجتمع من استغلالها وجشعها وكرازتها ، وسمعت قوارين هذه الطبقة ورؤساؤها يرددون فى ضوضاء وصخب نفس العبارة التى يرددها المحرمون وهى « نريد العدالة الاجتماعية » فبدأت أشك فى مدلولها ومعناها .. وقررت أن أقف على تفسير علمى صحيح لها خشية أن نكون قد وقعنا فى غرام هدف يضرنا ولا ينفعنا ! .. فألفيت الراسخين فى العلم يعرفون العدل الاجتماعى بأنه « طائفة من المبادى والنظم التى ثبت بالتجربة أن المنفعة الاجتماعية تبلغ بها حدها الأقصى ، والتى اعترف الناس بأن لها من الأهمية ماينسخ جميع الاعتبارات الوقتية » .

ويظهر أن زعماء الرجعية الاقتصادية لا يعنون بالعدالة الاجتماعية هذا الذى عناه العلماء .. وإلا ماتادوا بها ، وأنهم يهدفون بترديدها والهتاف بها إلى مدارة الوعى ، وملء قلوب الشعب بالمنى والآمال

والآن .. نستطيع أن نطرح هذا السؤال :

هل العدالة الاجتماعية روسية الجنسية ، ماركسية الدم ؟ . أم هى فطرة أحست بها الانسانية منذ أحست بوجودها ، ومنذ سمعت وجيب الوعى والحياة يخفق بين جنبيها .. ؟

وهو سؤال نوجهه لأولئك الذين يرجفون بالتهم على كل من يرفع عقيرته مستحثاً سير الإصلاح فى بلادنا الحبيبة . . حتى إنهم ليعتبرون كل كلمة من أجل المساواة والعدل . نفثة من نفثات ماركس وآية من إنجيل الشيوعية . . ناسين أن أراجيفهم هذه تفيد الشيوعية ذاتها ، وتضفى عليها ألواناً زاهية من التكريم ، وهى فى نفس الوقت لن توبق رواد العـــدل الاجتماعى عن غايتهم — لأنهم يؤمنون به وبالشعب إيمانا لا يوهنه عواء الذئاب .

* * *

إن التاريخ الإنسانى مترع بالمحاولات التى بذلها العقل ليخرج العدالة فى أحسن تقويم وأوفى نظام .. وما من رائد حر مر بالتاريخ إلا وقد خلف وراءه آثار كدحه فى سبيل الظفر بمستوى أرقى ، وتعاون أسمى ، للبشرية جميعها .

وفى كفاح موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، نرى التحاما شاقاً مستمراً بينهم وبين ذوى الأنانية المفرطة . . وتبصر فيضاً من التوجيهات الداعية إلى تنفيذ مشيئة الله فى أن يعيش الناس إخوانا وسواسية .

إذن فالعدل الاجتماعى ، والاشتراكية ، التى هى أصدق مظهر له — فطرة عريقة يحسها الجنس البشرى كله إحساساً قوياً واضحا ، وليس ضربة لازب أن يكون المؤمنون بهما الداعون إليهما ، بلاشفة يعذبون ويضطهدون . . !

ولنعد لتعريف العدل الاجتماعى مرة أخرى . . ، طائفة من المبادىء والنظم ثبت بالتجربة أن المنفعة الاجتماعية تبلغ بها حدها

الأقصى . . . ، ثم لننظر ذات اليمين وذات الشمال باحثين عن النظام أو المبدأ الذى يحقق هذه الغاية .

لقد انعقد إجماع العالم المتحضر كله على ان النظام الذى تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدها الاقصى ، فى الوقت الحاضر - هو الاشتراكية - ويتجلى هذا الإجماع العالمى الرشيد فى اخذ الدول الناهضة جميعها بهذا النظام ، وتطبيقة على مجتمعاتها تطبيقا قد تختلف وسائله .. ولكنه فى شتى مظاهره يفضى إلى غاية واحدة . وان مواكب الأمم الراقية لتتخطف الأبصار وهى سائرة فى طريقها إلى قمم الاشتراكية العليا دون أن تتهم نفسها ، أو يتهم بعضها بعضا بتلك التهم المعروفة التى نملك منها رصيداً ضخما . !

اترون انجلترا شيوعية - وهى التى صعدت بالضريبة التصاعدية إلى ٩٤ ٪ ، وراحت فى سرعة البرق تؤمم الملكيات الإنتاجية الكبرى . . ؟

ام ترون امريكا شيوعية — وهى التى لايقل ادنى مرتب لأدنى فرد فيها عما يعادل عندنا خمسين جنيها مصريا . . !

لنذكر جيداً هذه الحقائق الثلاث :

اولا — ان العدل الاجتماعى ضرورة لازمة نادى بها الشعب والحكومه ، واتفق المجتمع كله عليها .

ثانياً — ان العدل الاجتماعى هو النظام الذى تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدها الأقصى .

ثالثا — أن النظام الذى حقق هذه الغاية فى الفترة الحاضرة هو الاشتراكية . . ولا شىء سواها .

أما سياسة « الترقيع » التى نسير عليها . . مثل صرف إعانات الغلاء . . أو بدل تفرغ . ، أو « بدل شحاذة » كما عبر بعض الموظفين . . فإن ذلك كله وإن كان يخفف من خفق الصداع وآلامه إلا أنه لن يستأصل شأفه العلة الخبيثة والمرض الدفين . . ولا شىء يحسم هذه الفوضى التى نعانيها مثل أن نخطو خطوة كتلك التى خطتها انجلترا مثلا ، فتتحول من مجتمع رأسمالى متطرف إلى مجتمع اشتراكى معتدل ، تنتظم الاشتراكية كل مرافقة أو جلها . وتتحرر فيه قوى الإنتاج المحبوسة فى أيدى الرأسماليين المتطرفين . وطبيعى أننا لن نجد من الدين ولا من العقل ولا من الظروف معارضة لهذا التحول الرشيد — بل سنجد منها جميعاً ولا سيما الدين ، عوناً وتعضيداً . . فإن كل توجيهات الرسول لتنزع إلى الاشتراكية فى كل نظام يبتكره الناس ويحقق منافعهم ومصالحهم . ولطالما كان عليه السلام يقول : (ان الأشعريين كانوا إذا أرملوا فى غزو أو قل فى أيديهم الطعام . جمعوا ماعندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه فيما بينهم ، فهم منى ، وأنا منهم) :

فلنخط هذه الخطوة الأولى فى شجاعة وثقة ، فإن من ورائها المجد والعافية والسلام :

من هنا تبدأ اشتراكيتنا :

منذ أربعة أعوام وقف « إريك جونستون » رئيس الغرفة التجارية الأمريكية يومذاك . يلقى خطبة وداع نشرتها مجلة المختار فى

حينها . وكانت تلك الخطبة نصيحة نفيسة يقدمها للرأسمالية الأمريكية ، أحد أقطابها العاقلين . ولقد قال فيها : نحن نقول : اننا نؤيد تعزيز المكانة الاقتصادية للطبقة المتوسطة ، وهذا يعنى ان يقل عدد الذين فى الحضيض ، وعدد الذين فى القمة ، وان يكثر عدد الذين فى الوسط . إذن فما عيب تحديد حد أدنى للاجور يحفظ على الإنسان كرامته ؟ فهذه اذن وسيلة لرفع مستوى الذين فى الحضيض . أليست كذلك ؟ وهى أيضا وسيلة لزيادة عدد الذين فى الوسط ، ونحن نقول : انه يؤسفنا أن نرى الكساد فى الحين بعد الحين ، وتعطل العمال عن العمل فى فصول بعينها ، ونقول اننا نطلب عملا ثابتاً للعمال . اذن فما هو عيب الأجر السنوى ؟ إنه يكفل للعامل عملا ثابتا سنة كاملة ، أليس كذلك ؟ .

(ونحن نقول : نريد حقا أن نرى نعم الحياة اوفر أنتشاراً بين الناس . اذن فما هو عيب نظام المشاركة فى الأرباح ؟ وما هو عيب ابتكار الحوافز للعمال حتى يزيدوا انتاجهم — فيزيد ربحهم ، وربحك ايضاً ؟ .

(ونحن نقول : إننا نريد لجميع الناس بيوتا أفضل وتعليما أرقى وإننا نطلب مستوى صحيحا أعلى يكفل حسن العيش للجميع حين يتقدم بهم السن . وإننا نريد جميع أسباب الرخاء الحقيق لجميع الناس . .

(فإذا كنا نريد ذلك حقا ، فيجب أن تكون ثمة وسائل لتحقيقه

ولست أزعم أن الوسائل التى ذكرتها هى الدواء لكل داء ؛ بل أقول انها أشياء ينبغى لنا معشر رجال الأعمال أن نفكر فيها ، اذا اردنا أن نكفل لأنفسنا مستقبلا ، بما نكفله لسائر الناس من مستقبل ..

« ان تعريف الرأسمالية فى المعجم أصبح ميتا كالحيوانات المنقرضة: الرأسمالية حشد رأس المال ، نفوذ رأس المال متى انحصر فى أيدى رجال قلائل ..

(وقد عاش رجال الاعمال أمدا طويلا فى ظلال هذا التعريف وهو لاينطبق الا على مامضى من عهد السلب والنهب والسالبين والمحتكرين ..

أما الآن فقلبوا نظركم فى أرجاء الارض تروا ماتم فيها . فقد زالت الرأسمالية القديمة أو كادت — صفيت فى روسيا ، وهى فى حشرجة الموت فى أوربة ، وتكاد تختنق فى بريطانيا .

(ولقد كانت فترة رياستى للغرفة التجارية فترة تجربة ودراسة ، وقد اقتضانى عملى فيها أن اتجول فى أقطار الأرض ، فرأيت مصرع الرأسمالية بعينى رأسى ، وقداقتضانى عملى ايضا ان اتجول فى امريكا مراراً لاحصر لها فخرجت من رحلاتى كلها بهذه العبرة : اما ان نساير المبادىء الحرة ، وإما ان نواجه خطر الافتراض . هذا هو ناموس الحياة : المسايرة أو الافتراض) .

* * *

هذه الكلمات الصريحة الجليلة قيلت فى امريكا من رجل يمثل الرأسمالية تمثيلا عريقا . حتى لقد دفعه ولاؤه لها الى الحرص على اسمها ، فوضع مقترحاته السالفة ، ودعوته الجديدة تحت عنوان (الرأسمالية الجديدة) أو (الرأسمالية الديمقراطية) .

ونحن ننقل هنا هذا القدر الكبير من خطابه ليبين :

الأول — أنه شاهد من أهلها ان يعلن عهد الرأسمالية — عهد السلب والنهب ، والسالبين والمحتكرين . . قد مضى وتقوض .

الثانى — أننا ونحن نحاول الآن تقديم المواد التى تصاغ منها اشتراكيتنا — نفضل ان نعالج الموضوع بالطريقة التى عالجه هو بها — اذ حدد الأهداف التى يجب على المجتمع ان يسعى إليها ، وهى اهداف لاتنحرف عن صميم الاشتراكية قيد انملة — وان سميت بغير اسما . وترك الوسائل للمرونة والتجربة ، بشرط ان تنسجم مع المبادىء الحرة وتسايرها وتطابقها ، وضرب الأمثال ببعض الوسائل التى يراها ضرورية لتحقيق منفعة المجتمع كمشاركة العامل صاحب العمل فى الربح .

وهذا بالضبط مانريد الآن ان نصنعه — فبعد ان جددنا الهدف العزيز الذى ينبغى ان تعاون جميعا على بلوغه ، وهو الاشتراكية الوديعة الشاملة . لانرى ضرورة لالتزام نظام بعينه ، او الجمود والتعصب لوسائل معينة . ولا بأس ان نختار من الوسائل مايوائم مزاجنا وطبيعتنا مادامت تساير مبادىء التقدم والحرية ، وتفضى إلى تعزيز المكانة الاقتصادية للطبقات المهضومة . وعلى كل مواطن

ـ حاكما كان أو محكوما ـ أن يساهم فى البحث عن وسائل تحقيق هدفنا المشترك .

وإنا لنقدم هنا ما نعتقد أنه نقطة البدء فى كل اشتراكية صالحة ، ومالا يمكن فى نظرنا أن تقوم عدالة اجتماعية ، أو تشاد مدينة رشيدة إلا به .

وإذا كنا قد أتينا من قبل على العوامل الشريرة التى تعتاق نمونا ، أو تعكر سلامنا ـ فإن الوسائل التى نحبذها لتكوين اشتراكياتنا المنشودة . هى مايقابل تلك العوائق ، ويعمل فى الوجهة المضادة لها ، وتتلخص فيما يأتى : ـ

١ ـ التقريب بين الطبقات :

وذلك بمكافحة الحواجز التى تفصل بين أبناء المجتمع الواحد ، وتتيح لبعضهم كل الفرص ، وتحرم الاخرين منها . وإنى الان « ببعض » هذه الصفحات لأدفعها إلى المطبعة ، وأصوات باعة الصحف تجلجل وتدوى مبشرة الناس بإقرار مجلس الوزراء المشروع الجديد لإعانة الغلاء . . وإنها لخطوة جريئة موفقة تستأهل الحمد والشكر ـ فاليوم فقط سيتاح للموظف الصغير الذى نعيناه منذ قريب ، أن يحس أنه كائن حى موجود . . سيتاح له ان يتزحزح ولو قليلا عن شفا الهاوية التى كان يوشك ان يتردى فيها ، إذا لم تطارده الذئاب المسعورة من التجار الجشعين الذين يتربعون على عرش الأسعار ، يعزون بها ويذلون ، ويحيون ويميتون . . !

ولكن هذه الإعانة الضخمة رغم انها مفرحة ومرضية فهى غير

كافية .. ذلك لأنها أولا — لاتزال دون ضروريات ذلك المواطن الصغير . واما ثانيا ، فلأن المواطن المحروم لايتذمر لحرمانه فقط، بل هو على حد تعبير الأستاذ الكبير التابعى : « .. لا يقول أنا جائع . . وإنما يقول : أنت أيها الغنى تأكل أكثر مما ينبغى أن تأكل وتملك أكثر مما ينبغى أن تملك ، وتنفق على شهواتك اكثر مما ينبغى أن تنفق . . » .

لابد إذن من تقريب المسافات الشاسعة والمتاهات البعيدة التى تفصل بين الموظف الذى يتقاضى عشرة جنيهات ورئيس الوزراء الذى يتقاضى ثلثمائة جنيه . . والتى تفصل بين « فراش الأزهر » الذى يتقاضى حتى مع إعانة الغلاء الجديدة سبعة جنيهات وشيخ الأزهر الذى يتقاضى قرابة الف جنيه مابين مرتب وأوقاف ! .

إنا لنطالع بعيون مبهورة أخبار تلك الدول الرشيدة المتحضرة، فنرى الفارق بين اضخم مرتب فى الدولة وأصغر مرتب فيها لايزيد عن أربعة أمثال أو خمسة ، ففى سويسرا — مثلا — يتقاضى (الكنتاس) ما يعادل عندنا خمسة وعشرين جنيها ، ويتقاضى رئيس الجمهورية خمسة أمثاله فقط . وفى امريكا يتقاضى عسكرى المرور ما يعادل عندنا مائة جنيه وأكثر فى الشهر ، ثم يتقاضى ترومان اربعة امثاله أو تزيد قليلا ، وكذلك فى انجلترا وفرنسا وروسيا وفى كل مكان له من الحضارة والرقى حظ ونصيب .

فالخطوة التالية التى نرجوها بعد إعانة الغلاء الجديدة التى تميزت برفع مستوى الصغار دون الكبار ، هى التقريب بين المرتبات على أسس جديدة ، وذلك بتخفيض المرتبات الضخمة وإضافة الفرق

إلى المرتبات الصغيرة . . وسواء علينا أن يكون هـــذا الحل عظيم الفائدة المادية للموظف الصغير أو ضئيلها ، فإن أعظم ما سنجنيه من ورائه هو تصحيح وضع خاطىء قاس ؛ وهـو — كما قال (إريك جونستون) من قبل — سيقلل عدد الذين فى الحضيض ، وعدد الذين فى القمة ، وسيكثر عدد الذين فى الوسط . .

* * *

وكذلك لابد من تقريب المسافة التى تفصـــل بين من يملك عشرات الألوف من الأفدنة ، ومن لا يملك شيئاً . . بين من يملك قرية كاملة ، ومن يملك حفنات من تراب . . بين صاحب العمل الذى يذهب بكل الربح وكل الخير وكل الفائدة ، والعامل الذى يعود آخر النهار بيدين قد أجلتا ، وجسم يترنح من وطأة الإعياء . . وفى حديثنا القادم عن الملكيات الزراعية والصناعية سنقدم المقترحات التى تعيننا على التقريب بين الطبقات .

ولكننا قبل مغادرة هذا الجزء من الحديث ، نريد ان نلفت النظر إلى عنصر أصيل فى تحقيق المساواة ودك الحواجز الظالمـــة والفوارق العائقة . . ذلك هو تحقيق المساواة بين النـــاس أمام القانون ، فنحن نلاحظ أن الشريف الذى يختلس ويسرق لا يناله القانون بسوء ، بينما المواطن الذى تمتد يده لقروش تافهة يساق إلى مصير مظلم كله عذاب ونكال ، مردداً قول خليل مطران :

ما بين لصوص ولصوص فرق فى الأعلى والأدنى
لصغارهم الشنق المزرى وكبارهم الشرف الأسنى

وهذا التميز هو أخطر أنواع التمايز الظالم البغيض الذى يقضى على هيبة القانون وسمعته . ما أروع ذلك المبدأ الحر الذى أعلنه محمد بن عبد الله فى رحاب الجزيرة : « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها ! وحين جاءه أحد ولاته ، فرآه الرسول مشتملا ببردة جميلة نفيسة ، فسأله : من أين لك هذا ؟ فلما أجاب بأنها أهديت إليه قال له :

— أرأيت لو جلسب فى دارك لم تبرحها أكان الناس يهدونك شيئاً ؟ إن ما يأتيكم وأنتم لنا ولاة ، فإنما هو حق بيت المال . قم فأودعها فيه ! !

إن اللصوص الكبار أخطر على الأمة ، وعلى أرزاقها من صغار اللصوص , فالأولون يسرقون الملايين محتمين بالوظيفة الكبيرة التى يحتلونها ، أو بالجاه العريض الذى يشتملون به — وما قصة اسماعيل المفتش الذى كان يلقب بالخديو الصغير ، بغائبه عنا ولا بعيدة منا .

لقد كان وزيراً للمالية , وما إن طرده الخديو اسماعيل باشا . حتى اكتشف سرقة أربعين مليون فرنك من مال الدولة .

ولقد وصف قنصل أمريكا فى مصر آنئذ ، ملك هذا اللص العظيم ، فقال : لم يكن ملك سليمان يضم كل هذه القصور والحدائق والجوارى والمجوهرات) .

كان فى قصوره سبعمائة جارية ، وله ثلاثون ألفاً من أجود الأفدنة ، واشترى مرة لزوجه مروحة مرصعة بالجواهر استوردها من باريس بما يقرب من نصف مليون فرنك ، كل ذلك غير الأربعين

مليونا السابقة . .

أتظنون أن إسماعيل المفتش هذا ، قد مات ؟

لا . . . إنه لم يمت . . مادام يوجد بيننا من طرازه عشرات وعشرات .

إن قانون ، من أين لك هذا؟ ، هو الوسيلة الناجعة للمساواة بين المواطنين أمام القانون . وهو الكلمة الرهيبة التى ستجلجل فى روع اللصوص الكبار حين يحاولون السلب والنهب ، فيكفوا أيديهم خوفاً وحذراً — فأين هذا القانون ، وما مصيره ؟

إن الحاكم النزيه هو وحده القادر على أن يجعله حقيقة ماثلة ونافذة وصارمة . فأين هذا الحاكم لنحييه تحية الولاء والإعجاب ؟

* * *

ب — مشروع محمد خطاب :

وتبدأ اشتراكيتنا كذلك بتحديد الملكيات الزراعية ، وتغيير الأوضاع الإقطاعية تغييراً يمكن رقيق الأرض من التحرر والخلاص وصحيح أن الحكومة بدأت تستصلح بعض الأرض وتبيعها للفلاح بيعاً يشبه المنحة والهبة ، وهى خطوة محمودة أيضا ، بيد أنها لن تمحو عن مجتمعنا وصمة الإقطاعية المقيتة ، ولن تقدم للظامىء السغبان إلا قطرات لن تبلغ فاه ، ولقيمات لاتقيم صلبا ولا أوداً .

ولقد زال السبب الذى من أجله قسمت الإقطاعيات الزراعية قسمتها الأولى . . يوم كان الفلاح عاجزاً عن زراعة المساحات الواسعة ، وكان تعداد الفلاحين نزراً ضئيلا .

اما اليوم فكل فلاح قادر على أن يزرع . وهو يريد أن يطلع عليه نهار غده ، وفى يده عشرة أفدنة أو خمسة ، يعمل فيها سيداً ، لا عبداً

ولا أجيراً . فلماذا لانمكنه من هذه الرغبة فيسترد كرامته وشخصيته ، ويبذل من الجهد الرضى مايبنى ثروة الوطن ويضاعفها ؟

لماذا لانصنع كما صنعت تركيا العاقلة التى اشترت حكومتها الاقطاعيات الكبرى ؛ ثم باعتها لفلاحين ، وقسمتها عليهم قسمة عادلة فاضلة مرضية ؟

ان لدينا مشروعا (جاهزا) هو مشروع محمد خطاب بك الذى أعلنه تحت قبة البرلمان وهو أحد شيوخه الموقرين ، وأبلى فى الدفاع عنه أحسن البلاء . ونستطيع ان نعدله فنرفع الحد الأدنى خمسين فدنا أخرى اذا كان ذلك يقنع الإقطاعيين ويرضيهم .

لابد من تصفية هـــذه الاقطاعيات عن طريق الحكومة . . ونحن نؤمن بواسطة الاستقراء . أن تصفيتها آتية ولاريب فيها . وهذه الشمس ـ شمس مصر الصافية الجميلة ستشرق يوما ، وقريبا جداً ، على المزارع المثبوثة فى أرض الوادى الأخضر . تمثل سيادة الفلاح . وترمز الى تحرره واستقلاله . . فلماذا اذن نرجىء هـذا اليوم الجميل ؟

فلتقدم الحكومة ، أو ليتقدم البرلمان ، أو ليتقدما معا .

ان وثيقة الرق التى ستسجل نهضة مصر الحقيقية ، لاتزال بيضاء خافقة ـــ تنتظر الحكومة المخلصة القوية التى تكتب فيها هذا السطر الواحد : لاملكية زراعية فوق المائة فدان .

هذا السطر الذى سيدفع الوطن مائة عام الى الأمام ، والذى سيحقق لسكان أربعة آلاف قرية تكافؤ الفرص قدر المستطاع ،

والذى سيثمر منافسة عادلة وهائلة ، يخفى فيها الغلاء ويمهد لتحسين أحوال المعيشة فى الأمة كلها .

ج ـ تحديد الإيجارات الزراعية فوراً :

واذا لم يستجب أولو الأمر لهذه المشيئة التى أجمع عليها الشعب ورأوا الأسباب مفتعلة ان يرجئوها ، فسنأنف الى حين ، على الفرصة الخالدة التى يزهقونها .. وعليهم فوراً باسم الشعب الذى حباهم بثقته وتأييده ، أن يرفعوا عن الفلاح ذلك الإصر المبهظ الثقيل ـ إصر الأجارات الزراعية الطائشة الجشعة الآن لاغداً .

فربما فات قوما جل أمرهم من التأنى وكان الحزم لو عجلوا

* * *

من هم هؤلاء الذين يعيشون هناك ، وراء الستار الحديدى للتفاتيش والضياع ، ويوقعون الإجارات على بياض ، وتفيض أعينهم من الدمع حزنا ، ألا يجدوا ما ينفقون ..!؟

إنهم آباؤنا ، وأمهاتنا ، وإخواتنا .. إنهم ذخر هذا البلد وشرايينه وحياته ـ وسوف يستروحون نسمات من الراحة إذا نحن ذكرناهم فى كفاحهم المضنى وشقائهم الرهيب ـ فقدمنا لهم هذه الخدمة اليسيرة وهبطنا بأجور الأرض التى يستأجرونها إلى حد مستطاع معقول .

فلنصنع كما صنعت سويسرا إذ ألفت لجاناً فنية قسمت أرضها الزراعية إلى اثنى عشرة طبقة ، ثم جعلت لكل طبقة منها أجراً معلوماً .

ولنصنع كما صنعت « ايرلندا » التى أنشأت محاكم خاصة لتشرف على تنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر ، وتفصل فى كل نزاع يقوم بينهما ، وتتفرغ لمراقبة المالكين حتى لايتحايلوا على القانون ويستغلوا المستأجر استغلالا غير مشروع .

ما أيسر هذه الخطوة ، وما أجل نفعها . فهل نبخل بهـا على ملايين المواطنين الذين يهبوننا الحياة . . ؟

وهناك اقتراح آخر — عظيم الفائدة — للأستاذ توفيق الحكيم فلقد كتبت إليه فى (يونية سنة ١٩٤٨) كتاباً خاصاً بموضوعنا هـذا ، وكنا يوم ذاك فى موسم الحصـاد الذى أحالته الإجارات المرتفعة إلى (مأتم الحصاد) فنشر الرسالة وعلق عليها باقتراحه الجميل — وهذه هى رسالتى إليه :

(. . من هو بطل المعركة فى فلسطين ؟ ومن الذى يصنع هناك المعجزات ، ويشترى المجد بدمه وعصبه وحياته ؟ . . أليس هو جندى الجيش ؟ . . إن جنود الجيش هؤلاء ، هم أبناء خمسة عشر مليوناً من الفلاحين الذين يجتازون اليوم محنة جاوزت طاقتهم . . خمسة عشر مليونا كتب عليهم أن يموتوا كل عام مرتين . . ومتى ؟ فى موسم الحياة والنشور ! . . فى موسم الحصاد . . إنك لو هبطت اليوم أغلب تفاتيشنا ، لهالك منظر خفرائها وهم يكنسون القمح من (الأجران) كنساً . . ويأخذونه نظير الإيجار ، دون أن يتركو قمحة واحدة لذلك الذى سقاها بدمه وعرقه . . ولسنا بالطبع نطالب أصحاب هذه التفانيش أن يتبرعوا بالإيجار . وإنما نرجوهم وقد دعينا إلى الترفيه عن جيشنا العظيم ، أن يعلموا أن أكرم ترفيه

عن الجنود هو البر بآبائهم وأهليهم ، وذلك بعـــدم ارهاقهم فى التحصيل ..»

ونشر الأستاذ الكبير هذه الرسالة بالعدد (١٩٠) من أخبار اليوم - ثم علق عليها بهذا الرأى :

(إذا كان القانون لايجيز الحجز على كل مرتب الموظف ، بل يترك له قدراً يمكنه من العيش ، فماذا يمنع من سن مثل هذا القانون بالنسبة الى الفلاح الذى يعمل فى الأرض : . لماذا لاتعتبر الدولة أن الفلاح الذى هو عماد الثروة القومية شبيه بموظفيها ، فتترك له قدراً من المحصول يقتات به ، تخرجه من نطاق الحجز ، ومن حساب السداد . يوم تسوء الحال ، ولا يستطيع المحصول أن يفى بقيمة الإيجار ..؟

(لقد آن الأوان أن ننصف الفلاح وأن نعنى بمعاشه ، وأن نحوطه بشىء من الحماية . فقد انقضى العهد الذى يقال فيه للفلاح: « يهمنا كيف تسدد ولا يهمنا كيف تأكل ! »

* * *

والآن - تستطيع وزارة المالية أن تثبت فائدتها للفلاح بالذات فتستصدر تشريعاً يجعل جزءاً كافياً مما تخرجه الأرض ، منطقة حرام لاتقبل الحجز ولا المطاردة ، وأن تستصدر أيضاً التشريعات التى تحدد اجارات الأطيان وتخفضها مستهدية بالاجراءات التى اتبعتها دول ناهضة والتى ذكرنا بعضاً منها

ونحن نعلم أن (الاقطاعيين الزراعيين) من كل حزب وقبيل ، يقفون بالمرصاد لكل محاولة من هذا النوع — ولكننا نعلم أيضا

أن الحكومة المؤمنة بشعبها ، لايزيدها هذا التربص إلا عزما وإصراراً .. ونعلم أيضاً أن الحكم الذى يشايع هوى هذه الطائفة ويتسم بسيماها ، لابد أن تذهب ريحه ويصير من الخائبين .

وإنا لنرجو أن يفيء سادتنا إلى ضمائرهم ، وأن يهبهم الله من صحة العقل ، وصحة العاطفة مايذكرون به أن الوقت الذى نعيش فيه أسرة واحدة قد آن أوانه ، وأن لكل كائن حى ، حقا فى أرض الله وسمائه .. وان الله ذاته هو الذى سجل هـــذا الحق فى وثيقة خالدة حين قال : (وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه).

أفيستطيع كائن من كان من البشر ، أن يحتكر لنفسه ، ولحسابه الخاص ضوء القمر ، وحرارة الشمس . والسحاب الثقال .. . ؟ إن منافع الأرض مثل ذلك ، لاينبغى ان يحتكرها لانفسهم طائفة ثم يحرم منها بقية الناس .

* * *

د — التأميم .. وحقوق العمال .

ومن الوسائل التى لا مناص من الأخذ بها لنتحول الى مجتمع اشتراكى رشيد — تأميم مرافق الدولة قدر المستطاع وصيانة حقوق العمل

ولقد رأينا من قبل ، كيف طبقت حكومة العمال فى انجلترا سياسة التأميم على نطاق واسع ، والآن وهى تتقـــدم الى الشعب الإنجليزى طالبة ثقته فى الانتخابات ، لم تعده بأكثر من أنها ستستأنف سياسة التأميم على نطاق أوسع . إن التأميم هو الوضع

الطبيعى الذى ارتضاه ،وسارع اليه المجتمع الإنســـانى . وفى ظله ينعدم التفاوت البعيد بين دخول الأفراد ، وبين الأغنياء والفقراء. لأنه يعنى (نقل ملكية الانتاج الى الدولة ، وتحرير قوى الانتاج المحبوسة فى ايدى الرأسمالية والقضاء على الفروق الاجتماعية والتفاوت الكبير فى الدخل المالى . .)

وكثيرا ماتزعم الكهانة ان نقل ملكية الانتاج الى الدولة مخالفة محظورة ، وخروج على تعاليم الدين . فهل هذا الزعم صحيح ،وهل سياسة التأميم تعنى هدم الملكية الفرديه ؟

اننا لكى نجيب على هذا الزعم ونفنده . ينبغى أولا ان ندرك الفارق بين حق التملك ، ونوع التملك .

فالأول ، وهو حق أو مبدأ الملكية الشخصية ــ أمر مفروغ من ثبوته شرعا وعقلا وعرفا . وكل بلاد العالم قاطبة تحترم هـــذا الحق وتعترف به لرعاياها ومواطنيها .

ولكن الثانى ــ أى نوع الملكية ـ هو الذى يخضع لظروف الأمة ، وتطوراتها الاجتماعية . فيتحرك ويتغير حسب الحـــاجة والظروف . فاذا اختارت حكومتنا مثلا نوعا معيناً من الملكية ، وهو الملكيات الانتاجية ، وحررته من ايدى الأفراد ، وأشرفت عليه لصالح الأمة ـ فإن الدين يبارك هذا التصرف ويؤيده .

ونحن نعلم ـ والكهنة أيضاً يعلمون ـ أن الاسلام لايحـــرم فرض الضرائب التصاعدية : ولا ضرائب التركات :ولا تحديد الملـــكية الزراعية مثلا . . مادام ولى الأمر يرى مصلحة المجتمع وتقدمه فى ذلك . مع أن هذه الضرائب : ولا سيما ضريبة التركات

اقطاع لجزء من حق متملك لصاحبه . واذن فما نجيزه على بعض الشيء لصالح الدولة نجيزه كذلك على الكل .

ولكى تستبين وجهة نظر الدين فى الفارق بين حق الملكية ونوعها ، نضرب هذا المثل :

أراد (زيد) من الناس أن يحوز لنفسه قصراً ويمتلك عربة من أحدث طراز ، وطائرة خاصة تحلق به فى جو السماء ، ومن وراء هذا كله رصيد دسم فى أحد المصارف . فهل يحرم الاسلام امتلاك هذه الأشياء مادام قد جاء بها من طريق مشروع ؟ ـ طبعاً لا .

ولكن اذا أراد هذا (الزيد) أن يمتلك خمارة مثلا ، أو حظيرة مترعة بالخنازير . والمفروض فيه انه مسلم ، فهل يحل له هذا الامتلاك ؟ طبعاً لا ـ لأن طريق التملك والتمليك هو البيع والشراء ، وهذه محظورات حرم على المسلم بيعها وشراؤها : فأنى له امتلاكها ؟

ومن هذا المثال ندرك أنه اذا كان مبدأ الملكية ثابتاً للفرد ، فان نوع الملكية متحرك ، يخضع لأحكام الإباحة والتحريم ، فيباح للفرد بعض أنواعها ، ويحرم عليه بعض آخر . ومن المعلوم ان حكم الحاكم ، ولا سيما فيما يتصل بشئون الدنيا ونظمها ، يتمتع بمثل سلطة الحكم الشرعى من حيث النفوذ والاحترام ـ فإذا رأى ، كما ذكرنا من قبل ، أن يجعل ملكية الإنتاج حقا للدولة وحدها ، ويحرم منها الأفراد ، كان ذلك جائزا ، وكان شرعا ودينا .

لقد أذن الله ورسوله ، من يحتكر من أرزاق الناس اقتراح

قمح ، أو أرطال زيت ، باللعنة الماحقة ، فكيف لا يغضب على الذين يحتكرون ينابيع الحياة ووسائل الإنتاج احتكاراً يفوت على الدولة أغراضها ومصالحها . . . ؟ !

* * *

وحين تصبح لنا سياسة تأميمية نافذة ، فإن حقوق العمل ستصان فى ظل هذه السياسة ، وما أجمع هذه الكلمة التى قالها الرأسمالى الأمريكى « إريك جونستون » :

« إن الحكم فى دولة ديمقراطية هو حكم الأكثرية ، فينبغى للأكثرية ، وهم العاملون ، أن تحس أنها تنال قسطها من الربح فى نظام قائم على مبدأ الربح ، فإن لم تحس ذلك فربما رأت أن تعمل على قيام نظام آخر » .

وإن الحكومة لتؤدى خدمة كبرى — لنفسها ، وللوطن — إذا أتاحت للعامل الزراعى فرصة التكون ، فتتولى تأليف نقابات لهم تضم جميع العمال الزراعيين فى القرى ، وتدربهم على نظمها ، ليشبوا عن طوق الجهالة والخمول والبدائية . وتبدأ من فورها هذه بتجربة نظام المزارع التعاونية وتعاونها بالارشاد الفنى والقروض والآلات ، فإن الأمم التى جربت هذه الخطوة تشهد بنتائجها الباهرة وأثرها فى « تحسن مقدار الإيراد ، وفى زيادة مساحة الأرض المزروعة ، وفى التوسع الكبير فى استخدام الآلات وتطبيق الأساليب العلمية فى الزراعة وازدياد الانتاج » .

*

وبعد . فلسنا نزعم أننا نقترح هنا منهجاً اشتراكياً كاملا ، إذ

أن هذا العمل فوق طاقتنا واستعدادنا . ولسنا نزعم أيضاً أن هذه الوسائل التى تحدثنا عنها ، وطالبنا بأن تبدأ بها اشتراكيتنا ، هى وحدها العلاج الشامل لأمراضنا — ولكنها فقط خطوات أولية تفضى بنا إلى اشتراكية سايغة واضحة المعالم ، محددة الأهداف .

وفائدة هذه الوسائل الأولية من الوضوح بحيث لا نحتاج لكى نملك حق الحديث عنها والايمان بها والدعوة إليها . إلى أن نحمل دكتوراه فى « الاقتصاد السياسى » . فلهؤلاء العلماء الاقتصاديين نترك تفصيلات هذه المبادئ وتطبيقها التطبيق الرشيد . بما لديهم من مقدرة كافية لادراكها وجعلها حقائق ماثله ووقعا ملموسا

وأخيراً . . قفوا هذا السيل !

والوسيله الأخيرة التى لابد منها لتنفيذ نهج اشتراكى صحيح ، هى تحديد النسل وتنظيمه .

وقد يسأل سائل : ماعلاقة الاشتراكيه بتحديد النسل ؟

وجوابنا أن لها به أوثق الصلات . ولاسيما حين يراد تطبيقها فهى مجتمع كمجتمعنا الذى يغمره طوافان من السيل البشرى ، يتدفق من الأرحام بغير وعى وبلاحساب .

فالاشتراكية هنا يجب أن تنظم شيئين :

ا — تنظيم الإنتاج المادى .

ب — تنظيم الانتاج البشرى .

وإن أى تفاوت يقوم بين الانتاجين ليسبب للامه متاعب مضنية — من أجل ذلك يصبح حقاً لزاما على المجتمع لكى يسعد —

أن يعرف واجبه إزاء هذه المشكلة ، ويؤديه على خير الوجوه وأتمها .

وإذن . فنحن نتوجه بالحديث الآن إلى المواطنين ، فعلى كواهلهم وحدهم يقع عبء مكافحة هذا الطوفان . . وهنا حقيقة ينبغي أن تعرف جيداً . هي أنه لا أمل مطلقاً في تحسين مستوى المعيشة بيننا ما دامت نسبة المواليد تتزايد تزايداً فاحشاً ، حيث يهبط على المجتمع أربعمائة ألف نسمة كل عام ، وهو غير مستعد لاستقبالهم ، ولا قادر على رعايتهم — ولولا كثرة الوفيات بين أطفاله لأصبحت الحياة فيه ضرباً من الخرافة والفوضى والمحال .

وموطن الخطورة في هذه المشكلة ، أن المجتمع لا يعرف عنها شيئاً ، ولا يدرك قط أنه أمام كارثة تهدد رقيه وسعادته .

فما على أحدنا إلا أن يتزوج ، ثم إذا هو وزوجه « معمل تفريخ » يضرب الرقم القياسي في إنتاج البنين والبنات — ولا يحاول الوالدان أن يفكرا : هل لذريتهما الوافده مكان في المجتمع أو ليس لها فيه مقام ، وهل يملكان من الفرص والإمكانيات ما يسمح للضحايا بالحياة أو هما لا يملكان ؟ !

وإن مقارنة بسيطة بين بعض قطرات نمونا ، ثم بيننا في نسبة النمو ، وبين الأمم الأخرى التي لديها من الموارد أضعاف أضعاف الذي لدينا . لتفتح عيوننا على خطورة هذه الفوضى التناسلية التي نمارسها وننميها ؟

فبينما زدنا في الأربعين عاماً من سنة « ١٨٩٧ » الى سنة « ١٩٣٧ » ، مليونين فقط ، اذا بنا نزيد في الأعوام العشرة من سنة « ١٩٣٧ » الى

سنة ١٩٤٨ خمسة ملايين مرة واحدة ! ونحن ننقل هذه الأرقام عن مقال نشرته جريدة « الزمان » للدكتور محمد عوض بك ، الذى ذكر أيضاً ، أن نسبة المواليد فى مصر اعظم منها فى اى قطر آخر ، وان النمو فى مصر يعادل ضعف النمو فى الولايات المتحدة ، رغم ما تزخر به من موارد ضخمة ، وذهب كالجبال !

وإنا لنتساءل مرة أخرى ، لو لم تكن نسبة الوفيات عندنا على نسبة فى العالم . . . فكم كان تعدادنا سيبلغ اليوم ، وكيف كنا نعيش . . . ؟ !

إننا امام نمو غير طبيعى يشبه مرض « نمو العظام » . . وكلاهما قد يعجب الناظرين . . بيد انهما يخفيان وراء المظهر علة فاتكة ، ووباء جاحا مستطيراً .

ولقد قرانا أول هذا الفصل ، كلمة للعالم الكبير « سير جون وليد أور » ، والآن لنستمع إلى فزعه الأكبر من التضخم المنتظم فى شكان الكوكب الذى نعيش فيه ، فى الوقت الذى تفقد فيه الأرض بسبب عوامل التعريه واضمحلال ملايين الأطيان من طينتها الطيبة الخصبة فيقول :

« . . إن استهلاك الفرد لا يمكن ان يبلغ مستوى ما كان عليه فى عام « ١٩٣٨ » ، وذلك لأن سكان العالم زادوا اليوم مائة وخمسين مليون نسمة ، عما كان تعدادهم منذ عشر سنوات ؛ وفى السنين الأربعين او الخمسين القادمة سيزيد سكان العالم زيادة تتراوح بين خمسمائة مليون والف مليون نفس يجب ان يطعموا . . . والموارد التى تمدنا بالغذاء تسير إلى التلف بسرعة كبيرة ، فان عوامل التعرية

والاضمحلال تأكل من الأرض سنويا ملايين الأطنان من طبقتها الطيبة فى كل قارة وتقذف بها إلى البحر . فنحن إذن نعيش على كوكب منهوب .. (١) »

فهذه النظرة التى ينظر بها العلم إلى مستقبل العالم هى التى يجب أن ننظر بها إلى مستقبل مجتمعنا المصرى .

إن النسبة بين عدد السكان عندنا وبين مواردنا صاعقة لا نكاد نطيق سماعها ومرآها . فالأرض الزراعية التى كانت مصر تستثمرها وتعداد أهلها خمسة ملايين .. لاتزال هى التى تزرعها اليوم وتعداد سكانها عشرون مليوناً ..! مما جعل البطالة ، والإملاق ، والمرض حلفاء مخلصين لمجتمعنا .

ونحن نعلم أن منشأ هذه الفوضى التناسلية ، راجع إلى سوء فهم الدين والقدر والتوكل — مما يدعونا الى إعلان وجهة النظر الدينية فى هذه المشكلة الرهيبة فنقول :

إن الإسلام يبيح التحكم فى النسل لصالح المجتمع ولصالح الفرد ؛ ويعد الإسراف فيه — مع وجود الخصاصة والضيق — ضربة من البلاء لا يطاق ..

ففى حديث كريم ان النبى ، عليه السلام ، كان يكثر من هذا الدعاء :

« اللهم إنى اعوذ بك من جهد البلاء » .

---

(١) من خطابه الذى القاه بمؤتمر منظمة الشعوب المتحدة للغذاء والزراعة المنعقد بوشنطن فى ابريل سنة ١٩٤٨ وكان هو رئيسه العام ، وقد نشرت الصحف هذا الخطاب فى حينه .

قيل : وما جهد البلاء يارسول الله ؟
قال : قلة المال ، وكثرة العيال .

وسئل عن العزل فقال : «لا عليكم ألا تعزلوا» .

والعزل يومذاك كان الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها التحكم فى النسل وضبطه ، وقد أباحه الرسول بلافيدكما رأينا فى الحديث السابق وكما سنرى فى الأثر الآتى — وكلها دونتها وذكرت أسانيدها كتب السنة الصحيحة .

روى انه جلس إلى عمر — على والزبير وسعيد ونفر من أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم ، فتذاكروا العزل . فقال : لا بأس به . فقام رجل وقال : إنهم يزعمون أنها الموءدة الصغرى . فقال على رضى الله عنه : لا تكون موءدة حتى تمر على التارات السبع : تكون سلالة من طين ، ثم تكون نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاما ، ثم لحماً ، ثم تصير خلقا آخر . فقال عمر رضى الله عنه : صدقت اطال الله بقاءك .

وإذا كان الإسلام يبيح العزل — وهو حيلولة بين الحيوان المنوى وبين الوعاء الذى يتجمع فيه وينمو ويكون شخصيته التى تصبح فيما بعد إنسانا — فإنه يبيح بالقياس على ذلك كل وسيلة أخرى مستحدثة .

وكثيراً ما يخطر ببال السذج من الناس أن التحكم فى للنسل لا يتفق والثقة بالله والإيمان به ، وأنه ما من نفس أراد لها الله أن توجد إلا وستوجد ، شئنا أم أبينا . ونحن نتفق الشطر الأول من اعتراضهم ، ونوافقهم على الشطر الأخير . بيدأننا نلفت أنظارهم

إلى أن الإيمان بوجود من أراد له الله أن يوجد ، لا يتعارض مع دعوتنا إلى التحكم فى النسل وضبطه .

فنحن نؤمن حين يطوف بالناس وباء أنه ما من نفس كتب الله لها الموت به إلا وسوف تموت .. وما من أخرى قدر الله لها البقاء إلا وستبقى .

ثم لا يمنعنا إيماننا هـذا عن تعبئة كل القوى لإبادة الوباء ومطاردته ، وهذا هو نفس موقفنا من وباء الطوفان الآدمى الذى يوشك أن يجرف المجتمع ويلقى به فى ساحل الفوضى والإملاق إن لم يكن قد جرفه فعلا .

فاذا ما كنت فرداً عاقلا ، ومواطنا صالحاً ـ كان جديراً بى ألا أخرج للحياة عن طريق أكثر مما تطيقه ظروفى ، وتقدر عليه فرصى وإمكانياتى ... وإذا ما تحكمت فى النسل بكل الوسائل الناجعة ثم فاجأنى القدر بمصيبة .. أعنى بمولود .. فما باليد آنئذ حيلة .. لقد سار كل واحد منا ـ أنا والقدر ـ فى طريقه .. وأديت واجبى الذى فرضه على العقل والدين ، ونفذ القدر مشيئة عليا ليس إلى تعويقها من سبيل .

° ° °

ان لأبناء نعيم وفردوس ومتاع للوالدين أى متـاع ، وعتاد للوطن ما بعده من عتاد .. اذا اتسقوا مع زمانهم ، ولم يكونوا فوق مستوى طاقة أهليهم ومجتمعهم . اذا مرضوا عولجوا ، واذا طلبوا وجدوا ـ لهم من الحياة ما يشاءون ، وأكثر مما يشاءون :

أما حين يتدفقون كالسيل المنهمر ، فإنهم يكونون لعنة على

أنفسهم ، وشقاء لآبائهم ، ولوطنهم . وعندئذ تتجاوب أنحاء المجتمع بشهقة أبي العلاء المعرى :

هذا جناه أبي على وما جنيت على أحد

وبصيحة شاعرنا المصرى « أبي الوفاء » :

أبي ، وفي النار مثوى كل والدة ووالد أنجبا للبؤس أمثالي

وقد يظن مواطنونا الصالحون أنهم بهذا الفيض الآدمى الذى ينتجونه ، يستجيبون للرسول القائل : « تناكحوا ، تناسلوا ، فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة » .

وإذن فهم ينسون ، أو يجهلون ان الرسول نفسه ، تنبأ بهذا الغثاء وأنكره وقال : « تردون على حوضى يوم القيامة ارسالا وأنما فأقول بعداً بعداً ، سحقاً سحقاً » !

وهذا الطرد الذى ستحظى به الملايين الكثيرة يوم القيامة يبين ان موضوع المباهاة ليس العدد — بل القيمة ، والأهلية ، والصلاحية .

فلنثب إلى رشدنا ، ولندرك جيداً أنه إذا كان إنجاب الذرية قدراً نافذاً ، فإن التحكم فى هذا الإنجاب قدر نافذاً أيضاً — وعلينا ان نصنع كما صنع عمر ، حين فر من قدر إلى قدر . . فلنفر من قدر يرهقنا ويضنينا ١٠. إلى قدر ينعشنا ويحيينا .

° ° °

ولابد مع تحديد النسل من تنظيمه، والفرق بين الاثنين واضح: والأول يعنى الكم ، والثانى يعنى الكيف، وكلاهما ضروريان لسلام المجتمع وسلامته .

والمواطن الصالح لا يقبل أن يكون أبا ، وزوجا ، وهو يحمل مجموعة من الأمراض والأوتئة ، يعلم أنه سيورثها لعقبه وذريته ، وإن الدين والعقل والصالح العام والخاص : ليفرضون علينا وجوب التحرر من المرض قدر المستطاع قبلما نحاول أن نصير آباء أو أمهات ، وأن نتوجه إلى مكاتب الكشف الطبي في غبطة وشجاعة ، قبلما نحاول أن نكون أزواجا أو زوجات .

وإذا كان العقل البشرى قد رأى منذ آلاف السنين ، أن يقتل الطفل الضعيف المريض ليتخلص منه ، فليكن سبيلنا اليوم ، ألا نوجد هذا الطفل الضعيف المريض — وهو ما نعنيه بتنظيم النسل .

صحيح أن كثرة عدد الأمة يفيدها اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ، إذ يمكنها من إعداد جيش وفير ، ومن اقتناء الأيدى العاملة الكثيرة ولكن هذا المعنى ينبغى الا ينسينا أن أقدار الأمم لا تناط الآن بالكثرة التافهة العاطلة ، كما تناط بالقلة الناضجة العاملة . وأن الإجابة عن : كيف أهلها ؟ لا : كم أهلها ؟ هى التى تقرر مصاير الأمة وتعين مقامها فى الحياة .

وصحيح كذلك ، أن بعض الأمم الكبرى الناهضة ، تعمل على تنمية النسل ، وتمنح « جوائز الأمومة » لمن تنجب أكبر قدر من الأبناء ، ولكنها أمم مستعدة بنظمها ، وإمكانياتها لاستقبال أبنائها الوافدين الذين يجدون كل الفرص والمباهج والمسرات من أول لحظة تستقبلهم فيها الحياة .

فإلى أن ترقى نظمنا ، ويتم استعدادنا ، وتتسع إمكانياتنا ،

وتستغل ثروتنا المضيعة هباء — ينبغي أن يكون العقم، لا الإنجاب، هو الذي تكافىء عليه الدولة بجوائز ونياشين ..

والآن .. كيف نقاوم هذا الوباء؟

لا نظن أن الحكومة مستعدة لمكافحته بقانون . فضلا عن أن مثل هذا العمل لا يكاد يجدي ويفيد :

وإذن فلنتجه إلى الشعب نلقنه هذه الحقائق , ونحدد لكل مواطن واجبه حيال هذه المشكلة .

ونستطيع عن طريق الإذاعة ، والصحافة ، ومنابر الجمعة ، والمسرح الشعبي الطواف في القرى ، والروايات السينمائية والمسرحية أن ننتصر على هذا الطوفان .

وإني لأناشد كل مواطن يقرأ هذه السطور ويؤمن بها — أن يتعهد بتبليغها إلى عشرة فقط من المواطنين . وإذا نحن سئلنا : ماهي الوسائل التي تمكننا من التحديد ؟ كان جوابنا : ان العلم قد هيأ منها الشيء الكثير . ونستطيع اذا صح منا العزم أن نجد الوسيلة لما نريد .

ان ألما رهيباً يعتصر قلوبنا حين نتلقى في الشوارع بصبية صغار مهازيل قد غامت وجوههم بالصفرة والانكسار والحرمان ، وازدحمت عليها علامات استفهام كثيرة تتساءل:

لماذا جئتم بنا ، وأنتم عاجزون عن إطعام جائعا ، وإبراء سقيمنا ؟!

ومن أجل هؤلاء الضحايا .. . ومن سيلحقون بهم من الذين

يتربص بهم سوء الحظ المختفى فى طوايا الشهوات . . يجب أن نصنع شيئا ونفكر قليلا .

وبعد ، فقد آن أن نفرغ من هذا الفصل . « الخبز هو السلام » بعد أن أضأنا شمعة نبصر فى ضوئها طريق الرخاء والمجد . وبعد أن سقنا بعض الوسائل الهامة التى نعتقد أنها قادرة على إبلاغنا حياة سعيدة ، وتمكيننا من البدء فى اشتراكية واضحة مسعدة .

وقد أشرنا فيه إلى بعض الواجبات المفروضة التى تنتظر كلا من الحكومة ، وأصحاب الأعمال والملكيات ، والمواطنين . فليحمل كل واجباته وتبعاته . . ولنسر معاً . .

إن السياسة لم تعد دهاء وتهريجا . . بل هى — كما يقول سان سيمون — الفرنسى (علم الإنتاج) .

وإن الرأسمالية لم تعد احتكارا وانتفاخ أو داج ، بل هى اليوم (تكافؤ الفرص لجميع الناس) .

وإن المواطنية لم تعد تعنى موقف الحياد والعزلة أمام الواجبات العامة ، بل هى أن تؤدى كل التزاماتك ، كمواطن ، وتحمل تبعة الرشد كإنسان .

قومية الحكم ..

(إن الذى يقول لك: إعتقد ما اعتقده
وإلا لعنك الله — لايلبث ان يقول : إعتقد
ما اعتقده وإلا قتلتك) !

(فولتير)

فى المجتمع اليومى رأى ذائع ، يطالب ذووه بحكومة دينية ، تحكم بما أنزل الله ، وتقيم الحدود فى الأرض ، لأن إقامة حد واحد منها خير للناس من أن يمطروا أربعين يوما .

ومن العبث تجاهل هذا الرأى أو التقليل من شأنه . فإنه — وهذه هى الحقيقة — ينتظم بين دعاته والمؤمنين به مجموعه طيبة من خير عناصر الأمه وشبابها . خرجوا من المحنة التى مرت بهم أكثر إيماناً به ، وأشد تعصباً له . وليس معتقل الطور ، ولا السياط ، بقادرين على إخماد رأى أو تحويله عن وجهته . فالمبادىء لا تعتقل والعقائد لا تعذب ولا تجلد .. وسياط الجند لا تزيد حملة المبادىء والأفكار إلا تفانياً وإصراراً .. لكن التفاهم ومحاولة الإقناع هما اللذان يطهران الأفكار من بعض ما يشوبها من وهم وخطأ .

واذا كنا نرى فى الحكومات الدينية تجربة فاشلة .. ونرى فى العمل على عودتها انتكاسا الى الأنقراطية المرهقة التى تخلصت منها الإنسانية بمشقة وكبد . ومجازفة بالدين ذاته مجازفة تعرض نقاوته للكدر ، وسلامته للخطر .. فقد أصبح من أقدس واجباتنا أن نتقدم لمناقشة هذا الرأى . تحفزنا الى ذلك الرغبة الصادقة فى تطهير كفاح الشعب مما قد يعوقه . أو يرده على أعقابه ، والحرص على صيانة الدين وابقائه بعيداً عن مهاب العواصف والذاريات .

وانا لنقف فى خضم هذا العالم الذى تتقاذف أممه وتتدافع الى الأمام سائلين أنفسنا :

أنمضى قدما أم نتنكس الى الوراء ؟

أنحرف عن قومية الحكم إلى عنصريته وطائفيته ، أم نضاعف هذه القومية وننميها ؟

أنفر من عهد حرية الفكر وحرية القول وحرية النقد — مهما يكن ذلك ضئيلا — إلى عهد من قال لأميره لم ؟ فقد حل دمه وبرئت منه ذمة الله .. أم نثبت هذا العهد ونعاونه على النضوج والاستواء؟

أنمزج الدين بالدولة . فنفقد الدولة ونفقد الدين ؟ أم يعمل كل منهما فى ميدانه ، فريحهما معا ، وتريح أنفسنا ومستقبلنا ؟

وهنا ، فى هذ الفصل سنجيب بصراحة وسنحلل « سيكولوجية » الحكومة الدينية لنعرف الغرائز التى تصدر عنها فى تصرفاتها وسياستها وسنتتبع العناصر السيئة التى تكون شخصيتها ، والمثلات الكثيرة التى ميزت تاريخها بالقسوة والفوضى .

ولا أظننا بحاجة إلى التنبيه على أننا بهذا الاتجاه لا نقلل من قيمة الدين وشأنه ، بل نعمل مخلصين على التحليق به فوق المخاوف والأخطار التى تتهدده حين يدعى لتحمل مسئولية الأخطاء الفاحشة التى تجرها الحكومات المستغلة ، المنتحلة لنفسها اسمه .

ولعلنا لم ننس بعد ، ماحدث للمسيحية .. فحين حولتها الكنيسة إلى دولة وسلطان ، واقترفت باسمها أشد أصناف البغى والقسوة ، جاء يوم ثارفيه الناس جميعاً على المسيحية وعلى الكنيسة ، واتخذوهما هزواً ولعباً ، وخلعوا كل مافى أعناقهم للدين من عهد وطاعة .. حتى إذا عادت الكنيسة بالمسيحية إلى مكانها الطبيعى ، تبشر وتهدى فقط ، رجع الآبقون إليها ، ولاذوا من جديد بها . وبدأت هى تستعيد سلطانها الأدبى ، واستقرارها الذاتى .

لا تغضبوا . . !

وسوف يغضب هذا الفصل ناسا كثيرين ، كما ستغضب الفصول الأخرى ، آخرين وآخرين . . بما قد يجعلنى على أن أصنع مثلما صنع عمر رضى الله عنه ، إذ ضرب كفا بكف وقال يا حق . ما أبقيت لى حبيبا . .

وعزيز على الذين أوتوا موهبة الحب والصفاء أن يعملوا على إغضاب أحد . ولكن ما حيلتهم إذا خيروا بين العاطفة والعقل ، وبين المجاملة والواجب ، وبين الناس والحق . . ؟

إنهم إذن غير ملومين . . على أننا سنظل نتسائل : هؤلاء الغاضبون . . ما الذى أغضبهم ؟

إننا إذ ننقد الرأسمالية مثلا ، لا ننسى أنها عامل من عوامل الرقى ، وأحد الأطوار التى يمر بها التقدم وهو ماض إلى غايته . ونحن لم نسألها إلا أن تفسح الطريق لاشتراكية عادلة يطلبها الشعب ويريدها . وبذلك تظفر لنفسها بحسن الختام .

وحين ننقد الكهانة والكهنة ، فلأجل أن تقرع كلماتنا آذانهم فيفيقوا مما هم فيه من وهم وضلال . وبذلك ينقذو أنفسهم وينقذون معهم ضحاياهم من الجماهير .

وحين ننقد الآن الحكومة الدينية . . ذلك الأمل العذب الذى يرنو إليه فى أفقه البعيد جماعات من الشباب ، ويكاد وهو فى هالته السرية يخطف أبصارهم — فانما يحفزنا إلى ذلك البربهؤلاء الميممين وجوههم شطر تلك الغاية . ، لأن التجارب الكثيرة التى كلفت الإنسانية من وقتها ودمها أبهظ التكاليف جديرة بأن تحملنا على بذل

النصيحة للذين يحاولون إعادة المأساة من جديد ، جاعلين من أنفسهم ومن شعوبهم وقوداً لتجربة فاشلة ..

* * *

لم لماذا يغضبك الرأى المخالف ، والفكرة المغايرة ؟

انك بغضبك هذا تقدم الدليل على أنك لست شيئا .. وأنك لم تبلغ بعد، الدرجة التى تجعلك صاحب فكرة ومبدأ . ذلك أن ولاءك لفكرتك يحملك على احترام فكرة غيرك وتقدير رأيه ، كما يحترم هو فكرتك ويقدر رأيك .

وليس من حقك أن تحرمنى التفكير المستقل أو تسكت ملكة النقد عندى . بل إن ذاك ليس من صالحك .

أواثق انت أنك على الحق ؟

إذن فلا تخش على الحق من المناقشة والمناظرة ، فإنهما لا يزيدانه إلا نصاعة وائتلاقا. ودعنى أفكر وفكر معى ؛ فنحن كما قال أفلاطون:

« مجانين إذا لم نستطع أن نفكر .. »

« ومتعصبون إذا لم نرد أن نفكر .. »

« وعبيد إذا لم نجرؤ أن نفكر .. »

وإذا رضيت أن تكون أحد هؤلاء ، فاذهب وحدك ، ولا تأخذنا معك !

إن الاسترابة فى فكرة لا تعنى العزوف عن الحقيقة .. وما أكثر الذين ينشدون الحقائق بكل ما لديهم من جهد .. ولكنهم يستريبون دائما فى الأفكار (الجاهزة) والأفكار المتغطرسة التى تنادى أحدنا

من عليائها : خل عقلك وتعال .. !

وإنك لتجرد فكرتك من أهم مبررات قبولها وتأثيرها حين يمنحها من القداسة المفتعلة ، مايجعل نقدها فى نظرك خطيئة وتجديفا .

فلتتعلم من غيرنا .. من أولئك الذين سبقونا إلى الرشد سبقا بعيداً .

ولتكن أراؤنا ، مهما اختلفت ، شموعا نبحث فى ضوئها المجتمع عن الحقيقة ، لا حرابا يصطك بعضها ببعض ، ويضرب بعضها بعضا

وليقل كل منا للآخر إذا بعدت بيننا شقة الخلاف :

(أنا لا أقر كلمة واحدة مما كتبت . ولكنى سأقف حتى الموت مدافعاً عن حريتك ، مؤيدا حقك فى أن تقول مانريد) (١)

طبيعة الدين :

لانريد هنا أن نثير البحث القديم . هل الحكومة جزء من الدين أم ليست جزءاً منه . ولن نتعرض له إلا بقدر يسير لايخرجنا عن مهمتنا التى هى تحليل نفسية الحكومة الدينية ، واقامة البراهين على أنها فى تسع وتسعين فى المائة من حالاتها ، جحيم وفوضى . وأنها إحدى المؤسسات التاريخية التى استنفدت أغراضها ، ولم يعدلها فى التاريخ الحديث دور تؤديه .

(١) هذه الكلمة الخالدة التي قالها فولتير لروسو عندما حكمت السلطات السويسرية باعدام كتابه (العهد الاجتماعى) رغم معارضة فولتير لآراء روسو ونبذه لها

وإن مما يهدينا فى بحثنا هذا ، أن نعرف طبيعة الدين ، وطبيعة الحكومة الدينية لنرى بعد : هل يتوءمان ويتداخلان؟

لقد جاءت المسيحية تعلن المحبة .. وجاء الإسلام يعلن التوحيد ولو أنك وضعت إحدى الكلمتين مكان الأخرى لأدت غرضها ، وأفادت معناها .. وكلتاهما وسيلة إلى أجل مافى الوجود وأسمى — إلى الحرية .

ولكن التقليد الذى تلقينا عن طريقة عقيدة التوحيد قد أطفا إحساسنا بها ، ولكى نستعيد وهج هذا الأحساس وحرارته فلنتصور ذلك المبدأ الرفيع وهو يغادر السماء نوراً .. إلى مجتمع معشاره أرباب ، وتسعة أعشاره رقيق وعبيد ، صائحاً بينهم : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم » .. « لا إله إلا الله الواحد القهار » ملاحظين أن ذاك المجتمع كان منطقة نفوذ لأرباب البشر.

فأبو جهل ، والوليد ، وأبو لهب . كل أولئك متألهون .. وجماهير قريش رقيق مستعبد : لا حول لهم ولا طول .

ولكى ترد لهذه الآدمية المهانة اعتبارها ، ثم لكى تقارب بينها وبين المتربعين على قمم الثراء والجاه ، وتوحد المجتمع الذى فرقت بينه فروق غير طبيعية ، واستحوذ عليه أسياد كثيرون — فلا بد أولا ، من أن توحد لهذا المجتمع إلهه وسيده .. أى تهديه إلى هذا الإله الموجود الحق ، والسيد الأحد الذى لا سيد سواه وبذلك تنزل الأرباب الكاذبين عن عروشهم ، وتعلى كلمة الناس ، وتنشر لواء الحرية كى يفىء إلى ظلاله أولئك العبيد الذين احترقت أبشارهم بحر الهجير المنبعث من جحيم الأرباب المخلوعين.

هذا ما صنعه محمد بالتوحيد . .

وهذا ما صنعه عيسى بالمحبة . .

الناس سواسية ، والناس إخوة، والحرية للجميع .. ولقد أدرك أرباب قريش هذه الحقيقة ، ورأوا فى توحيد الإله تقويضا تاما لسيادتهم وما يعبدون .. فلقد أصبحت رءوس العبيد ترتفع إلى السماء بعد أن كانت ترتفع إليهم ، وتقدس لله بعد أن كانت تقدس لهم

يتمثل فهمهم لهذه الحقيقة فى حجاج أبى جهل لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ أجئتنا يامحمد لتجعل ابن سمية الذليل ، والوليد سواء ؟

ـ نعم . فإنما إلا ولدا آدم ، وآدم من تراب .

ـ وتجعلهم أندادا لنا وهم عبيدنا وموالينا ؟

ـ نعم . ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض .

* * *

هذه إحدى خصائص الدين قبل أن تخالطه الكهانات والخرافات .. تحرير البشر من التسلط والاستغلال .. فهل كان فى طبيعة الحكومات الدينية التى حكمت باسم الدين قرونا طويلة شىء من ذلك ؟

سنجيب عن هذا السؤال فى حديثنا عنها بعد أن نزيد طبيعة الدين توضيحا ـ وذلك باقتفاء الغايات السامية التى جاء لتحقيقها والسبل التى سلكها لبلوغ هذه الغايات ،

لقد سأل مفروق بن عمرو : رسول الله :

ـ إلام تدعو يا أخا قريش ؟ فأجاب :

ـ إلى توحيد الله وأنى رسوله .

— وإلام أيضا ..؟

فتلا الرسول هذه الاية الكريمة «إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون».

وهذه أيضا بعض خصائص هذا الدين، العدل فى الحكم، والاحسان فى العمل - فهل اتسمت الحكومات الدينية بهذه السمة فى تاريخها الطويل ؟

والدين يدعو إلى الحب، ويمجد المتحابين فى الله، ويعمل على تكتيل البشر، ويجمعهم على قلب رجل واحد، ويجعل أبغض الناس إلى الله وإلى رسوله أولئك المفرقين بين الأحبة، الملتمسين للبرآء العيب.

ولقد كان الرسول عليه السلام يحس إحساسا واضحا بمهمته ويعرفها حق المعرفة، وهى أنه هاد وبشير. وليس رئيس حكومة ولا جباراً فى الأرض .. عرضوا عليه يوما أن يجعلوا له مثل ما للأباطرة والحكام ففزع وقال :

— لست كأحدهم - إنما أنا رحمة مهداة !

ودخل عليه عمر ذات يوم فوجده مضطجعا على حصير قد أثر فى جنبه فقال له :

— أفلا تتخذ لك فراشا وطيئا لينا يارسول الله ؟

فأجابه الرسول - مهلا ياعمر ! أتظنها كسروية ؟ إنها نبوة لا ملك !

ففى هاتين الواقعتين نبصر تحديداً صريحا لوظيفة الرسول ؛

ومهمة الدين . النبوة لا الملك ـ والهداية لا الحكم

وصحيح أن الرسول فاوض ، وعقد المعهدات ، وقاد الجيش ومارس كثيراً من مظاهر السلطة التى مارسها الحكام ، وأقام بعض خلفائه من بعده حكومات واسعة النفوذ عظيمة السلطان ، كان العدل لحمتها وسداها . ولكن هذا لايعنى أن هناك طرازاً خاصا من الحكومات يعتبره الدين بعض أركانه وفرائضه ، بحيث إذا لم يقم يكون قد انهد منه ركن ، وسقطت فريضة ، بل ان كل حكومة تحقق الغرض من قيامها ، وهو تحقيق المنفعة الاجتماعية للامة — يباركها الدين ويعترف بها

وان الرسول لم يكن حريصاً على أن يمثل شخصية الحاكم ، لأن مقام الرسالة أرفع مقام لولا الضرورات الاجتماعية التى ألجأته الى ذلك ليحقق المنفعة والسعادة لمجتمعه الجديد ، من أجل هذا رأيناه ينفض يده من أكثر شئون الدنيا التى يستطيع الناس أن يلتمسوا لأنفسهم فيها مخرجا ويقول لهم ـ

« أنتم أعلم بشئون دنياكم . »

وعلى ذكر الحكومات التى أقامها بعض الخلفاء الراشدين ، وقبل أن نذهب الى الحكومات الدينية نتحدث عن قسوتها وفوضاها ، نحب أن نلاحظ أن التوفيق الذى صادف أبا بكر وعمر ، وجعل لحكومتيهما تاريخا مفرداً مجيداً ، لاينهض دليلا مناقضا لرأينا فى فساد الحكومة الدينية ـ لأن هذا الطراز الرفيع من الحكم ـ فضلا عن ندرته التى تكاد تجعله وسط مئات من الشواهد الأخرى ظاهرة غير طبيعية — يعتمد على الكفاية الشخصية والكمال

الذاتى اللذين كانا يتمتع بهما رؤساء تلك الحكومات كأبى بكر، وعمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز .. بدليل أنه عندما توفى عمر وجاء عثمان - . ذهبت تلك المقاييس المثالية والخصائص الرشيدة التى كانت تتشح بها الحكومة . . وحلت مكانها أخطاء أودت بحياة عثمان وفتحت على المسلمين أبواب فتنة عاصفة هوجاء، بسبب تلك البطانة التى استغلت وداعة عثمان وثقته المطلقة بها، . فطبعت الحكم بطابعها، وسخرته لأطماعها واستغلالها . ثم توارى بعد ذلك الحكم الجائر والملك العضوض الذى تنبأ به الرسول عليه الصلاة والسلام فى حديثه، « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا».

وهذه المسألة جديرة بالنظر. فرغم ان تجربة الحكومة الدينية قد توافرت لها فى العصر الإسلامى الأول كل عناصر النجاح والتقدم من قادة تناهوا فى الاخلاص ونزاهة القصد، وشعب مترع النفس بالولاء لقادته ودعوته، وجدة المبادىء وحراراتها مما يضاعف فى مؤثرات الفوز والنجاح. رغم هذا وغيره فقد اخفقت المحاولة وانتهى الأمر بعد حين قريب إلى تنافس دموى على الحكم، وفتنة بين الناس وقادتهم وبين القادة بعضهم مع بعض، وإلى نوع من الحكم ليس بينه وبين الدين وشيجة ولا صلة . . وان زعم اصحابه انه حكم دينى . . بل حكم الله ورسوله .!

* * *

الدين والدولة:

عرفنا إذن طبيعة الدين وغاياته التى جمعها الرسول فى هاتين العبارتين من روائعه: نبوة لا ملك . . وإنما انا رحمة مهداة . »

فما حاجة الدين إذن إلى أن يكون دولة .

وكيف يمكن أن يكونها . وهو عبارة عن حقائق خالدة لا تتغير .. بينما الدولة نظم تخضع لعوامل التطور والرقي المستمر، والتبدل الدائم ؟

وهل الدين أدنى مرتبة من الدولة حتى يتحول إليها ، ويندمج فيها ؟

ثم إن الدولة بنظمها الدائمة التغيير عرضة للنقد والتجريح . وعرضة للسقوط والهزائم والاستعمار ، فكيف نعرض الدين لهذه المهاب أو بعضها ؟

إن الذين يريدون أن يجعلوا الدين دولة ، ويؤمنون بوجوب قيام حكومة دينية ، يبررون تلك بثلاثة أمور :

الأول — القضاء على الرذائل .

الثاني — إقامة الحدود .

الثالث — تحرير البلاد والعمل لاستكمال استقلالها ، وإنعاش أهلها .

ونبدأ بمناقشة الأخير فنقول : إنه لا يشترط لتحرير البلاد وتدعيم استقلالها ونهضتها ، أن تقوم بهذا العمل حكومة دينية دون سواها . فإن أية حكومة قومية تتسم بالقوة والوطنية قادرة على تحقيق هذا الهدف . بل هي ولا ريب أقدر عليه من حكومة طائفية لا تمثل وحدة الأمة تمثلا كاملا .

وأما الأول — وهو القضاء على الرذائل : فنحن نعلم أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بتطهير النفس وتعويدها على احترام ذاتها ؛

وليست الدولة هى التى تستطيع بقوانينها ان تهبنا نقاوة النفس ، فما ايسر مغافلة القوانين واقتراف شتى فنون الرذائل دون ان تسمع او تدرى ، بل إن مكافحة الاثم بقانون تجعل له من اللذة والإغراء ما يدفع الكثيرون إلى تذوقه ومقارفته ، ثم إدمانه ، كما ترى فى الحشيش وبقية المخدرات ، وهنا تصدق المحكمة القائلة ما وضعت القوانين الا لتخرق . . ! وتتحقق فطنة عائشة رضى الله عنها اذ قالت (لو حرم على الناس جاحم الجمر لقال قائل : لو اذوقه ؟ !)

فالدين وحده — من غير ان يكون دولة — هو القادر على ان يوقظ فى ضمائرنا واعظ الله ، ويجدد قلوبنا ، ويشبع حاجاتنا الروحية التى اذا نمت وازدهرت اغنتنا من كثير من شهواتنا الخفية والمعلنة

وهذه الهداية الى الفضيلة عن طريق الترويض والاقتراع هى رسالة الدين .

الم تأت يوما على طريق ممتد ، فرايت فى بدايته علامات وشواهد ترشدك تدلك على متجهه ومرساه وهل هو ممهد للسير ، ام به مالا يمكن من عبوره والسير فيه ؟

ان تعاليم الدين كذلك . . هى علامات ارشاد . ترشدك الى الطريق المستقيم ، لكنها لا تكرهك على السير فيه (فمن ابصر فلنفسه ومن عمى فعليها) . . . (وما انت عليهم بجبار) . . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) .

وإن نفوذ الدين ، واثره فى مكافحة الرذيلة ليكونان ارسخ قدما واقوم سبيلا حين يسلك طريقه الى النفوس بالتسامح والرفق والحجاج الهادىء والمنطق الرصين ، اما حين تتحول هذه الوسائل

إلى سوط الحكومة الدينية وسيفها ، فإن الفضيلة آنئذ تصاب بجزع أليم .

* * *

بقيت إقامة الحدود .

فما هذه الحدود التى نريد حكومة دينية لتقيمها ؟

إن الحدود فى الإسلام كثيرة . وحدود السرقة والزنا والخمر هى أهمها وأكثرها اتصالا بشئون الناس ، وهى ايضاً التى يلوح بها طلاب الحكومة الدينية ، ويمنون الناس باقامتها ، كأنما يمنونهم بالفردوس المفقود !

وسنرى الآن ان هذه الحدود جميعاً موقوفة عن العمل وليس هناك مجال لإقامتها .

فأما حد السرقة ، فقد وقفه عمر فى ايام المجاعات ، وصارت سنة رشيدة من بعده .

وسئل الإمام احمد عن رجل سرق محتاجا : ايقام عليه الحد . فأجاب : لعمرى لا اقطعه إذا حملته الحاجة . والناس فى شدة ومجاعة ، والشرق الإسلامى كله مجاعات مادام لم يستوف الناس فيه ضرورات الحياة . . وإذن فحد السرقة موقوف حتى ينزل الرخاء مكان الجدوب والاحال ، ويوم يوجد الرخاء فلن تجد السارقين . . وان وجدتم فاقطع منهم كل معصم وساق — على ان بضع ايد سارقه لن تحتاج الى قيام حكومة دينية خاصة . فمادة واحدة فى القانون تقوم مقامها ، وتبطل الضرورة الداعية لقيامها .

واما حد الزنا . . فان امر اقامته يحمل موانع تنفيذه . فقد شرط الله لإقامته ان تثبت الخطيئة باقرار مقترفها ، او بالبينة واشترط ان تكون البنية أربعة شهود ، وان يروا العملية الجنسية

نفسها رؤية سافرة . . أو على حد تعبير الرسول ذاته «يرون المرود في المكحلة ، والرشاء في البئر» ويكاد يكون في المستحيل حدوث ذلك لاعتبارات كثيرة ندركها بداهة . . ولو في شهوداً ثلاثة رأو الخطيئة رؤية كاملة مستوعبة ، فإن الله لا يقيم لشهادتهم وزنا . . بل ويأمر بجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة ، ويعتبرهم قاذفين لا شهوداً . . !

وإذن فلن يثبت هذا الحد بالبينة . . كما أنه أيضا لن يثبت بالإقرار . فان أحداً لن يذهب من تلقاء ذاته ليقدم نفسه إلى العار والفضيحة والميتة الشنيعة رجماً بالحجارة ، أو جلداً بالسياط ،

ومن أجل هذه العراقيل التي وضعها الدين نفسه في طريق هذا الحد رحمة بالناس وبراً ، لا نجد طول تاريخ الرسول وخلفائه سوى وقائع معدودة . . أقيم فيها هذا الحد . . وكان كل أبطالها معترفين . . دفعتهم إلى الاعتراف نزعة مثالية ، حببت إليهم تطهير النفس وتحميلها مسئولية وزرها في هذه الحياة الدنيا وهي نزعة نادرة بل منقرضة . ولقد رأينا كيف أن أحد هؤلاء المعترفين المثاليين واسمه «ماعز» حاول عند ما وجد مس الحجارة وعذابها أن يفر ، وصرخ : ياقوم ردوني إلى رسول الله ، فان قومي غروني عن نفسي . يقول جابر : فلم ننزع عنه حتى قتلناه فلما رجعنا إلى رسول الله وأخبرناه قال : فهلا تركتموه ، وجئتموني به ؟!)

* * *

وحد الخمر مثل حد الزنا تماما ، في صعوبة تنفيذه أو استحالته

فهو لا يقام إلا بالإقرار أو البينة . وبينته شاهدان ، ولا تنحصر شهادتهما فى رؤية الشارب وهو يشرب فقط ، بل لابد — فى رأى بعض الفقهاء — أن يشهدا بأنه شرب وهو عالم مختار عالم بأن هذا الشراب خمر مسكر ، ومختار غير مكره على شرابه . وهذا العلم مكنون فى ضمير الشارب ، ولن يستطيع الشاهدان بلوغه أو الإحاطة به ، ولا سيما إذا زعم الشارب أنه شرب غير عالم .

ثم ما هو حد الخمر ؟

يروى مسلم فى صحيحه : أن الرسول (جلد شارباً بجريدتين أربعين) ويقول بعض الصحابة : (كنا نؤتى بالشارب فى عهد رسول الله ، فنقوم إليه نضربه بأيدينا . وأطراف ثيابنا) مما جعل بعض الفقهاء ، ومنهم (صاحب الروضة الندية) يرون أن عقوبة الخمر من باب التعزير ، لا الحدود ، وللحاكم أن يعين مقدارها . وهذا الحديث الذى سقناه عن الحدود واضح الدلالة على أننا لا نجحدها ، وإنما نستبعد إقامتها لتعسر أو لاستحالة إثبات موجباتها.

ومن البداهة المدركة أن درء الحد لن يكون معناه أن تخلى بين الناس والآثام يجترحوذتها . . فستكون ثمة عقوبات أخرى زاجرة فى انتظار كل مسىء .

يفسر لنا ذلك حكم عمر فى قضية غلمان حاطب التى مرت بنافى الفصل الثانى من الكتاب . فإنه حين أبى إقامة حد السرقة عليهم إذ تبين مادفعهم إليها من جوع وحرمان ، استعاض عن الحد بتوقيع عقوبة أخرى لا عليهم ، بل على سيدهم الذى كان تقتيره وكزازته سبباً فى اقدام الأغيلة على الجريمة .

ويجب أن نذكر مرة أخرى أن الرسول هو القائل : (ادرءوا الحدود بالشبهات (أى امنعوا إقامتها لأية شبهة عارضة . . ولقد جاء سارق معترف فقال له عليه السلام : (ما إخالك سرقت ! .. وجاءه زان معترف فقال له : ما إخالك زنيت !) .

وقال الإمام احمد — وهو المشهور بتشدده فى الأحكام — لا بأس بتلقين السارق ليرجع عن اقراره (. وذكر ابن قدامة فى الجزء العاشر من (المغنى) بالصفحة (١٩٤) : (أتى برجل سارق الى عمر فقال له : أسرقت ؟ قل : لا — فقال : لا ، فتركه عمر ولم يقم عليه حداً . وروى معنى ذلك عن أبى بكر الصديق وأبى هريرة وابن مسعود وأبى الدرداء ، وبه قال إسحق وأبو ثور ..) .

وكذلك قال ابن قدامة : (يستحب للإمام أن يلتمس شبهة ليدرأ بها الحد)

وبهذه المناقشة العابرة لدعوى (إقامة الحدود) تنتفى الضرورة الداعية لقيام حكومة دينية من أجلها خاصة .

ولا يهرنا أبداً منظر تلك الأيدى المعلقة أمام قصور بعض الحكومات الدينية والتى قطعت لأنها امتدت إلى ثمن رغيف خبز تسكت به صياح أمعاء هاجها الجوع والسغب . . بينما الحكام الذين يزعمون أنهم يحكمون بما أنزل الله يخوضون فى الذهب واللذاذات خوضا . وهم أحق الناس بأن تجرى عليهم تجارب هذه الحدود . غرائز الحكومة الدينية . . !

أما وقد عرفنا شيئاً عن طبيعة الدين ، وخصائصه التى تميزه ،

وتكون شخصيته ، فمن الخير أن نعرف شيئا عن طبائع الحكومة الدينية .. تلك الطبائع التى تأصلت فيها وتركزت مما يجعلنا نستسمح علم النفس فى تسميتها بالغرائز .. وهى بعيدة عن الدين كل البعد. فالحقيقة أن الحكومة الدينية ، وإن ظفرت بهذه التسمية التى توهم أن لها بالدين صلة ، لا تستلهم مبادئها وسلوكها من كتاب الله ولا من سنة رسوله ، بل من نفسية الحاكمين وأطماعهم ومنافعهم الذاتية . ومن تلك الغرائز التى تصدر عنها فى كل اتجاهاتها وهى :

أولا ، الغموض المطلق : فهى تعتمد فى قيامها على سلطة غامضة لا يعرف مأتاها ، ولا يعلم مداها ، وصلة الناس بها يجب أن تقوم على أساس من الطاعة العمياء ، والتسليم الكلى والتفويض المطلق. إنها لا تفسر وجودها بأكثر من أنها ظل الله فى الأرض. ولا تعطى عن مناجها سوى فكرة غامضة كى لا تدع مجالا لمناقشتها ، زاعمة أنها فكرة إلهية .. كأنما الأفكار الإلهية أحاج وألغاز .. ودستورها الذى تخضع له وتقوم به . ما هو ؟ انها حين تسأل هذا السؤال تفر وتهرب الى الغموض الذى لا تستطيع أن تعيش الا فيه وتقول : هو الدين . . هو القرآن .

لكن القرآن كما قال على : «حمال أوجه» والسنة كذلك أيضاً ولقد كان أصحاب على وهم يحرضون على دم معاوية وقتاله يقدمون بين ايديهم طليعة هائلة من الآيات والأحاديث . . هى نفس الآيات والأحاديث التى كان يحرض بها أصحاب معاوية على دم على وقتاله .

وكذلك كان الحال فى الحرب الطويلة الأمد التى دارت بين العباسيين والأمويين .

وبعض آيات القرآن التى استغلت استغلالا مغرضاً فى قتل عثمان وبها تجمع الخوارج حول على . ثم بها ذاتها قتل الخوراج علياً .

ولطالما وقف يزيد الطاغية — الذى لم يكن يطيق أن يرى كأس خمره فارغة — يخطب الناس ويحرضهم على قتل الحسين مسلحاً بآية وحديث .

أما الآية فهى (ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) زاعماً أن الحسين قد شق عصا الطاعة ، وتولى غير سبيل الجماعة .

وأما الحديث فهو . (من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جمع فاضربوا عنقه بالسيف كائناً من كان) ، زاعماً مرة أخرى أن الحسين يعمل على تمزيق وحدة المسلمين .

ولقد صدقته الجماهير الساذجة واستجابت له . ولا سيما حين ألقى فى روعها أن الحسين — نظراً لما له من منزلة ومكانة — هو المقصود بعبارة (كائناً من كان) ، !

ولكن هذا الحاكم الدينى لم يلبث أن جحد القرآن والسنة اللذين كانا سلاحه فى انتصاره . إذ قال وهو يعبث برأس الحسين الذبيح

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحى نزل

ومن المفارقات ، ان هذا الغموض الذى تعيش فيه الحكومة الدينية هو سر ضعفها ، وسر قوتها

فزعمها أنها ظل الله فى الأرض ، وهو الأمر الذى تستمد منه قوتها ، لا يلبث ان يتكشف زيه وبهتانه يكوى الناس ببغيها .

ويلفحهم هجيرها ، فتفقد ثقتهم ، ويتضاءل احترامها فى نفوسهم .

* * *

ثانيا : والحكومة الدينية لاتثق بالذكاء الإنسانى ولا تأنس له ولا تمنحه فرصة التعبير عن ذاته . لأنها تخافه وتخشاه ، وتعلم أنه القوة الوحيدة القادرة عل إخراجها . وهى تقنع الدهماء والعوام بمشروعية هدم الذكاء ومكافحته بحجة داحضة . . هى أن الأولين لم يتركوا للاخرين شيئا ، وأن أمورنا لاتصلح بالابتكار ، بل بالتبعية والتقليد لذلك فهى تفضل أن تستعين بالذين ليست لهم موهبة ، سوى التجرد من كل موهبة . والذين يتمتعون بمناعة ضد الفهم الواسع ، والإدراك الفطن ، والحصافة والوعى .

* * *

ثالثاً : وهى لكى تقنع الناس بضرورة قيامها وبقائها ، تهيب بجانب الضعف الانسانى فيهم ، فتلقى فى روعهم أن رواد الخير والفكر والحرية والإصلاح ، ليسوا سوى أعداء لله ورسوله ، يحاولون نفى الدين من المجتمع ، بهدم السلطة التى تمثله وتصونه .

وإذا كان الناس بطاء إذا مادعوا إلى حب ، وسراعا إذا مادعوا إلى بغض . . . فإنهم سرعان مايسخطون على هؤلاء الرواد المصلحين ، ويدخلون معهم فى عراك طويل تستفيد السلطة الدينية منه فى صرف الجماهير عن مساوئها ومظالمها ، وفى إطالة عهدها ، وتمكين سلطانها .

* * *

رابعا : والغرور المقدس من شر غرائز «الحكومة الدينية» .

وهى لهذا لا تقبل النصيحة ولا التوجيه ، بل ولا لفت النظر ... فضلا عن المعارضة والنقد - وان حرية النقد ، وحرية المعارضة، وحرية الفكر .. كل هذه المقدسات عملة زائفة فى نظرها .لا تسمح بتداولها بين الناس أبدا .. !

وإن الحديث الذى قتل به الحسين لا يزال فى انتظارك إذا حاولت أن تنقد الحاكم الدينى أو تخطئه ...

هنا لك تساق إلى الموت ، وأنت يتلى عليك : « من اراد أن يفرق أمر هـــذه الأمة وهى جميع : فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان » .

أليست المعارضة تفريقا بين الأمة وتمزيقا لوحدة الجماعة ؟ إن الحكومات الدينية لا تفهمها إلا هكذا ، والويل لنا إذا لم نشاركها فهمها الظالم السقيم .

* * *

خامسا : والوحدانية المطلقة - أعنى غرائزها . وهى تحفزها إلى مكافحة الرأى مهما يكن حكيما ، والاحزاب مهما تكن مخلصة نافعة .

وإنا لنذكر تلك الخطبة العصماء . . التى ألقاها الحجاج ويداه تقطران من دم سعيد بن جبير العظيم : .. أما بعد ، فان الإمام ظل الله فى الأرض ، وأنا امتداد هذا الظل اليكم . فمن نازعنا هذا الأمر فقد جعل نفسه نداً وشريكا . « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق .. » !

إن هذه الفلسفة ليست فلسفة الحجاج وحده، بل هي روح كل حكومة دينية قامت، أو ستقوم .. إذا استثنينا بعض حكومات نادرة مثل حكومتي أبي بكر وعمر . فلا نجد حكومة دينية قط تؤمن بغير نفسها، أو تسمح بقيام احزاب تعارضها، أو حتى تهادنها . وإذا كانت تتخذ من تأويل الحجاج السابق مايدعم وحدانيتها، فهي تلتمس لمكافحة حرية المعارضة حجة أخرى تنطوي على كثير من الدهاء، إذا تفهم الجماهير الغافلة أنه ليس معنى الحرية أن يتحرر الناس من الاكراه والخوف والظلم، بل أن يتحرروا من الخطيئة والإثم . .

وإن أكبر الكبائر والآثام هي نقد الحاكم ومعارضة أخطائه ومناقشة تصرفاته . ولكي تؤكد هذا الفهم تزعم للناس أن رسول الله قال : «اسمع لحاكمك وأطعه وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك». هذه هي الحرية - أن تتحرر من الخطيئة . . والخطيئة هي نقد الحكومة وسؤالها لم . . !

° ° °

سادسا : ومن طبائعها الأصيلة . . الجمود العريق الذي يجعل استجابتها للحياة استجابة سلبية وعكسية . فهي لا تسير معها، بل ضدها، ولا تستقبل الأمام بل تستدبره، ويزاملها دائما الركود والوراثية . .

ولو أن حكومة دينية تحررت من الجمود كطبع أصيل فيها . فانها تتكلفه، وتقف بالمرصاد لكل تطور جديد، كيما تظل حائزة ثقة الجماهير التي ارتبطت صورة الدين في ذهنها بكل ما هو جامد وقديم

سابعا : والقسوة المتوحشة تحتل من طبيعة الحكومة الدينية مساحة واسعة . . وهى سيدة غرائزها وأكثرها عتواً ونفوذاً . وإنها لتحز عنقك ، وتهرق دمك ، وهى تصيح من فرط نشوتها : واها لريح الجنة . . ! وكأنما رأسك مزلاج يوصد باب الفردوس ، فاذا انزاح هـــذا المزلاج عن مكانة فتح باب الفردوس وهبت نسائمه . . !

وهى تستمد تبرير قسوتها وبطشها من نفس الغموض الذى تستمد منه سلطتها . فحسبها تعلق فى عنقك اتهاما مبهما بالزندقة والالحاد . . أما كيف ، ولماذا ، وما البرهان ؟ فيجب أن تذكر ، إن كنت قد نسيت ، أن الحكام الدينيين لايناقشون ، ولا يسألون عما يفعلون . . !

* * *

هذه بعض الغرائز التى تعمل فى نفسية الحاكمين باسم الدين . وتعين لهم اتجاهاتهم .. وهى ، كما رأينا ، بعيدة كل البعد عن حقائق الدين وفضائله - فكلاهما لايستويان وجهة ولا وسيلة .. ولانكاد نجد حكومة استغلت لنفسها قداسة الدين وعصمته إلا وهى تنطوى على كل هذه الخصائص والغرائز .

ولدى التاريخ من الشواهد القديمة والحديثة ، المنقوضة والقائمة ما نستبين فى أخلاطه صدق كل هـذا الذى ذكرناه ، وندرك فداحة الهول الذى تعانيه الأمم حين يوقعها سوء الطالع فى قبضة حكومة دينية من ذلك الطراز ، ويؤكد أن الحكومات التى حكمت

الناس باسم الدين — سواء فى المسيحية أو فى الاسلام — كانت أسوأ مثل للحكم الردىء المطلق .. ما عدا قلة نادرة فاضلة ، لاتكاد العين تقع عليها فى زحام الكثرة الباغية .

* * *

ذلك الستار الحديدى

وحين نزعم أن الحكومة الدينية ستار حديدى يخفى وراءه جحيما وفوضى ، لا يكون من العسير إقامة الدليل على صحة هذا الاتهام المتواضع ..

وحسبنا أن نرفع الستار عن التاريخ لنبصر الطريق الذى قطعته الانسانية وهى ماضية إلى غايتها ، كله دم وجماجم وأشلاء .. تروى فى فزع قصة الحرية والرحمة والعدل مع الحكام الدينيين .. وتحكى فى أنين مقطع الأنفاس نبأ الضحايا الذين كان فى بعضهم من النبوغ والعبقرية ما يهب الحياة فنونا وإبداعا لو أنهم عاشوا لها .. ولكن رأياً حراً خافتوا به ، أو قالوه جهرة ، قذف بهم إلى هذا الطريق أشلاء ومزقا ..

وفى أغلب تجاربها الغابرة نجدها لا تبدأ إلا حيث تنتهى حرية الفرد والمجتمع ، وذلك أثر حتمى ونتيجة لازمة لغرائزها القاسية العنيدة التى تحدثنا عنها من قبل حديثاً موجزاً ..

فى الحكومات الدينية المسيحية ابتكرت وسائل التعذيب التى لا تخطر للشيطان نفسه ببال .. فكان « الخازوق » ، ووتد التشهير ، وصلم الآذان ، وحرق العلماء بالنار وهم أحياء ، والتفتيش ... »

وفى الحكومة الدينية الاسلامية حدثت أهوال مروعة ، حتى ان حاكما دينياً واحداً — وهو الحجاج — أباد البقية الكريمة الصالحة من صحابة رسول الله ومقتفى آثاره ومعالمه ، حتى قال فيه عمر بن عبد العزيز : « لو جاءت كل أمة بخطاياها . . وجئنا نحن بالحجاج وحده . . لرجحناهم » .

وان نبش التاريخ القديم ، وإخراج جثث هذه الحكومات من تحت ترابه — قد لا ينهض بالبرهنة الحاسمة على قضيتنا هذه ، كما ينهض بها الاستشهاد ببعض الحكومات الدينية المعاصرة ، وذلك لنعلم صدق نظريتنا الى أخلاقها التى أسميناها غرائز ، حين نرى الحكومة الدينية فى عام « ١٩٥٠ » — صورة طبق الاصل لأصولها القديمة منذ القرون الاولى . . لم تختلف عنها فى تفكيرها ، ولا فى قسوتها ووسائل تعذيبها . . مما يؤكد أن غرائزها تلك ، غير قابلة للتعلية . وأنها لا تتطور ولا تترقى .

وقد يخطر ببالك بعد قراءة الشواهد الآنية عن بعض الحكومات الدينية المعاصرة ، أن تسألنا :

لماذا ضربت هذا الطراز من الحكومات مثلا ؟

والجواب . لان الحكم الدينى للأسف مهما يبدأ سليما صالحا ، ينته لا محالة إلى هذه الدمامة وهذا التدهور . . ولو فرضنا أن حكومة دينية قامت فى مصر اليوم — فإنها ستبدأ بداية حسنة يفرضها عليها ما فى المجتمع الآن من وعى وحضارة . . بيد أنها بعد حين قريب أو بعيد ، ستنتهز أول فرصة تلقاها فى الطريق لتتنكس بنفسها وبالمجتمع الى مجالها الذى لا تستطيع الحياة

إلا فيه . الى غرائزها ومصادر سلوكها . وعندئذ تصير جحيما لا يطاق ، وتصير — كما وصفها الرسول العظيم — « ملكا عضوضا » .

° ° °

وإنا لتخالجنا رهبة مفزعة حين ندير أعيننا فيمن يجوارنا من بعض الأمم ، فنراها ملفوفة فى ضباب الحكم الدينى — كما يسمى نفسه — تئن وتتململ متحسسة طريق الخلاص من حكوماتها الدينية التى كأن التاريخ قد استبقاها لتظل معلماً زاجراً ، وآية مذكرة للذين ينسون تجاربها المريرة ، فيحاولون بعثها من مرقدها .

ولسنا وحدنا الذين نستشعر هذه الرهبة . . بل ان بعض زعماء الشرق الاسلامى قد وجدوها فى أنفسهم وصاحوا بها بين ظهرانى ممثلى هذه الحكومات .

ففى المؤتمر الاقتصادى الاسلامى الدولى الذى انعقد فى كراتشى يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٩ — وقف السيد غلام محمد وزير مالية الباكستان متحدثا عن بعض بلاد العرب التى يحكمها رجال الدين حكما فاشيا جشعا فقال :

« ... هنا مجموعة بشرية هائلة تئن تحت وطأة الفقر ، مع أن لها مصادر طبيعية وافرة ... وان الاقطار الاسلامية لترزح فى الداخل تحت تأثير الطبقات الحاكمة ، وتحت تأثير مجموعة من رجال الدين الجامدين » .

« إن الشعوب الاسلامية لترتجف من الفزع حين تمر بخاطرها

ذكرى الحكومات الدينية التى حولت الإسلام إلى حكم أتقراطى قام على الدكتاتورية والاكراه . . . ولقد كان رجال الدين الذين ارتبطت مصالحهم بهذا اللون الفاسد من الحكم يناصرونه ويدعمونه . . . .

ومنذ أيام قريبة وقف السيد ليـاقت على خان رئيس وزراء الباكستان وصاح تحت قبة الكونجرس الأمريكى .

« إننا لن نسمح للسلطة الدينية أن تعود . . . وليس لها بيننا مكان » ! !

وفى كتاب « النظام الدستورى للدولة المصرية » ، وهو يدرس بخصوص القضاء بالازهر : إن دعاة الديكتاتورية يحلو لهم التشبه بأصحاب الديانات . . . محاولين الظفر بسلطان شعبى لا يأتمر بحكم العقل والمنطق ، بل يرتكز على ضرب من ضروب الايمان الوجدانى » .

ولا تظن أن المؤلف يعنى بأصحاب الديانات — الانبياء والمرسلين — فهم مبرءون من ذلك طبعاً ، وإنما يقصد رجال الدين والحاكمين باسمه الذين يستغلونه استغلالا بعيدا ، ويعبثون به كأنهم أصحابه ومنشئوه . . !

* * *

وإذا كنا الآن سنقدم لك بعض الحكومات الدينية المعاصرة فإنا لن نسميها بأسمائها ، وذلك حتى لا يظن ظان أننا نقصد التشهير والتجريح الشخصى . ولنستمع لشاهد من أهلها ، وهو

كاتب عربي نشر بالقـــاهرة كتابا عام ١٩٤٧ عنوانه : « جزيرة العرب تتهم حكامها » ، وتحدث فيه عن بعض الحكومات الدينيـــة بجزيرة العرب . .

وقبل ذلك نحدد مرة أخرى ما نعنيه بالحكومة الدينية ، ونبين مدلول هذا التعبير .

فالحكومة الدينية التي نقدها ، والتي عقدنا هذا الفصل للكشف عن مساوئها وأضرارها . وللتحذير من الانتكاس إليها — هي تلك التي تعتمد على سلطة مبهمة غامضة ، ولا تقوم على أسس دستورية واضحة تحدد تبعاتها والتزاماتها حيال الشعب كما هو شأن الحكومات القومية ، والتي تمنح نفسها قداسة زائفة وعصمة مدعاة .

ولا تخال الحكومات الدينية المعاصرة والمجاورة إلا من هـذا الطراز . . فهي تحكم بهواها . . ثم تزعم أنها تحكم بما أنزل الله .

وقد نقشت على راياتهـا — لا إله إلا الله محمد رسول الله . . وورا هاتين الشهادتين المظلومتين ، تتربع الحكومات المتألهة التي تتخذ الناس موالي وعبيداً

وسوف نقتطف من كتاب « جزيرة العرب تتهم حكامها » فقرات متنوعة تكون في مجموعها صورة كاملة الملامح لها :

« يشبه نظام الحكم الموجود هناك ، ذلك النظام الشائع في أوربا في القرون الوسطى . . ويسوقون الجمهور نحو أغراضهم كما تساق قطعان الماشية . . يؤتى بمن يراد تعذيبه ، فيؤمر بطرحه أرضاً ويجلس اثنان على رأسه ، ومثلهما على رجليه ، وينهال عليه اثنـــان ضربا

بالسياط حتى يفقد وعيه . فإذا لم يعترف بما يوجه اليه من اتهام أثقل بالحديد ، ثم تقلع أظفاره بالكابتين ، ويكوى بالسفافيد المحماة بالنار ، ثم يخرج بعد ذلك للناس صورة مشوهة متداعية . . قد مسخها الهول والفزع ، وحطمها الارهاب والعذاب .. وهناك فى سجون « . . . » يعيش نصف الشعب بتهم باطلة ، وهى سجون تفوق فظاعتها مايتصوره أى انسان ، فهى قبور مظلمة خالية من النوافذ ، وفى غاية القذارة . ويعيش المسجونون فيها بين جيوش من الحشرات المؤذية . وليس للمساجين غذاء ولا كساء ، بل يعيشون مما يتصدق به الشعب الجائع عليهم . والقيود والأغلال من الأمور الضرورية . وتمضى عليهم السنين وهم يرسفون فيها ، فتتورم مفاصلهم وتتقيح — وهناك عدا القيود ، توجد الخشبة أو الحطبة التى لا يخلو منها سجن فى جزيرة العرب ، ولا تخلو هى من ضحاياها ، وهى تشبه صارى السفن الشراعية ، ممدودة فى أرض السجن ، وفى أعلاها ثقوب تدخل فيها رجلا السجين وتقفل عليها فلا يستطيع الجلوس أو الوقوف ، بل يظل مستلقيا على قفاه كالمعلق لايلامس الارض إلا ظهره » .

هذه بعض فقرات من الكتاب تحدثنا حديث من رأى وسمع عن القسوة والارهاب اللذين تفرضها حكومات دينية على البشرية المعذبة هناك . وقد اخترنا أهدأ الفقرات وأرطبها حتى لاتحرق أعصاب القارىء وتزلزل سكينته .

وهو يحدثنا عن المستوى الفكرى لتلك الحكومات وشعوبها وعن السياسة المرسومة هناك لحرمان الناس من كل علم وثقافة فيقول فى صفحة « ٣٢ » :

« وذات يوم كنت جالساً عند رئيس شعبة سياسية — فى إحدى هذه الحكومات — فطلب الرئيس مدير المدرسة فلما حضر دار بينهما هذا الحوار :

مدير المدرسه : ماذا تأمرون يامولاى الرئيس ؟

رئيس الشعبة السياسية : أين جدول الدروس ؟

ثم يتناوله ويطالعه بامعان ويقول :

— ماهذا ؟

— جغرافيا يامولاى .

— جغرافيا ! أما تعلمون انها حرام ؟

— نحن يامولاى الرئيس لانعلم الجغرافيا المحرمة . بل نعلم فقط القسم الحلال منها ، وهو الذى يعين على معرفة القبلة وأوقات الصلاة !

— لماذا لاتعلمون علم التوحيد عوضا عن هذا ؟

— نحن نعلم القرآن وفيه توحيد وأخلاق وتربية

— لكن كتاب « كشف الشبهات » كتاب جميل فى التوحيد.

ثم التفت إلى مدير المدرسة غاضبا ، وتناول القلم الاحمر ، وشطب كلمة « جغرافيا » من الجدول ووضع مكانها كلمة « توحيد » كتاب كشف الشبهات » .

ترى هل سيصدق القارىء هذه القصة . إنها حقا تكاد تكون أسطورة . ولكم كنا نود أن تكون خيالا حتى لانجد جماعات بشرية تضرب عليها هذه الجهالة الصارمة . . ولكنها لسوء حظنا حقيقة مؤكدة ، تؤكدها مهزلة أخرى نعلمها علم اليقين . فقد ألف رجل أمى لايحمل أية درجة علمية كتابا حكم فيه بكفر من يقول

بحركة الارض ، وبالجاذبية ، وزعم أن الامراض «عفاريت» تحتل الاجسام ، وذكر أنه هو نفسه قد أجلى بعض « العفـــاريت » بالضرب عن جسوم كانت مريضة فشفيت . . وأهاب بالمسلمين ألا يعلموا أولادهم الجغرافيا لانها زندقة وضلال . ثم رفع هذا الهذيان الى الحكومة الدينية التى حرمت تدريس الجغرافيا فى مدارسها ، فتقبلته بقبول حسن . وأمرت أن يمنح هذا المؤلف ، هذه الجمجمة الخرعة ، مرتباً شهريا قدره أربعون جنيها مصريا - عدا هبات أخرى - تكريما للعلم والعبقرية والنبوغ . . !

أربعون جنيها أو تزيد - تقتطع من قوت الشعب ثم تمنح مكافأة دائمة لاحد الذين يعملون على حرمانه من النور والحياة ...

وتقديراً لكتاب يخجل تلميذ احدى المدارس الاولية عندنا ان ينسب اليه . . !

* * *

ولنعد لكتاب « جزيرة العرب تتهم حكامها » ليحدثنا عن اقتصاديات هذه الحكومات الدينية فيقول :

« . . . وهناك تحتبس مرتبات الموظفين والجند وأرزاقهم عدة شهور متوالية .. وليس للمرافق العـــامة أى نصيب يذكر .. ويستهلك الحكام من الكماليات والضروريات ما يعادل نصف الدخل العام . ويذهب ربع الدخل هبات وأعطيات متنوعة المقاصد .. ويوزع الربع الباقى من الدخل العام على الموظفين ، وعلى مرافق البلاد العامة .. !! »

ونحن من جانبنا نذكر نبأ نشرته الصحف فى حينه ، يدمغ تلك

الحكومات بالفوضى الاقتصادية المزرية ... فقد سافر أحد كبار أمرائها يوما الى أمريكا . وهناك قدم الى الرئيس « ترومان » سيفاً من الذهب الخالص ، فى غمد من الذهب الخالص أيضا وقدر ثمنهما بعشرين ألفاً من الجنيهات .. فماذا كانت هديته ؟

إنها صورة له على « كارت بوستال » لا تزيد تكاليفها عن عشرين قرشا .. !

ويحدثنا كتاب « جزيرة العرب تتهم حكامها » ، كما يحدثنا كل الذين زاروا تلك البلاد ، أنه ليس بها مستشفيات ولا أندية ثقافية ولا مدارس تذكر .. وليس مرد ذلك الاهمال العمرانى الى عجز مالى .. فقد رأينا كيف يمنحون الهدايا والمرتبات ، وكيف يعيش كبراؤهم فى ترف تتضاءل أمامه خرافات الف ليلة وليلة .. ولكن الاسباب ترجع الى عقيدة الحكومة الدينية ، حيث ترى فى مثل هذه المنشآت هرطقه وضلال .

وعلى الذين يرون فى هذا التفسير مبالغة منا ، ان يستمعوا للقصة الآتية :

حدث ان تفشى وباء «الطاعون» فى أمة من تلك الأمم ، حيث راح يحصد الناس حصداً مروعا ، وعلمت حكومة أجنبيه بالكارثة التى أحدثها الوباء الخبيث فعرضت على الحكومة الدينية ان توفد الى بلادها بعثة طبية لانقاذها . فما كان جوابها الا ان قالت :

« ان الطاعون رحمة من الله ورضوان . ونحن لا نكافح رحمة ورضوانه » !!

وفى هذا البلد السعيد . . دعيت طبيبة فرنسية لمعالجة إحدى زوجات بعض حكامه .. ولما غادرته إثر انتهاء مهمتها صرحت لوكالات الأنباء بأن نسبة الوافيات بين أطفال هذا البلد « ٩٥ ٪ » وأن هذا الشعب مهدد بالانقراض والاختفاء فى مدى مائة عام إن لم تتداركه حكومته المتوكلة على الله .. والناصرة لدين الله ! !

* * *

وحسبنا هذا القدر بعد أن اكتملت ملامح الصورة المفزعة التى يخوف الله بها عباده . . صورة الحكومة الدينية « موديل ١٩٥٠ » الحكومة التى تحرم تدريس الجغرافيا ، والتى ترى فى الطاعون رحمة لا تعالج ولا تكافح ، والتى تحبس نصف الشعب فى سجون تأنفها الحشرات ، والتى تجلد بالسياط عمال مطبعتها الحكومية لأنهم طالبوا مرة بزيادة أجورهم ، والتى جعلت من بلادها « سلخانات » بشرية ، تفوح منها رهمة الاضطهاد وريح العذاب ، والتى لا تعرف بلادها سلاما ولا أمنا سوى سلام الموتى وأمن القبور ..

* * *

ونكاد نسمع من يقول : إن بعض الحكومات القومية المتمدينة قد تقترف من وسائل التعذيب والبغى مثل هذا الذى قصصته علينا . . وهذا حق . . بيد أن الحكومة القومية التى تتبع سبيل البغى لا يمكن أن تبقى طويلا مهما حاولت تبرير بغيها وقسوتها لأن من ورائها رأيا عاما حرا قادرا على أن يزلزلها ولو بعد حين ومن ورائها كذلك قوى هائلة تشريعية ، وقضائية تستطيع أن تخرجها .

أما الحكومة الدينية مهما تكن مهذبة الاوضاع ، فالامر كله لها . لا معقب لحكمها . ولا معارض لمشيئتها .

ومرة أخرى . . لا تحاجونا بعصر . . فإنكم لن تجدوا من طرازه سواه .

إن المعارضة فى الحكومات المدنية واجب وطنى وأمانة قومية ووظيفة سياسة يقدسها الدستور ، ويقوم بخدمتهـــا القانون . ولزعيمها فى البرلمان من الحقوق والاعتبار مثل ما لرئيس الحكومة ورئيس البرلمان . بينما هى فى الحكومة الدينية جريمة وكفر — ومهما تظاهرت بمنحها شيئا من التسامح الشكلى . فانها تضمر إزاءها تعصبا فعليا تستمده من غرائزها ومبادئها .

ثم إن الحكومة القومية لا تجمع مساوىء الحكم الاخرى التى تتميز بها الحكومات الدينية من جهل ورجعية وجمود - لانها تتجدد دائما وتسير مع الحياة ومع التطور دون أن تشد بحبال من مسد إلى تقاليد قديمة جامدة .

ولطالما أسائل نفسى عن مصير مصر لو أنها قضت هذه الحقبة من حياتها فى ظل حكومة دينية . . ؟

أى انحطاط كان سيجعل منها مسخا شائها . وأية لعنة كانت ستحيق بها وتجعل منها نسخة أخرى من تلك الطبعات الرديئة التى رأينا بعضا منها .

لقد كان من المستحيل أن تزدهر حياتنا الفكرية والوجدانية والعمرانية هذا الازدهار الذى يعكس علينا حيويته وجماله .

وكان من المستحيل أن ينبغ من بيننا فى الادب والعلم والفن والصحافة - أولئك الذين نبغوا فى ظلال الحكم القومى .

وكان من المستحيل ان تظفر بهؤلاء الرواد الاحرار من الكتاب والمصلحين الذين لانسمع اسم أحدهم أو نقرأه حتى تنساب فينا احاسيس الحرية والفضيلة والحب ومشاعر المعرفة والسمو والجمال

لم تكن المرأة ستبلغ هذا الذى بلغته من الثقافة ، واستواء الشخصية، والكمال: لأن المرأة فى منهج الحكومة الدينية مجرد حلس ومتاع .. ولم تكن الحرية الشخصية ستظفر بما ظفرت به من حقوق — لأن الحكومات الدينية تخافها وتضرب على شعوبها ستار حديديا من الجاسوسية والارغام ..

ولم تكن قافلة التقدم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ستسير ، لأن الحكومة الدينية تمثل التقاليد التى لا تتغير ولا تسير . . وتعلم أن كل تقدم يصاحبها تدهور فى قوتها وقيمتها .. وشعارها الخالد : ليس فى الامكان ابدع مما كان . . !

* * *

رجل الدولة . . . ورجل الدين

ماهى وظيفة الدولة ؟

ماهى وظيفة الدين ؟

أما وظيفة الدين فقد ذكرنا من قبل أنها الهداية والارشاد إلى أنبل مافى الحياه من معنويات وفضائل ، وتبليغ كلمات الله التى تهدى إلى الحق والفضيلة والصلاح والعمل عل تنقية النفس الانسانية وتجديدها باستمرار حتى تظل مرآه صافية تنعكس عليها أخلاق الله. الأمر الذى دعانا اليه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله :

« تخلقوا بأخلاق الله . إن ربي على صراط مستقيم » .

بقي أن نعرف وظيفة الدولة — وهي رعاية المصالح المدنية للمواطنين بتنظيم معيشتهم . وإقرار النظام بينهم ، وتوفير أسباب الحياة لهم من علم وصحة وحرية ، والمحافظة على سلامة الوطن من أي عدوان خارجي ، وفق احكام قوانين الدولة .

ومن المقابلة بين الوظيفتين — وظيفتي الدولة والدين — نستطيع ان نرى الفارق الكبير بين اختصاص رجل الدولة ، واختصاص رجل الدين ، ونرى أيضا الفارق بين وسائل كل منهما . .

فاختصاص رجل الدولة . . حماية القانون وتنفيذه لصالح الأمة . ووسيلته لذلك الاكراه والعقاب بالنسبة لكل مواطن لايحترم قانون دولته ويطيعه .

واختصاص رجل الدين . . العناية بالنفس الانسانية كيما تظل فاضلة وثيقة الصلة ببارئها .

ووسيلة الوعظ والارشاد والاقناع .

إذن فهل يستطيع رجل الدين أن يصير رجل دولة ؟ أي يصبح من حقه استعمال الاكراه وإنزال العقاب ؟

لقد أجاب الله على هذا بقوله الكريم : « لا إكراه في الدين » وأما قوله : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله » . فهو حكم خاص بحالة الاعتداء الخارجي المسلح . بدليل قوله تعالى « فان قاتلوكم فاقتلوهم » وقوله : « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

وبدليل أن الرسول لم يكن يكره أي بلد يفتحه ، على الايمان والارتباط بأوامر دينه ودعوته إذا هم دفعوا ضريبة الحراسة . .

فلو كانت القوة أو الإكراه وسيلة للإيمان والدين - لفرض عليهم إذن أن يؤمنوا وهم كارهون .

ومن هنا يصبح منطق رجل الدين غير مستساغ ولا مقبول إذا هو طالب بالدولة ليخدم الدين وينشر مبادئه .

لأن وسائل الدولة من عقاب وإكراه لا يمكن أن تحمل الانسان على عقيدة معينة . وهى كما يقول « تمستيوس » لا تنتج إلا اعترافات يحدوها الرياء والنفاق .

ولا تثبت المبادىء الدينية ، والفضائل المثلى ، إلا بالتقبل والاقتناع ، ولذلك فإن الوحى لم يحاول أبداً أن يفرض حقائقه على الناس لعلمه أنه لا جدوى من هذا الإلزام إلا إذا اقتنع العقل بالموعظة الحسنة ، والمنطق الوئيد .

قد يقول رجل الدين :

أريد أن أكون رجل دولة وحكومة ، لأحمى الدين من الملحدين الذين يشككون الناس فى حقيقته ، ويضائلون من قيمته ، وينشرون فلسفات إلحادية جاحدة .

ولكن حتى هذه الحجة لا تبرر قط أن يصير الدين دولة — وهى تحمل بين طياتها المحاولة نفسها التى قلنا إن الدين يبرأ منها هى فرض الايمان بالاكراه والبطش . . اذ ليس من اليسير أن تطلب الى انسان الإيمان بفكرة أو عقيدة وقد سلبته حق بحثها ومناقشتها واختبارها .

واذن فقبل أن تطالبه بالايمان ، لابد أن تمنحه من الحرية ما يمكنه

من إيمان مدروس رشيد . .

إنه لا إيمان بغير اختيار ، والعقاب لا يغير العقائد ، ولا يمكن أن تفرض الهداية بقانون، لأن الأمر سيكون ، كما قال «جون لوك» :

« إما أن يصاحب القانون عقاب للمخالفين ، أو لا يصاحبه .

« فان كان بغير عقاب فانه يفقد نفوذه .

« وإن يكن الثانى . . فمعنى هذا أن الايمان الذى يراد فرضه عاجز عن الاقناع ».

وما دام الإلحاد فكرة باطلة مزعزعة الوجدان والبرهان .. فهل تعجزنا عن دحضها بالمنطق والقول ، حتى نذهب ونلتمس لأصحابها التعذيب والتنكيل ؟

هذا ، وإن الحكومة القومية تحمى عقائد الدين وتصونها ، ولكن برسائلها المعقولة، التى يجذبها الدين وينشرح لها قلبه ، والتى تعتمد على الاقناع ، وتحترم حرية الفكر وحرية الضمير . لطالما كان الإلحاد تهمة تسخو بها الحكومات الدينية على كل عبقرى تخشى عقله ، وتخاف ذكاءه .

وما نبأ « ابن رشد » مفخرة الإسلام المفردة بغائب عنا : فقد نفاه الخليفة الأندلسى ، وطارده رجال الدين مطاردة عنيفية بعد أن خلعوا عليه كل ألقاب الزندقة ، وأوسمة الإلحاد !

فاذا أراد رجل الدين الصادق أن يخدم وطنه ودينه ، فليبق مكانه مبشراً ونذيراً ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيراً .

* * *

والآن :

لعلنا نكون قد وفقنا فى عرض وجهة نظرنا هذه .. وأتحنا للآخرين فرصة التفكير فى موضوعها من جديد .

وإنا لندعو كل مواطن ، قلبه جميع وروحه حر ، أن يناقش هذا البحث بفكر غير متحيز ولا متعصب ، وأن يبحث فى ضوء العقل والتجربة أمر الحكومات الدينية ، فقد يهديه بحثه الى كشف مساوئ أخرى لها لم نفطن اليها . . وقد يؤمن معنا أن إثمها أكبر من نفعها ، وأنها ، وقد جعلت شعارها : اعتقد ما اعتقده وإلا قتلتك ، تذيب شخصية الأمة ، وتشيع فى المجتمع الخوف والانحطاط ، وأنها كالنبات الطفيلى . تستل الحياة مما تستمد منه حياتها — وهو الدين . ان أجل خدمة نؤديها للدين ، هى أن نجعله قريبا من قلوب الناس ، عميقا فى نفوسهم ، ونطعم الدولة والمجتمع بروحه الحى ، ومعنوياته الفاضلة — لا أن نأتى بحكومة تستغله فى تقديس ذاتها ، وتبرير أطماعها ، واستكراه الناس لجبروتها .

وأجل خدمة نقدمها للوطن — هى أن نعمل بكل وسيلة مستطاعة لتنمية القومية وتكتيلها ، والصعود بروحها ونظمها الى قمة الرسوخ والاستقرار .

وإن أمام الشباب الراغب فى خدمة بلاده ميادين ثلاثة تتعجل العاملين وتناديهم اليها .

الخدمة الدينية — لرفع مستوى النفس الانسانية واتمام نورها .

الخدمة الاجتماعية — لرفع مستوى الضمير الاجتماعى واضرام حيويته .

الخدمة السياسية ـ لرفع مستوى الوعى والحكم ، وجعل السياسة خدمة لاحرقة .

ولن نستطيع أن نجيد احدى هذه ، إلا إذا انفردنا لها وركزنا كل حياتنا وجهودنا فيها .

أما الذين يظنون أنهم يقدرون عليها جميعا ، فانهم يجعلونها جميعا فلنختر لأنفسنا المجال الذى يتخصص فيه نشاطنا .

خدمة الدين ، عن طريق الدعوة والإرشاد .

أو خدمة المجتمع ، عن طريق الخدمة الاجتماعية بوسائلها المعروفة .

أو خدمة الدولة ، عن طريق السياسة السافرة الرشيدة التى تمثل منهجا مرسوما ، وفكرة ذا موضوع .

ومرة أخرى ـ اذكروا أن الدين يجب أن يظل كما أراده ربه نبوة لا ملكا ، وهداية لا حكومة ، وموعظة لا سوطا . .

وان فصله عن السياسة وتحليقه فوقها ، خير عامل على بقاء نقاوته وطهره ونفعه .

وان فصله عن الدولة ينجيه من تحمل تبعات أخطائها ومظالمها ، ويحفظ له فى نفوس الناس وداً مكينا ، وذكراً باقيا ، واستجابة وتلبية .

وقبل أن نغادر هذا الحديث ندعوكم لأن تصلوا معنا من أجل تلك الشعوب المعذبة الضريرة التى تعيش هناك . . فى بلاد الجوع ، والخوف والحكومات الدينية .

الزوجة المعطلة ..

(إنما النساء شقائق الرجال .. لهن مثل الذى عليهن بالمعروف) .

[محمد رسول الله]

منذ بضعة أعوام ، تتلقى العلم على الشيخ فاضل — رحمه الله — وكان يفسر سورة « المزمل » ولبث فى تفسيرها زمنا طويلا . بيد أنه مكث زمنا أطول عند هذه الآية الكريمة : « وذرهم والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا . إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما . يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » .

ظل يفسرها بأسلوب وعظى فياض حتى قضى شهرين كاملين، ولما يبرحها .

وفى أثناء درس من تلك الدروس ، وقف أحد الطلاب وقال للشيخ .

— متى نغادر هذه الآية ؟ فأجابه :

— عندما تغادر نفوسكم مكانها .

وكانت لفتة أدبية من الشيخ لها اثرها ومغزاها : فهو لا يريد ان يغادر هذه الآيات المرجفة حتى تزحزح نفوسا عن مكانها ، وتذهب ببعض مافى القلوب من ظلمة وقساوة .

ذكرت هذه الواقعة المؤنسة عندما اردت ان اكتب عن حقوق المرأة السياسية أو الإنسانية ، كما أحب دائما ان أسميها ، اذ تصورت شفاها كثيرة ترتعش بهذا السؤال .

— متى تنتهون من الحديث المكرر المعاد عن المرأة وحقوقها وجوابنا عليهم .

عندما تنتهون أنتق الى الاقناع بأنها إنسان ، لها مثل ماللانسان من حقوق ، كما أن عليها مثل الذى عليه من تبعات .

وإلى أن تبلغوا هذه النهاية السعيدة المشرفة ، وتخافتوا من ضوضاء الجدل ، وصياح الاستنكار ، سيظل الذين يدركون ما فى ممارسة المرأة لحقوقها من مغانم كثيرة ، يتحدثون ويتحدثون .. حتى يتبين لكم الخيط الأسود من الفجر .

* * *

الآن . ولماذا ؟

وهذا حديث ، نسوقه فى إيجاز عن قضية المرأة المصرية ، وإنه لمن توفيق الله وأنعمه أننا لم نعد إذ نتحدث عنها نطالب بحقها فى الثقافة والعلم ، فقد كسبت هذا الحق لنفسها ، وبدأت الطلائع تتدفق كالنور المذاب حاملات معرفة المعاهد وثقافة الجامعات ليفيدن بها بلادهن الظمأى إلى جهدهن وجهادهن .

نعم ، لم نعد بحاجة الى المطالبة بتعليم الفتاة ونحن نبصر كل صباح تلك الرءوس المرتفعة التى تشق شوارع القاهرة ، والمدن المصرية ، كأنها شموع مضاءة ، تلتى وهى فى طريقها الى معاهد العلم نوراً كاشفاً على ذكرى أولئك النفر الخالدين . . قاسم امين ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، وهدى شعراوى ، الذين شادوا فوق كثبان الرجعية المنهارة ، نهضة المرأة المصرية النامية ، بعد أن فضوا عنها قيودها ، وجعلوا لها من الجهالة والانحطاط مخرجا .

سنتحدث اذن حديثاً مباشراً عن حقوق المرأة السياسية التى يتساءل بعض الناس عن قيمتها وفائدتها لمجتمع لم يحسن رجاله حتى اليوم ممارسة حقهم الانتخابى — كما يتساءلون عن امكان تحقيق

ذلك ، وللمجتمع دينه وتقاليـــده اللذان يقفان دون تمرس هذه الحقوق . . وكما يتساءلون ، وما أكثر تساؤلهم ، عن وظيفة المرأة التى خلقها الله لها وهى رعاية البيت وتربية الأولاد . . من سيقوم بها بعد أن تصبح هى ناخبا . ونائبا ، ووزيراً ؟!

وهى أسئلة تدل على أن أصحابها من السذاجة بحيث لا ينبغى أن تكون معارضتهم واستنكارهم عائقين عن تحقيق هذا الهدف المفعم بالاحتمالات الحسنة النافعة .

*

عندما ظهرت أول دفعة من المحاميات امتدت موجة استنكار من المتزمتين لم تلبث أن انحسرت عندما رأوا أن اشتغال المرأة بالمحاماة لم يجرح كبرياء التقاليد ، ولم يصب الفضيلة بسوء .. ومن قبل ذلك تكررت نفس التجربة عندما ظهرت الطليعة الأولى من المعلمات ، والكاتبات ، بل والطبيبات والممرضات ..

وان كتاب « تطور النهضة النسائية فى مصر » للدكتورين بدرية شفيق ، وابراهيم عبده ، ليحدثنا عن المشقة والجرح اللذين صادفهما « محمد على » عندما أراد أن يفتح مدرسة للمولدات . فاضطرته التقاليد وحماتها ، أن يشترى عشراً من الجوارى السوداوات ليتعلمن فن الولادة بإشراف كلوت بك .. لأنه لم يكن مسموحا للفتيات يومذاك أن يتعلمن حتى ألزم الثقافات لهن — وكان مصدر هذا الحرمان والتحريم ، التقاليد ، والفهم المغلوط للدين .. ولقد اخترت هذا المثال بالذات ، لأنه كاد يتكرر فى العام الماضى أى بعد مرور قرن من الزمان .. اذ قام وزير خطير ، ففكر وقدر . . ثم نظر .. ثم عبس وبسر .. ثم أصدر أمره بحرمان الفتاة المصرية

من السفر فى بعثات علمية الى خارج البلاد .. مع أن ثمة من المعارف مالا يمكن أن نظفر به فى بلادنا وجامعاتنا .. كما أننا لا نملك حق منع فتاة من الطموح العلمى ، والتماس المعرفة فى كافة مواردها إلا إذا جاز لنا حرمان الفتى من هذا الطموح . ،

يقولون حسب البنت أن تتعلم الثقافة الخفيفة ، وتجيد التدبير المنزلى ، وتطريز الثياب !

وهذه القناعة فى الواقع بعض أعراض مركب النقص والشعور بالدونية الذى يجلعنا من أصحاب الهمم الهزيلة الضحلة التى لاتفوز بالرغبات الكبيرة ، والآمال الشامخة .

وإلا فلماذا لا نخرج من بين فتياتنا أمثال مدام كورى ، وهل إذا شاءت إحداهن أن تكونها ؛ ثم ذهبت تلتمس وسائل ذلك عند قيم الثقافة بهاتيك البلاد ، نمنعها نحن من هذا الحق ، ونهزأ بطموحها المتسلق الجرىء ؟ !

هكذا حاول وزير معارف مسئول ،أن يصنع .. ومتى، فى منتصف القرن العشرين !

ويحدثنا أيضا كتاب « تطور النهضة النسائية ، عن الحيلة التى لجأ اليها فيلسوفنا الأعظم لطفى السيد باشا ليسر دخول الطالبات جامعة فؤاد يوم كان مديراً لها ، إذ أصدر إلى سكرتيرية الجامعة تعليمات تقضى بتقييد اسم كل طالب يحمل شهادات تؤهله للتعليم العالى دون اشارة الى جنس الطالب ، وبهذه الطريقة سار الأمر بغير صعوبة فى البداية ، وقبلت الفتيات فى الجامعة » .

« وفى سنة ١٩٣١ ظهرت صورة للدكتور طـــه حسين بك فى نادى الجامعة وعن يمينه ويساره الطلبة والطالبات جلوسا يتناولون الشاى ، وقامت القيامة لهذه الصورة البريئة التى تضرب المثل للأبوة فى وجود العميد مع الطلبة والطالبات ، واتخذت الصورة تكأة يتخلص بها الرجعيون مع طه حسين ولطفى السيد .. »

« وفى سنة ١٩٣٧ أبدى بعض الطلبة رغبتهم فى فصل الفتيات عن الفتيان فى الجامعة ، وأبدت الصحف هذه الرغبة .. ثم ظهرت بعض العناصر الرجعية فى عهد مجلس الوصاية وهاجمت الجامعـــة مهاجمة شديدة ، ودعى البعض الى التظاهر فى الشوارع والهتاف بألفاظ نابية لا تليق » .

ونحن نختار هذه الأمثلة أيضاً لنقابلها بما حدث منذ عام . . . إذا وقف وزير الزراعة من خريجات عالمات يحملن من المؤهلات مثلما يحمل معاليه . . موقفا انطوى على كثير من الانتكاس وســـوء التقدير .

وفى هذه المقابلات ، والمفارقات ظاهرة عجيبة هى التى سقنا من أجلها هذه الشواهد والأمثلة .

فنحن نلاحظ خلالها أن التحرش بحقوق المرأة ونهضتها ، كان فى الزمن الأول يأتى من أدنى ، لا من فوق . . أى من بعض طوائف الشعب من الجاهلين ، والمتزمتين ، والجامدين من رجال الدين .

أما اليوم فقد بدأ يجىء من فوق ، أى من بعض وزراء الدولة وكبار رجالها المسئولين . . !

هذه واحدة . .

والدلالة الثانية لتلك الظاهرة — هى أن حقوق المرأة المصرية

لاتزال حتى اليوم ، ورغم ما أظهرته من براعة وتفوق فى كل عمل مارسته . . بغير ضوابط وقوانين تؤمنها وتحميها ، وتكفل لها وسائل الرسوخ والنماء ، رغم أنها انسان ، ومواطنة . ولو أردنا تعريفها فإننا نقول : « مواطن مصرى له حقوق وعليه واجبات » هذه ثانية . . .

والدلالة الثالثة . . . هى ذلك العبث الحكومى الذى اتخذ من قضية المرأة غرضه وميدانه ، فبجرة قلم يركلها وزير إلى الوراء مائة عام . . . وذلك القانون المتناقض الذى كان منـــذ عام واحد يمنح بعض المصريات المنحرفات بطاقات يمارسن بها الدعارة والبغاء . . . ثم يحرم المصريات المثقفات من بطاقات يمارسن بها حقا مشروعا هو الاقتراع ! !

والذى أباح للمرأة أن تكون محامية ، وحرم عليها أن تكون قاضية ، رغم إفتاء شيخ اسلام سابق هو الأستاذ الأكبر الإمام المراغى بجواز ذلك شرعاً ! !

والذى أباح لها أن تكون أستاذة ، وناظرة ، ومفتشة . . ثم استكثر عليها أن تكون نائباً أو شيخاً بالبرلمان

صحيح ان هذا كله آت لا ريب فيه . . وكل آت كما يقال ، قريب . . والمرأة المصرية تؤمن بذلك ايماناً حملها على الصبر ، والحكمة والاتزان . . ولكنها اليوم ، وأمام هذه النكسة التى جاءت من فوق ، وأصبح محتملا أن تتكرر مرات ومرات . . لم تعد تطيق البقاء خارج الأسوار . . . فى منفى المنبوذين ، ولم تعد تقبل أن تقرر مصايرها فى غيبتها .

فيقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود

وكذلك لم تعد تأنس للوعود الكثيرة التى تسيل عذوبة ونفاقا وتنضح رقة وكذبا . .

وصار من حقها أن تصيح فى وجوهنا قائله :

إن صدقا لا أحس به هو شىء يشبه الكذبا

وما دام مصيرها قد أمسى معلقا بأهواء الحاكمين ، ونزعاتهم الشخصية — فقد وجب أن تشترك فوراً فى البرلمان وفى الحكم كى تساهم فى تقرير مصيرها ، وكيانها ، وكى تعمل بما تمليه غريزة المحافظة على الذات حتى تنجو من طوفان الرجعية قبل أن يطغى على معالم كفاحها ونهضتها — فليس أحد مثلها يستطيع التعبير عن ذاتها وتفهم مطالبها ، والدفاع عن مصالحها . وإن أفق الكثرة الغالبة منا — نحن الرجال — لأضيق من أن يتسع لإدراك قضيتها . لأننا لا ندرسها فى ضوء مطالبها الحيوية ، وطبيعتها الإنسانية . . . بل نستعرضها دائما فى ظلام العقد النفسية ، والرواسب العصبية التى تغمض بها شخصياتنا . وإن انحصار خواطرنا فى المرأة ، والتهيب من كل محاولة طيبة تبديها ، لدليل على اكتظاظ نفوسنا بتلك العقد الخبيثة التى تلقى فى روعنا أنه لا إصلاح ولا رقى ولا فضيلة إلا بإذلال المرأة وإهدار حقها ، واكراهها على أن تعيش ضريراً ، لا ترى النور ولا الحياه .

ولكى نقتنع بأن المرأة على حق اذا هى لم تأتمن على مصالحها سواها . . فلنستمع للسيدة « انجى أفلاطون » تحدثنا فى كتابها القيم « نحن النساء المصريات » عن المؤامرة السافرة ضد المرأة ، وتحيز الرجل لنفسه تحيزاً ظالما .

« . . . فالقانون المصرى يبيح الخيانة من جانب الرجل بشرط واحد فقط ، هو أن يخونها فى غير بيت الزوجية — وأرض الله واسعة ..! ولنترك القانون نفسه يتحدث، وكأنه حين يتلو أحكامه يتوارى خجلا من أنانية الرجل الصارخة ! . فالمادة « ٢٧٤ » من قانون العقوبات تقول :

— المرأة المتزوجة التى ثبت زناها يحكم عليها بالحبس مدة لا تزيد عن سنتين .

وهذا شىء جميل ! فالقانون يأخذ الفاسدة من النساء أخذاً عنيفا رادعا . وأما الفاسد من الرجال فهو الذى تعنيه المادة « ٧٧ » حين تقول :

— كل زوج زنى فى منزل الزوجية . . يجازى بالحبس مدة لاتزيد على ستة شهور .

إذن ، فالفاسد من الرجال — فى عرف القانون — ليس الزانى فى أى مكان ، وإنما من يذهب به الفجور إلى حد ارتكاب فعلته فى منزل الزوجية . أليست أرض الله واسعة؟ !

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد . فالفاسدة من النساء تواجهها عقوبة الحبس مدة قد تصل الى سنتين . أما الفاسد من الرجال — بل الفاسد الفاجر الذى ذهب به الفجور الى ارتكاب الزنا فى منزل الزوجية — فالعقوبة التى تواجهه لا تتجاوز ستة شهور !

هل نبالغ حين نقول ان القانون المصرى يبيح للرجل الزنا، بل يشجعه ويحبذه ؟

ثم نقلت المؤلفة ، المناقشة التى دارت فى مجلس النواب فى أثناء

عوض هذا القانون . وانك لتشعر وأنت تتلوها بالخجل الذى شعر به بعض النواب المحترمين الذين عارضوا القانون يومذاك أمثال الاساتذة مكرم عبيد باشا ، واسماعيل سلمان حمزة، وزهير صبرى.

ولو كان ضمن أعضاء البرلمان الذى نظر هذا القانون نساء ، لا ستطاعت احداهن ان تصرخ فى وجوه النواب قائلة : ان الله — أيها السادة — عندما شرع عقوبة الزنا لم يفرق بين الرجل والمرأة فقال : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة). وجعل عقوبة الزوجين اذا خان أحدهما أو كلاهما أمانة الزوجية واحدة . فمن أين لكم هذا التمييز الذى جعل عقاب الزوج المنحرف أياما يقضيها فى السجن ، أو عشرة جنيهات يدفعها غرامة . . بينما تسجن الزوجة المنحرفة حولين كاملين ؟ !

وحدوا العقوبة بين الاثنين ، عسراً ويسراً . . . والا فأنتم ظالمون .

بل أكاد أثق بأن النساء لو شهدن عرض هذا القانون لطالبن بعقوبة أشد وأعنف من السجن سنتين ، ولكن بشرط أن يستوى فيها الرجل والمرأة .

أفليس من الإنصاف اذن أن يتاح لنصف الأمة فرصة الدفاع عن نفسه ، بل والدفاع عن الفضيلة التى أثبت الرجال أنهم بمفردهم غير قادرين على الدفاع عنها . . ؟

وهناك مظهر آخر لاهدار حقوق المرأة ، والتفنن فى ظلمها ، تنقله لنا أيضا السيدة « إنجى » فى الصفحة الحادية والعشرين من كتابها .

, قدمت وصفية سيد أحمد شرف أمام محكمة الجنح بتهمة اعتدائها على زوجها با لضرب ، وفى الجلسة سألها القاضى عن صحة التهمة المنسوبة اليها فأجابت :

— نعم لقد ضربته دفاعا عن نفسى أمام ضرباته ، فقد كان مسلحاً بأداة صلبة أراد أن يحطم بها رأسى . فاضطررت الى ضربه لأتفاد الموت على يديه .

ودافع محامى الزوجة دفاعا طويلا ،وأقام الحجج والبراهين على ضرورة المساواة بين الزوجة والزوج فى الحقوق والواجبات . ولكن المحكمة لم تشاطره هذا الرأى ، وقضت بأن للزوج الحق فى تأديب زوجته جسمانيا وضربها ، وأدانت الزوجة فحكمت عليها بالحبس شهراً مع ايقاف التنفيذ ، ا . ه

لمثل هذا تريد المرأة أن تمارس حقها السياسى . لترفع الإصر والأغلال التى عليها ، وتقضى على الفوارق الظالمة المعتسفة التى تفصل بين شطرى الأمة من رجال ونساء . فهل هناك موانع صادقة تحول بينها وبين ماتريد ؟

ستنظر ...

* * *

منطق الطابور الرجعى :

ان رجال الطابور الرجعى يلوحون فى وجه الحقوق النسائية بالدين تارة ، وبالتقاليد تارة أخرى ، أو بهما معا .. هذا عدا مايسمونه بالخروج عن الوظيفة الأصلية التى خلقت المرأة لها ، وهى المنزل .

وانه لمن سوء الحظ أن ترانا مضطرين لإنفاق الوقت فى محاجة هذه الأوهام وتفنيدها ـ ولكننا نخطئ كثيراً اذا استرسلنا معها فى الجدل والنقاش ـ لذلك نكتفى بوقفة سريعة معها .

أما موقف الدين من حقوق المرأة فإنه يتعب المعارضين ويخذلهم ورغم أن الإسلام بمبادئه وتشريعاته يقف بجانبنا ، ويبارك وجهة نظرنا فى هذه القضية ، الا أننا نستحي أن نقحمه فى مسألة نفض يده منها بعد أن بارك كل تطور فاضل رزين يطرأ عليها . لذلك نكتفى بأن ننثر على أسماعهم هذه الأسئلة :

هل تعلمون أن النساء كن يجتمعن مع الرجال فى مسجد رسول الله . . وأن مناقشة فى « موضوع جنسى » دارت علناذات يوم بين الفريقين ، ورسول الله مثيرها وشاهدها ؟

وهل تعلمون أن امرأة انشقت عنها الصفوف فى المسجد يوم كان عمر يقدم مشروع قانون لتخفيض المهور وتحديدها . وبعد ابدائها رأيها فى جرأة وحصافة سحب امير المؤمنين مشروعه وهو ينحنى اعجابا بهذه السيدة ويقول : اصابت امرأة ، واخطأ عمر ؟

وهل تعلمون ان كارثة كادت تودى بحياة الإسلام وتزهق انفاسه يوم الحديبية ، حين ابى اكثر المسلمين ان يصالحوا قريشا ويتحللوا دون ان يحجوا . . لولا رأى انبثق من فكر امرأة . . اذ دخل الرسول على ام سلمة غضبان أسفا ، فلما اشارت عليه وانفذ مشورتها ، التأم الصدع ، واستمع الجمع واستجابوا لأمر الرسول الذى عاد لصاحبة الرأى جذلان فرحا يقول :

« حبذا أنت ياأم سلمة ، لقد نجا المسلمون بك اليوم من عذاب اليم ! ؟ »

هل تعلمون هذا وأضعافه معه ؟

إذن فلا تقولوا : إذا كانت أموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها . . فان فى النساء من أنقذت عمر من إمضاء قانون مجحف ، وفيهن من حسمت فتنة عاصفة وأنجت المسلمين من عذاب أليم !

يقولون : ليس للمرأة حقوق سياسيه ، لأن الله يقول : « الرجال قوامون على النساء » . ومعنى هذا أنها دون الرجل فى البيت ، وفى المجتمع ، وفى الدولة .. وهو تأويل لايقدر عليه سواهم — بيد أن معنى الآية واضح جلى ، ولا يحتمل كل هذا الالتواء والاعتساف . فهى لا تعدو أن تكون تزكية لسلطة الرجل فى الاسرة ، وامتيازاً عائليا يمنحه الرجل نظير مايحمله من تبعات . بدليل قوله تعالى فى نفس الآية : « وبما أنفقوا من أموالهم . . »

والآية الكريمة تشبه فى الدلالة قولنا : « البرلمان قوام على الحكومة » ، فهل يدل هذا التعبير على أن الحكومة ليس لها حقوق تمارسها ؟!

على أن هناك حجة حاسمة تغنينا عن كل حجة ودليل — هى ذلك التفويض المطلق الذى حدمنه الدين للناس حين قال الرسول : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » .

أليست هذه الحقوق السياسية من شئون الدنيا ؟

نعم — ونحن إذن أحرار فى اختيار الوضع الذى يحقق منفعتنا الاجتماعية ، ولا يجعلنا بين العالم سخرية وهزؤا .

* * *

ويحتجون بالتقاليد والفضيلة . . فما هي هذه التقـــاليد ، وهذه الفضيلة ؟!

لقد سبق أن ناقشنا هذا المنطق المرتجف فى عدة مقالات نشرتها مجلة بنت « النيل » مشكورة . وقلنا فى إحـــداها ، تحت عنوان : « الرذيلة . . فى ثوبها التنكرى ! »

هل صحيح أن الغيرة على الفضيلة والتقاليد ، هى التى تحفزنا إلى مقاومة التطور ، والكيد للمرأة ؟ إن يكن ذاك كذلك ، فما أحوجنا إذن إلى تحـــديد معنى الفضيلة والرذيلة ، ومعرفة مدى مايجب على الأمم أن تقدمه للتقاليد من طاعة وولاء .

إن الفضائل الاجتماعية والقيم العليا التى تنظم حولها حياة المجتمع وتناط بها وجهته . ليست التى يرتضيها فرد ، أو جماعة من الناس ، وتلائم تفكيرهم وإحساسهم . بل هى التى تنسجم مع القاعدة . . . وتسمو عن الشذوذ . والقاعدة هنا : هى التطور ؛ والشـــذوذ : هو الرجعيـــة والانتكاس . . فكل زحف الى الوراء مهما يتسم بحسن النية وسذاجة القصد ، ليس سوى رذيلة فى ثوب تنكرى خداع . وليس هناك إثم أشـــد ، ولا خطيئة أخش من مقاومة التطور ، وإخضاع مستقبل الامم لجهلها القديم .

ذلك أن التطور إرادة الله ، وروح منه . وما مثـــل الذين يحاولون مقاومته إلا كباسط كفيه الى الشمس ليقفها عن المسير ! ؛ والاسلام كما ينبغى أن يفهم ، لاينـــاوىء التطور ولا يخاصمه . . . وما نسخ القرآن بعضه بعضا ، وتبدل بعض آياته وأحكامه إلا لفتة علوية تكشف عن جلال هذا التطور ، وضرورته للناس وللحياة

وأما التقاليد ، فليست سوى مظهر اجتماعى للأمة — وليست قواعد ومبادىء خالدة أبدية تخضع لها ، وتصدر عنها فى كافة عصورها

وأجيالها ... وهى دائبة التغير والتبدل ويغير الشيء معناه خروجه عن ذاته — واذن فليس للتقاليد ذاتية أبدية تستحق الولاء والتقديس ، ونحن الذين نخلقها ونصنعها ، فلا يليق بنا أن نعبدها كما تعبد الأصنام .

أما تصورهم أن ممارسة المرأة حقوقها الدستورية سيحول بينها وبين رعاية المنزل والحياة الزوجية ، فهو تصور مضحك — وكأنما حسبو أن كل امرأة من الاثنى عشر مليونا ، سوف تصبح عضو برلمان ، وأن مجرد مباشرتها هذه الحقوق سيسلب منها خصائصها فلا تصلح بعد أن تكون زوجا لبعل ، أو أما لولد ، أو ربة لبيت !

* * *

المصفدات فى الاغلال :

لقد انطلق نساء العالم من السجن البغيض الذى كن يعشن فى ظلمه وظلامه - حتى نساء الدول الناشئة والتى تدين بديننا ، وتقاليدها مثل تقاليدنا - نفضت عن نسائها ما كن يتلفعن به من أسمال الرجعية والبلى ... فهذه هى باكستان ، ترسل الى اضخم منظمة عالمية — هيئة الامم المتحدة — مندوبة لا مندوبا ، هى السيدة « شايست أكرم الله » .

وتلك « اندونيسيا » تختار لوزارة الشئون امرأة فتبدى فى وزارتها نشاطا فذا وتفوقا بعيداً .

ولقد رأيت صورة لجيش النساء فى « باكستان » وهن يتدربن

فى ساحة التدريب على كل أعمال الجيش ، فرأيت منظراً يخطف الأبصار ويبهر الانفاس

ولم يبق فى الدنيا سوى نساء مصر ، ونظائر من نساء بعض الدويلات النائية التى لاتقع عليها العين فى زحام الحياة .. محرومات من حقوقهن المشروعة ... فمنذ عام « ١٨٩٣ » ، واعترافات الدول بحقوق نسائها تتابع وتتوالى انهيالا متداركا .

فانجلترا وأمريكا وروسيا وفرنسا والهند وبلجيكا واستراليا وفنلندا والنرويج والدانمارك واندنوسيا وهولندا والباكستان والتشيك والنمسا والمجر واليونان وأفريقيا الجنوبية وسوريا .

كل هذه الدول التى لاتعيش وراء (جبل قاف) ولا فى بلاد السند والبند ... بل على الكوكب الذى (يتشرف) بحملنا فوق ظهره ... قدمكنت المرأة من حقوقها كمواطن وكإنسان ووضعت عنها أغلال التقاليد والجهالة .

ولقد آن للمصفدات فى الاغلال عندنا أن ينطلقن . وآن للرئة المعطلة أن تؤدى دورها ، ليتشق المجتمع بها أنفاس الحياة .

إن حرمان المصرية من حقها الانسانى ؛ حرمان للمجتمع من فرصة نابضة جديرة بأن تجعله راقيا وعظيما — كما أنه يشيع فى أنفس نصف الأمة ، الشعور بالدونية ، الذى يضعضع الشخصية ويبدد الكيان .

ونحن حريصون على أن تكسب حقها فوراً ليصحح بذلك وضع خاطىء ومخطىء ، جعل مؤتمر السفراء الذى انعقد فى لندن

أخيرا يكتب عنا فى تقرير والذى نشرته صحف العالم . والذى ننقله عن جريدة الاهرام :

« ... إن شعوب الشرق الاوسط لا تزال تعيش عيشة بدائية ، وإن قوى الرجعية تجذبها إلى الوراء جذبا عنيفا . . . وإنه ليس هناك سوى دولتين اثنتين فقط تسيران فى سياق التطور والرقى هما تركيا وإسرائيل . . ! »

وحريصون على ذلك أيضا — لتنقذ ملايين الفرويات اللاتى يضربن فى عشواء الجهل ، ويعشن عيشة السوائم . ولن يستطيع إنقاذهن سوى المرأة المثقفة عندما تتاح لها المساهمة فى تشريع القوانين وتنفيذها — فتضع منها وتنفذ ما يأخذ بيـــد أولئك الامهات والاخوات .

وحريصون مرة ثالثة . لأن منطق المرأة سليم ومقنع حين تـألنا فى دهشة :

كيف تجلسون على كرسى النيابة رجالا لا يعرفون من الحروف الأبجدية إلا الكفاف . . وتحرمون من السيدات والفتيات من يحملن أرقى الدرجات العلمية . العالمية والمحلية ؟ !

حقاً إنها مهزلة ! !

وحريصون أيضا ، لان المرأة انسان . لها فكر وارادة وشعور . واذن فمن حقها ان تظفر بحقوق الانسان .

وهى كذلك ، مواطن ، توزن بالمعياد الذى يوزن به كافة المواطنين . ولقد سوت الشرائع كلها . سماوية ووضعية . بينها

وبين الرجل فى تحمل المسئوليات والتبعات ، فلماذا لايسوى بينهما فى التمتع بالحقوق ؟

وحريصون مرة خامسة — لأن المرأة لم تباشر عملا إلا وأتت فيه بما يشبه المعجزات . . وكفاحهن أيام الأوبئة لا يزال يتألق أمام أعيننا ليذكرنا إن نسينا . فاذا وسعنا لها نطاق السعى والعمل والتجربة كان ذلك خليقا أن تنتفع البلاد بجهودها فى كل مجال وميدان .

واذكروا يا أعضاء الطابور . . الرجعى . أن ممارسة المرأة لحقوقها لن تزيدها إلا سموا وشعورا بالكرامة . وأن العفة التى تغارون عليها لا يجرحها إلا الحرمان والتكبيل وإشعار صاحبتها أنها مجرد شىء يلعب به ويستمتع ، وليس لها بعد ذلك مالسيدها الرجل من امتيازات وحقوق . . وهذه العفة لاتعصمها وتصونها جدران كهف أو بيت . بل جدران النفس الباطنية ، والمناعة الذاتية الحرة التى تنشئها الثقافة والتجربة واحترام الذات ، وممارسة الحقوق التى تجعل من صاحبها كما قال « أمرسون » فضيلة قانونية واجتماعية وسياسية .

* * *

لقد آن أن تحل هذه العقدة النفسية عند كلينا — الرجل والمرأة وتنتهى من دك آخر حاجز ظالم يحول بين المصريات وحقوقهن . ولقد وجد بعض حضرات أعضاء الشيوخ أن الدستور بنصوصه الحاضرة لا يمنع عن المرأة حقها ، ووجدوا نصا « جاهزا » لايحتاج

لغير التطبيق والتنفيذ . . ولكن حكوماتنا لا نوال تنتظر الوقت المناسب . .

ولنتوجه بالحديث الى نساء مصر المثقفات لنصارحهن بأن الوقت المناسب لن يجيء حتى يبدين اهتماما أكثر ، وحتى يصبغن سعيهن بالإيجابية الجادة الحاسمة .

ومن هذه اللحظة يجب على الهيئات النسائية جميعها ، أن ترسم منهاجاً كاملا موحدا لتحضير المرأة الريفية وتمدينها .

وليس من الضرورى أن نبـــدأ من تحت . . فنعلمهن جميعاً القراءة والكتابة ، بل إن البدء من فوق . . أسرع وأنفع . . فنعلمهن مالابد منه من المبادىء الصحية ، والطريق التربوية العملية والأشغال الخفيفة التى تستطيع أن تدر من ورائها ربحاً .

هل تعلمن أيتها السيدات ، ، أن تسعين فى المائة من أخواتكن فى القرى يعالجن رمد العين بروث الدواب .. ويعالجن سعال أبنائهن بشراب البول فى الصباح المبكر « على الريق » ! ! ويعشن فى جو مسمم بالجهل والخرافات ؟

نريد أن تؤمن كل فتاة مثقفة بلغت السنة الرابعة الثانوية فما فوقها ، أن فى ذمتها للوطن ، تحضير نساء عشر . . عشر فقط ؛ تنقلهن من حيوانات صامتة إلى بشرية ناطقة شاعرة حية .

والطرق لهذا كثيرة ، نقترح منها أن تتفق الجماعات النسائية كلها على إنشاء تعاون مشترك بينهن لتنفيذ منهج يدرسنه ويتفقن عليه ويقمن مكتبا « للخدمة الريفية النسائية » ، وتدعى كل فتاة مثقفة الى تقييد اسمها فى هذا المكتب ، حيث تتلقى دراسة أولية للعمل الذى

ستقوم به ، وتختار بعض القرى ، ولنبدأ بالقريبة من القاهرة ، وتعيناً لكل قرية بمجموعة من تلك الفتيات الرائدات .

وتقسم نساء القرية الى عشرات ، وتتولى كل فتاة منهن عشراً . وتتردد المجموعة على قريتها مرتين فى الشهر على الأقل ، وفى مواقيت معينة بحيث يمكن على موعد مع عشراتهن . فاذا هبطت المجموعة البلد ، انطلقت كل رائدة إلى عشرتها تعلم نساءها كيف ينظمن بيوتهن ! كيف يربين أولادهن ! كيف يسعدن بحياتهن ! . وتحدثهن عن بلادهن . ما هى ، وما تاريخها ؟ وما واجب كل امرأة نحوها ؟

سيقول السذج من الناس ، ما فائدة ذلك ؟ ولسنا مستعدين أن نناقشهم فى جدوى هذا التثقيف حتى يعرفوا أولا أثر الثقافة فى تكوين الشخصية وإنمائها .

يعلمنهن التطريز والحياكة ، وحفظ الأطعمة وتجفيفها . ويرشدنهن الى ضرورة احتفاظ كل سيدة « بأجزاخانة منزل » فى صندوق صغير تضم كل وسائل الاسعافات الأولية ، ويعرضن عليهن أشرطة للسينما الثقافية المكدسة بوزارة المعارف فى اجتماع عام « بدوار العمدة » مثلا . . ويقمن لهن مهرجانات ، ويمنحهن جوائز مشجعة مثل « وسام الأمومة » ولا يمنح هذا الوسام لمن تنجب أولاداً أكثر بل التى تنجب اولادا اصح وانظف . ويعلمنهن ضرورة ووسائل تنظيم النسل وتجويده . . وهكذا نطرد فى المشروع ونحقق كل احتمالاته النافعه المفيدة ، وحبذا لو بدىء به فى عطلة الصيف القادمه .

ولا ينبغى ان يعوق المثقفات عن هذا الواجب شىء .. ولا قيمة لأى اعتبار قد يصدهن عن هذا السبيل ، كائنا ما كان .

ان خلق مجتمع متحضر نوعا ما لنساء الريف .. يقف على رأس الوسائل الضرورية اللازمة لنمونا ونهضتنا ، وفى ذمم المثقفات وضمائرهن ، يستقر هذا الدين ، منتظراً الوفاء والسداد .

وفى ذمة كل حاكم وزعيم ومواطن ، تستقر حقوق النساء جميعا وحق مصر فى أن تنتفع برثتها الثانية المعطلة ..

وبعد ..؟

(ليس المشكل النصيحة ،
وإنما المشكل قبولها) ،
[الغزالى]

إلى هنا ننتهي من عرض وجهـــة نظرنا في الموضوعات التي طرقناها ، راجين أن نكون قد وفقنا إلى الوفاء بالعهد الذي التزمناه في مقدمة الكتاب إذ قلنا :

— إنه شمعة مهداة إلى المجتمع ليبصر في ضوئها ويرى .

ولقد بذل هذا الكتاب من ذات نفسه كل ما في طاقته كيما يدل على الذي هو خير . . ونرجو أن يكون القارىء قد بذل هو الآخر من ذات نفسه ما يتقبل به هذه السطور البريئة الصدر من كل هوى وغرض .

لقد آمنا بوجوب مواجهة مشكلاتنا مواجهة صريحة جريئة ، والآن نهيب بكل قارىء واجه معنا بعض هـــذه المشاكل على صفحات الكتاب ، أن يواجهها في نفسه كذلك ، فان العناية ببحث مشكلاتنا من أبعث البواعث على الرجاء .

ولقد أرسل أحد تلاميذ الإمام الغزالي بكتاب إليه ، يسأله فيه ذخراً من النصح والتوجيه . فأجابه الغزالي إلى طلبه بكتاب بدأه بهذه العبارة الواسعة :

« يا بني . ليس المشكل النصيحة ، وإنما المشكل قبولها » . وإذا كان المجتمع لم يسألنا نصحا ولا مشورة ، فلأن هذا الأمر واجب مفروض ، وعلينا أن نسارع إلى أدائه دون أن ندعى إليه ، ودون ان نرجو من وراثه جزاء أو شكورا .

نعم : ليس المشكل النصيحة ، وإنما المشكل قبولها . ولكن لماذا يعسر علينا تقبل النصح والنقد ؟

إني لا أكاد أعرف لذلك جوابا وتفسيراً أفضل ولا أحكم مما قاله « ج . بيوري » في كتابه « حرية الفكر » .

وهو أن الحقائق التى تأتى مغايرة لاراثنا القديمة ، وأفكارنا الموروثة ، تتطلب منا أول ماتتطلب ، تغيير « عالمنا العقلى » .. وليس فى مكنة كل أحد أن يستجيب لهذا الداعى؛وينظم من جديد عالمه العقلى القديم المقدس .. اترانا سنظل عاجزين عن مطاردة الأوهام والمخاوف التى تحول بيننا وبين هذا التغيير . ؟

إذالم نحاول ،فسنظل كصاحب المركبةالذى كان يسير بمركبته المجهدة فى طريق متعب ؛ تتعثر وتتكفأ .. حتى إذاصادف فى طريقه عابراً سأله .

— كم بقى من هذا التل ؟ فأجابه الرجل دهشاً .

— تل ؟ . أى تل . . ؟ إن عجلتيك الخلفيتين منزوعتان ..!

هكذا نحن ، سنظل نتعثر ونتكفأ . . ظانين أن ظروفنا هى العائق ، وهى المانع ؛ وهى التل الذى يجهد العربة ويثير النقع الكثيف .

والحقيقة أن عجلتى مركبتنا المنزوعتين هما مصدر شكوانا وألمنا وعثارنا .

لابد لناعن عجلات جـــديدة .. لابد من تغيير ، وتجديدفى « عالمنا العقلى » لنعلم أنه لم يعد على ظهر الأرض ماهو مستحيل .. وأنه لايزال فى الامكان أبدع وأروع مما كان — وإن العقول المقفلة التى لاتتقبل الجديد .. والعقول الحائرة المترددة التى لاتريد أن تستقر وتقع على الصواب . . هذه وتلك عاجزة عن أن تؤدى للوطن ضريبة وجودها حتى تتجرد الأولى من التحصن ضد الجديد، وتتحر الأخرى من التردد والذهول .

وهذا الكتاب لا يزعم أنه يعلم كل الناس شيئا جديدا . فبعضنا تحس هذه المشاكل ، حين يديره خواطره على شئون بلاده .. وفى كل ضمير منا تململ وألم . بيد أن المشاكل لا تزال قائمة ، جاثمة - فلماذا ؟ .. لأن ضميرنا فى شخصياته المتعددة . . ضميرنا الاجتماعى ، وضميرنا السياسى ، وضميرنا الدينى .

هذا الضمير يرهقه الجبن والهلع ، فيفر من المشكلة قانعا بالتألم والتفجع والحزن . بل هو أحيانا يخلق المشاكل بنفسه لنفسه ، ويقتنع بعد بأنها فوق مستوى طاقته ومحاولاته .

فلنعلم ان المشكلة التى لا حل لها ، لم تخلق قبل ، ولن تخلق بعد وان كثيرا من مشاكلنا نحن بالذات لا يكاد يكون لها وجود إلا فى حروف الكلمة التى تعبر عنها . ولكن الجبن - جبن الضمير ، وجبن الوازع ، وجبن الارادة - هو الذى يمسك بها أن تحل وتزول . . وما أروع هذه الحكمة الصينية ، وأكثر انطباقها علينا :

« قد يجد الجبان ستة وثلاثين حلا لمشكلته . . ولكنه لا يعجبه سوى حل واحد منها ؛ هو الفرار ! ! » فنحن نعرف حلولا جمة لمشاكلنا . ثم نخافها جميعا ونرهبها ، ونلوذ بالفرار ، حلال المشكلات ؛ وصانع المعجزات .. !

لا بد إذن من نبذ هذا الجبن من ضمير الفرد ، وضمير المجتمع ، وضمير الدولة .. والانطلاق من إسار الوهم والخوف ، ليخلص كل إلى واجبه بؤدية بلا تردد ولا تهيب .

* * *

ولعلنا لم نسمع قط عن حادث تصادم جاء نتيجة الأناة والانتباه والتمكن من مفتاح السرعة وعجلة القيادة . . بيد أننا نسمع كثيرا عن تلك الحوادث التي يسببها الطيش السريع ، والسرعة الطائشة . . من أجل هذا ندعو إلى التشبث بالأناة والتؤدة . ولكن اية اناة هذه التي ندعو إليها ؟

انها ليست المرادفة للموت او الركود والنوم العميق . بل هي التي تزامل التطور المستمر ، والعمل المستمر ، والسعي المستمر الى حسن ما في الحياة من فرص ، ونظم وإمكانيات .

وان الأناة بهذا المعنى لهي الباب الذي تنفذ منه الى المجتمع اقوى الحياة الثابة المتزنة المجدية . اما ذلك النوع الآخر منها ، الذي عودتنا إياه حكومتنا ، فهو نوع ردىء لا يفضي إلا الى احد شيئين : الموت ، او الانفجار .

* * *

والآن ، توشك الرحلة التي بدأناها معا ، ايها القارىء ، ان تنتهي ، ويذهب كل منا إلى سبيله .

وإني لأرجو ان نكون قد قضينا في كتابة هذا الكتاب من جانبي .. وفي قراءته من جانبك — وقتا طيبا مباركا فيه .

ولكن قبل ان نمضي . . قف لنذكر معا هذه الحقائق .

لابد من تغيير ، عالمنا العقلي ، او تهذيبه ، وترويضه حتى يسمح لكل فكر جديد ان يمر به ويجتازه .

لابد من نبذ الجبن وقهر المخاوف ، وشحن ضمير الفرد ، والمجتمع ، والدولة بالشجاعة القادرة على مواجهة المشكلات وفضها

لابد من التســـامح ، والحنان ، والأناة ـــ فهذه الثلاثة ، امضى سلاح تتسلح به فى رحلتنا الى المجد . فلنعمل بالحكمة القائلة : ليتســـامح بعضنا مع بعض ، وليؤازر بعضنا بعضا فنحن جميعا نخوض معركة واحدة ـــ هى الحياة ،

لابد من البدء الناجز بالعمل حتى ولو فشلنا ، فكما قيل : « الذى يعمل ويفشـــل ، خير من الذى لايعمل وينجح » ولا بد من ان نخطو الخطوة الاولى فى طريق الواجب المفروض على كل من الفرد والجمـــاعة والدولة .. ذاكرين ذلك المثل الصينى : « ان رحلة طولها ألف ميل ـــ تبدأ بخطوة واحدة » .

* * *

وبعد . . . فلست اعرف ، وأنت تأهب لطى هذا الكتاب ، ما رأيك فيما قرأت ؟

اما نحن .. فقد قلنا كلمات . . نحسبها مجدية .

قلناها . . والحاجه إليها اعظم ما تكون

6660

Date Due

Demco 38-297

الثمن ١٠ قروش

NYU - BOBST
31142 02822 0450
DT70 .K5 1950
Min huna-- nabda